أكتب لكم من طهران

31.8.2019

دلفين مينوي

الطبعة الثانية

سيرة روائية

ترجمة: ريتا باريش



دلفين مينوي

أكتب لكم من طهران

سيرة روائية

ترجمتها عن الفرنسية:

ريتا باريش

أكتب لكم من طهران



Je vous écris de Téhéran **أكتب لكم من طهران - سيرة روائية**

by: Delphine Minoui تأليف: دلفين مينوي

ترجمتها عن الفرنسية: ريتا باريش

صورة الغلاف: آراش أشورينيا Arash Ashourinia

تصميم الغلاف: ليلى شعيب

ISBN: 978 - 9933 - 540 - 28 - 9

الطبعة الأولى: 2017

الطبعة الثانية: 2019

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: / 9838/

هاتف-فاكس: / 6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

twitter.com /AdwanPH fb.com /Adwan.Publishing.House

إلى ابنتي، سامرًّا.

طهران، 25 حزيران/ يونيو، 2009

تمضي سيَّارة الأجرة على امتداد خطوطٍ رمادية هي كلُّ ما أمكنت رؤيته في الظلام: خطوطٌ رمادية على امتداد النظر ترسم معالم طريق المطار. خلف الزجاج، يبتلع الليل آخر الكلمات المسموعة. كم بقي من أولئك الذين يملكون الجرأة على الهتاف "الله أكبر" و"الموت للديكتاتور" فوق أسطح طهران؟

ليس هذا عنواناً لمقال، فقد وُلِد ميِّتاً. كان مجرَّد فكرة.

مجرَّد فكرةٍ تنساب مسرعةً كسيَّارة الأجرةِ وهي تعبر الخطوط الرمادية التي تمتدُّ إلى اللانهاية. لقد عقدت العزم على الرحيل، نهائياً ودونما عودةٍ هذه المرَّة. تمرُّ الدقائق كما لو أنها ساعات، ما أطول طريق المطار عند المضيِّ إلى المجهول! نتقدَّم، ننعطف، نفكِّر في المفقودين، في الأصدقاء الذين ما عادوا يُجيبون على اتِّصالاتنا بهم. ببقع الدَّم على أسفلت الطريق. بالأحلام التي اغتيلت، برسائل التهديد، بالأخبار التي لم يعد في استطاعتنا تناقلها. وذلك الخوف الذي لن يكون في وسعنا الفكاك منه.

محتومٌ هو هذا الخوف، عصيٌّ على الترويض، كتعلُّم السباحة، أسرع من تيَّار يجرفنا، فنقاوم إلى أن يدركنا الغرق. تتبدَّد الخطوط الرمادية فجأة وتضيع في شعاعٍ مبهر من الضوء. أرفع رأسي، فأدرك أننا وصلنا إلى المطار. قبل كلِّ شيء، لا يجوز النظر إلى الوراء. ينبغي النزول من التاكسي كما لو أن شيئاً لم يكن. جرُّ الحقيبة، الحقيبة الوحيدة التي أمكن اصطحابها،

وعبور الأشعة السينية، وتحمُّل اللمسات الضاغطة لقفّازات الشرطية المحجَّبة، وإبراز الجواز الإيرانيّ عند مكتب الجوازات، لا الفرنسي، وإخفاء كتلة المخاوف تلك تحت إحدى زوايا الحجاب، والوصول إلى صالة المغادرة المزدحمة والصعود إلى الطائرة دون هرولة. حذارِ! دون هرولة. الجلوس في الطائرة والتضرُّع من أجل أن تُغلق الأبواب فوراً قبل أن يظهر رجال الأمن. تُقلع الطائرة أخيراً! لا يبدو ضريح الإمام الخميني من السماء، أكثر من نقطة في الليل قبل أن تبتلعه السحب. فيمَ يفكِّر المرء عندما يصبح حُرَّاً؟ بالسطور الرمادية التي سيُتاح له ملؤها مرَّةً أخرى بما يشاء؟ هل يفكِّر في الكابوس الذي انتهى، وأن في استطاعته التنفُّس من جديد؟ بيد أن الأصعب كان لا يزال في بداية الطريق. ولا أصعب من تسليم إيران الى الضياع في أدراج النسيان.

رسالة إلى بَابَايْ، جدِّي. باريس، صيف 2014

لقد تركتُ أرضك بلا عودة، كيف من الممكن أن يترك المرء نصفه الآخر بعد أن وجده؟ كانت العاصمة الإيرانية، بداية صيف 2009، تبكي شهداءها، وتفيض السجون بالمعتقلين. تخضَّبت خضرة الأمل، خلال الفترة التي دامت خلالها تلك الانتخابات الصورية، بحمرة الدماء. وتحطَّمت آمال التغيير على جدار القمع. ذيَّلت على مضض بتوقيعي تقريراً صحفياً طويلاً وحدك تعرف سِرَّه. وعند عودتي إلى باريس، لم أعد أقوى على الكتابة، وجافت الكلمات صفحتي. بين المحسوس والمُعاش، تحوَّلتُ من صحفيةٍ إلى مواطنة، فاقدة بذلك المسافة التي تسمح لي بأن أسرد. ولهذا وضعت قلمي جانباً لفترة لم تكن بقصيرة، قبل أن أتذكَّر أبياتاً لحافظ الشيرازي أهديتها إليَّ يوماً:

أمَن تَرمي بِهِ الأموَاجُ في لَيلٍ بلا قَمَرٍ
كمَن يُمسِي على الشُّطآنِ قَد ألهَاهُ ما ألْهَى؟[1]

حدث ذلك في باريس، صبيحة أحد أيَّام تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1997. لم أكن أعلم حينها أنني سأجعل من تلك القصيدة، فيما بعد،

(1) ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي الذي ترجم ديوان حافظ في كتاب من جزأين أسماه أغاني شيراز. وقد ترجم هذه الغزلية بغزلية منظومة على نفس الوزن والروي، وأصل البيت في الفارسية:
شب تاریک و بیم موج و گردابی چنین هایل   کجا دانند حال ما سبکباران ساحلها

مذهبي وإيماني. يومها، كنت قد وصَلتَ من إيران من أجل عملية جراحية في القلب. جراحة بسيطة، هكذا قال الأطبَّاء. كان لي من العمر ثلاثة وعشرون عاماً، أمَّا أنت، فكنت قد بلغت منه ثلاثة أضعاف ما كان لي، كنت أظنُّك خالداً، ذلك ولا شك، بسبب المسافة التي باعدتنا على الدوام.

خلال زياراتك النادرة لفرنسا، كنتَ معتاداً على أن تعبِّر بالقصائد عمَّا يجول في خاطرك، وتسهو عن ترجمتها. أنت من كنت ممثِّلاً لإيران في منظَّمة اليونسكو في نهاية الخمسينيات، كنت تحفظ قصائد الشيرازي عن ظهر قلب، مواظباً على القول إن لدى هذا الشاعر المستنير، ابن القرن الرابع عشر، جواباً لكلِّ شيء، وإن كتاباته أثمن من كل كرات العرَّافين البلَّورية، إذ يكفي استحضار واحدة منها لا على التعيين للتنبُّؤ بالمستقبل القريب. شيء ما أشبه بالسحر كان يكمن في الإنصات إليك، وأنت تتلو ما كانت أذناي تلتقطه كرطانةٍ أعجمية. في ذلك اليوم، وعلى فراش المستشفى، كلَّفت نفسك عناء الشرح، لتعبِّر عن رغبتك غير المسبوقة في تلقيني لغتك الأم. نزوة مفاجئة كحاجة ملحَّة. لم يكن أحد يهتمُّ في بيتنا بأن يحدثني عن جذوري. من اليمين إلى اليسار، تراقص مدادك وهو يكسو السواكن بعلامات التشكيل الصغيرة الملوَّنة. مذيلاً كلَّ سطر من المخطوط بترجمة فرنسية. كانت تلك القصيدة أوَّل دروسي في اللغة الفارسية، وآخر زفرات أنفاسك.

باغتني رحيلك المفاجئ. فقد عرفت القليل عنك، وأقلَّ من ذلك عرفت عن بلدك. طفلةً، أرسلت إليك الرسائل، كما لو كنت أستطلع المجهول، مزيَّنةً دائماً برسومات ملوَّنة، أبطالها أشخاص لا يتغيَّرون: أبي، أمي، أختي نَسرين وأنا. كنا عيِّنة صغيرة من عائلتك المنتشرة في بقاع الأرض، صغيرة كأعمدة الأخبار الموجزة في الصحف الفرنسية، كأوَّل تقاريري الصحافية. يقولون إن الكتابة تُحرِّر، في تلك الآونة، كنت أراها

أشبه بلعبة غمَّيضة مع ظلِّك. أو بالأحرى، أحجية مشوِّقة، أبحث فيها بعناد عن قطعها المفقودة.

مرَّت سنوات طوال على وفاتك، يضطرب شعوري اليوم عندما أمسك بالقلم وقد عرفت كلَّ شيء عنك. وأنا أهديك هذه الرسالة الطويلة في الوقت الذي لم تعد فيه بيننا. طفلةً، بأناملي المكلثمة، كنت أكتب إليك من باريس. تخيَّلتك تتصفَّح خطاباتي، جالساً في شرفتك الجميلة في طهران، هناك حيث قضيتُ صيف عامي الرابع. لم تكنْ إيران بالنسبة إلى ذاكرة الطفلة التي كُنتها آنذاك، أكثر من شرفة مزيَّنة بالياسمين المعرش، ومثلَّجات بماء الورد، وبركة سباحة قابلة للنفخ، وأغانٍ رتيبة بالفارسية كانت تُسمع في الخلفية. أرسلنا والدي نحن الثلاثة لقضاء العطلة. في آب/ أغسطس من عام 1978. في وسط الحديقة، كانت أمِّي تسمِّر جلدها الفرنسي، تَلُفُّ وجهها بأوراق السيلوفان لالتقاط الأشعة فوق البنفسجية المنعكسة، على مرأىً من خيبة جدَّتي المقتنعة بأنها كانت تشويه، فبياض البشرة أمرٌ من مقدَّسات الشرق. أمَّا في ظلِّ شجرة الكاكي، فيلعب اثنان من أبناء العم طاولة الزهر وهم يحتسون عصير الرمَّان، ترافق ضحكاتهم خشخشة الراديو، عندما، وفجأة، عكَّر الخبر الرهيب صفو تلك الجنة الصغيرة. أتذكَّر وقع الأصوات لهذه اللغة غير المفهومة والتي فقدت فجأة إيقاعها الموسيقي، وأمِّي وهي تلصق السمَّاعة إلى وجهها هامسة عبر الهاتف بالفرنسية لأبي الذي بقي في باريس: «الأوضاع على صفيح ساخن في إيران... لقد أحرقوا سينما ركس في عبدان... سقط عدد من الضحايا... ولا نعلم من وراءها... المظاهرات ضدَّ الشاه آخذة في الازدياد».

حملت تلك الأحداث التي كانت أشبه بقصَّة للكبار، بواكير ثورة ضدَّ النظام الملكي القائم، أمَّا أنا آنذاك، فلم أرَ فيها سوى سببٍ غير مبرَّر لعودتنا إلى فرنسا على عجل.

بعد شهرين، احتلَّت الشاشة الفرنسية الصغيرة صورة لمُسنٍّ ملتحٍ له ملامح مشعوذ. "شرشبيل" بعمامة سوداء، منكفئ على نفسه تحت شجرة تفَّاح، في قصرٍ يُدعى "نيوفل"[1]: آية الله الخميني، عدوُّ "الشاه"، ملك إيران القاسي والجشع، المتحصِّن في قصره الذهبي، إذ تقول الأقاويل إن المشعوذ كان يطلب رأس الشاه وعرشه، ويحلم بالإطاحة به من منفاه الفرنسي. لم ينبس أبي الذي ألصق أنفه بشاشة التلفاز في شقَّتنا الباريسية بكلمة واحدة. كان يشاهد عن بعد، لا حول ولا قوَّة، ذلك السّاحر وهو يلقي بتعاويذه على بلدك. متديِّنون ومدنيُّون على السواء، احتشدوا بكثرة هناك، يهتفون ملء الحناجر مأخوذين بسطوة سحره. "ثورة، حرِّية، جمهورية إسلامية". أمَّا البقيَّة فتعرفها: في السادس من كانون الثاني/ يناير من عام 1979، نكص الملك مُدبِراً على عقبيه. وفي غضون أسابيعٍ ثلاثة، قفل المشعوذ عائداً إلى طهران.

أمَّا هنا في باريس، فقد أصبحت إيران نسياً منسياً. لم يعد أحدٌ إلى ذكر اسم بلدك الذي كان له مذاق الرمَّان. ومنذ ذلك الحين، أصبح وصفه في الصحافة الفرنسية مقتصراً على كلماتٍ ثلاث: إسلام، برقع، إرهاب، وهو ما أسقم والدي الذي أبلغنا ذات مساء عند عودته من العمل وهو يتهاوى على الكنبة: «لقد أوقفتني الشرطة! عاملوني كبونيول كحثالة[2]!». أبي، الذي سجَّلته عند بلوغه الحادية عشر من العمر في مدرسة داخلية فرنسية إبَّان عودتك إلى طهران وعقب انتهاء مهمَّتك كمبعوث لليونسكو، لم

---

(1) Neauphle-le-Château: في 6 تشرين الأول أكتوبر 1978، فرّ آية الله الخميني بعد طرده من العراق إلى فرنسا، واستقر في المنفى في نيوفل لوشاتو أربعة أشهر، عاد بعدها إلى إيران في 1 شباط فبراير 1979.

(2) Bougnoule: مصطلح استعماري ظهر في اللغة الفرنسية عام 1890 للإشارة إلى السكان الأصليين المستعمرين من شمال إفريقيا، يحمل مضموناً استعلائياً ونعتاً عنصرياً.

يحتمل فكرة طرده من بلده الأم. ومنذ ذلك اليوم، تكنّى باسم هنري. وفيما عدا حرف الهاء من اسم هُمايون، لم يكن لهذا اللقب أي علاقة باسمه الحقيقي. ربما كان من الأسهل أن يغيِّر اسمه لاستحالة تغيير بلده.

لقد خَلُصت إلى أنني فرنسية 100%. ما من شيء لدينا كان ليشي بخلاف ذلك. كنا نتكلَّم باللغة الفرنسية ونتناول طعاماً فرنسياً ونحلم بالفرنسية، وعند مطلع كلِّ عام دراسي، عندما كانت تسألني المعلِّمة عن أصولي، كنت أجيبها دون تردد: «فرنسا!»، بدافع المحاكاة، وأيضاً من الخوف من التسبُّب بمكروه لوالدي إن كشفت ما كان يبدو كأنه سرٌّ من أسرار الدولة. قلق كبير كان يستولي عليَّ. ثم أصبحت زياراتك إلى فرنسا متباعدةً، قبل أن تتوقَّف نهائياً في عام 1980.

اندلع صراعٌ دامٍ في بلدك مع العراق المجاور، مدعوماً من قبل أغلب القوى الغربية. كنت أشهد كوابيس في الليل وأنا أفكِر في القنابل التي تسقط على طهران. فبعد أن كانت الحرب بالنسبة إليَّ كفيلم للكبار، اتخذت فجأة بُعداً مألوفاً. هل كانت حياتك مهدَّدةً بالخطر؟ كيف كنت وجدَّتي تُمضيان أيامكما؟ لِمَ لمْ تأتيا لتلتجئا من الحرب في باريس؟ كنت لأهبكما غرفتي وسريري وألعابي. عبَّرت لك عن محبَّتي من خلال رسائلي، صوَّرت لك يومياتنا، المدرسة، عطلات نهاية الأسبوع في الرِّيف، بابا نويل وجرابه المملوء بالهدايا، متمنية بسذاجةٍ أن تهبك أخباري القدرة على الصمود. إنما هل وصلتك خطاباتي التي لم أستلم لها ردّاً؟

تنفَّست الصعداء عند انتهاء الحرب بعد ثمانيةِ أعوام، لمعرفتي أنّكما ما زلتما على ما يرام. وبازديادي نضجاً، أخذ يتنامى إحساسي بجذوري. إلا أن نجم بلادك ما فتئ يخبو. في عام 1992، هزَّ كتاب بيتي محمودي "أبداً من دون ابنتي" الذي حصد أفضل المبيعات، صورة إيران بقوة. من كان ليتخيَّل أن تلك الشهادة الحية المروية على لسان امرأة أمريكية

متزوجة برجل إيراني تعرَّضت للتعنيف على يديه، واتخذها وابنتها رهينتين، انتهت إلى أن تسمِّم حياتي. كنت أسمعهم يتفوَّهون باستعلاء بعبارات التعاطف مع "هؤلاء الإيرانيين المساكين" ابتداءً بغرفة الانتظار في عيادة الطبيب وليس انتهاءً بجزَّار الحيّ. «وأنتِ؟»، يسألونني. «ألا تخشين من أن تواجهي المصير نفسه؟». في المدرسة، كنت أهرب من تلك النظرات المتطفِّلة. إلى أن سألني يوماً والد أحد الأصدقاء: «هل لا يُسمح لك بارتداء التنانير القصيرة لأن والدك إيراني؟». يا لهذا الأمر الذي حشر به أنفه! الحقيقة أن الفساتين القصيرة لم تكن يوماً ما أفضِّل ارتداءه.

انتهت تعليقات البعض إلى أن تشعل فضولي. ما هي تلك الجمهورية الإسلامية التي يزدريها الكوكب بأسره؟ هل ينبغي وضع جميع الإيرانيين في سلَّة واحدة؟ في كلية الصحافة التي دخلتها بُعَيد اجتيازي امتحان القبول عام 1995، شجَّعني أساتذتي على تجاوز الكليشيهات. كانت إحدى القواعد الذهبية لمهنتنا: راقب، اشعر واقترب ثم احكم.

بعد ذلك بسنتين، جعلت من "الصحافة الإيرانية" موضوعاً لمشروع تخرُّجي، وذريعة مثالية للعودة إلى بلادك ورؤيتك. "خوش آمديد" في بلدك الأم! عبارة استقبلتني بها، متنقلاً كما هي عادتك بين لغتك الأم والفرنسية التي تعلَّمتها في شبابك في جامعة السوربون.

كان لديَّ خمسة عشر يوماً لإنهاء بحثي، وكنتَ مذهولاً من افتناني، تضحك لرؤيتي أرتدي الحجاب الإلزامي كمن يلبس زيّاً مسرحياً، أو لسماعي أتفاوض مع سائق التاكسي دون أية كلمة بالفارسية. كنت أتحمَّس ببراءة لأبسط الأمور. وفي المساء، كنا نجْرد سوية محتوى كلِّ المجلَّات الحديثة التي تكاثرت في أيَّام المدعو محمَّد خاتمي، المُلَّا الإصلاحي الذي كان وزيراً للثقافة لعشرة أعوام، قاتل خلالها بضراوة للتخفيف من الرقابة. وكرجل حوار، جسَّد خاتمي الجيل الجديد من السياسيين

المتعطِّشين للانفتاح السياسي في تلك الجمهورية الإسلامية التي طالت عزلتها. روشنفكر حقيقي، "مثقَّف متنوّر" كما كنتَ تصفه. وفي الثالث والعشرين من أيار/ مايو عام 1997، لدى فوزه الساحق في الانتخابات الرئاسية، كنتُ في باريس التي عدت إليها من أجل إعداد رسالة البحث، فهُرعت للاتصال بك. جاءني صوتك من الهاتف يتراقص فرحاً. كنت متهلِّلاً. أردت أن ترى تحوُّلاً في بلادك، وللمرَّة الأولى منذ قيام الثورة، كانت إيران تمدُّ يديها إلى العالم.

تزامن موتك المفاجئ، بعد ستَّة أشهر، مع تلك التغييرات. توقَّف قلبك الضعيف عن الخفقان قبل أن يتمكَّن الأطبَّاء الفرنسيون من جراحته. ويوم جنازتك في مقبرة مونبارناس، شعرت بالظلم يرخي ثقله على كاهلي. مضيت مبكِّراً جدَّاً. وبعد فوات الأوان التقيتك. من سخرية القدر أن المنيَّة وافتك في النهاية وأنت بعيد عن بلدك. على الرغم من أنك أردت دائماً، لأسباب كنت لا أزال أجهلها إلى ذلك الحين، البقاء فيها. حملت قلبي المكسور في جبيرة ووضعت يدي على نعشك. في جوف هذه الأرض الرطبة، دفن غبار أسرارك إلى الأبد. كان الجوُّ متلبِّداً، وكانت السماء تعصف فوق رأسي. فتذكَّرت قصيدة حافظ: "أمَن تَرمي بِهِ الأمواجُ في لَيلٍ بلا قَمَرٍ... كمَن يُمسِي على الشُّطآنِ قَد ألهَاهُ ما ألْهَى؟"قصيدة، كانت كل ما تركته لي من إرث، تحمل رسالة بين السطور، كأنها دين ينبغي الوفاء به.

وفي أحد الصباحات المشرقة بعد بضعة أشهر من التردُّد، قفزت إلى مترو الأنفاق المتَّجه إلى الأوبرا، وطلبت في مكتب إحدى وكالات السفر تذكرة سفر إلى طهران. سألني الموظف «إلى متى ستبقين هناك؟». أجبته، «لأسبوع». في النهاية بقيت هناك لعشر سنوات.

بدأ كل شيء بالزهور ومع الزهور. زهور في كلِّ مكان وهتافات فرح منفلتةٌ من البراقع. أذكر ذلك اليوم في الثالث والعشرين من أيار/ مايو من عام 1998 كما لو كان في الأمس. الثاني من خُرداد، بحسب التقويم الإيراني.

عامٌ مرَّ على انتخاب خاتمي. عبقت العاصمة الإيرانية بأريج الربيع. في "خيابان انقلاب" أي شارع الثورة، واحتفل الإيرانيون بالذكرى السنوية الأولى لفوزه بانسجام تام.

كنت قد وصلت قبل عدَّة أيَّام إلى طهران. وحللت لدى جدَّتي، الصلة الوحيدة التي بقيت لي في إيران بعد وفاتك. وعلى الرغم من حمايتها المفرطة، تمكَّنتُ في النهاية من التملُّص من قبضتها الحنون. وكان ذلك أوَّل خروج لي. قمت ببيع مشروع فيلم وثائقي عن الشباب الإيراني لراديو فرانس، من أجل التخفيف من مصاريف الرحلة.

في الغرب، عادت إيران لتصبح موضوعاً متداولاً، وكانت الأسئلة في الصحافة الباريسية تطرح حولها في جميع الاتجاهات. هل يبشِّر انتصار خاتمي بنهاية النظام القمعي الديني؟ هل تتوافق الديمقراطية والإسلام؟ بمَ يحلم جيل الـ"خاء"، جيل الشباب ممَّن هم في سنّي، الذين وُلدوا تحت حكم الخميني، وكبروا تحت حكم خلفه خامنئي، وأصبحوا الناخبين الأساسيين للرئيس الجديد؟ بالكاد سمح لي تعويض "المهمَّة" الذي حصلت عليه بتغطية تذكرة الطيران، إلا أن فكرة العمل لحساب

واحدة من المؤسَّسات الإعلامية الكبرى في فرنسا، على أرض أجدادي، ملأتني بالرضا.

من خلال حجابي المطبق حول رأسي، ألقيت من حولي نظرات متفحِّصة. كان شارع "انقلاب" يغصُّ بالجموع، كانوا آلافاً، فتية وفتيات ينتظمون جنباً إلى جنب وبصمت في مسيرة على طول الشريط الأسفلتي الذي يخترق المدينة من شرقها إلى غربها. في هذا المكان، قام آباؤهم قبل عشرين عاماً بإسقاط الشاه. كنت أنظر إليهم يطؤون بخجل "الثورة الإسلامية" التي كانوا ورثتها، وكُلِّي رغبة في تفسير أدنى إيماءة، وحماس لفرحهم المستردّ. تفرَّست في وجوههم، كانت طريقتهم في التلويح بالورود الحمراء كما لو أنها تتحدَّى الماضي، رأيت فيهم ما قد أكون عليه لو أنني ولدت في بلادك. بخطوات بطيئة وواثقة، تقدَّموا نحو شيءٍ مجرَّدٍ غير مسبوق، تبلور في شخص خاتمي. فبحصوله قبل عام على أكثر من 70% من الأصوات، جسَّد الرئيس الإصلاحي آمالهم بالتغيير. يظهر خاتمي في صوره التي ترفرف كرمز مقدَّس فوق الرؤوس، بلحيته التي خطَّها الشيب، ضاحكاً ببشاشة. حتى حذاؤه الإيطالي الأنيق، كان في تناقض مع تقشُّف أقرانه. على واحدة من صوره، خطَّ أحدهم بالإنكليزية: Iran is in love again[1].

مدفوعةً بالحشود، رأيت نفسي أشقُّ طريقاً قادني إلى مدخل الحرم الجامعي. استطعت بالاقتراب من المنصَّة تمييز عمامته السوداء كعمائم آل البيت. لقد وصل الرئيس للتو، وسرعان ما غلَّفت الفضاء همهمة كثيفة: «داداش خاتمي، دوستت داريم!». أي الأخ خاتمي، نحن نحبُّك! بأربع كلمات، تطايرت صورة الأب المقدَّسة في إيران واستحالت إلى شظايا.

---

(1) إيران تعشق من جديد.

تلك الصورة التي استغلها ملوك فارس، ومن بعدهم الإمام الخميني، بكلِّ طيبة خاطر، لمعاملة الشعب كأطفال. وبموت المرشد الأعلى عام 1989، لم يشذ آية الله خامنئي عن تلك القاعدة. أمَّا الرئيس خاتمي، فعلى الرغم من أنه كان يتمتَّع بصلاحيات محدودة في هرم السلطة، إلا أنه رفض الانصياع إلى إغراءات الكرسي. فقيل إنه قاد حملة في طول البلاد وعرضها، متنقِّلاً في حافلة بسيطة.

بدأ خاتمي، منذ فوزه، بمصافحة الأيادي وخوض غمار الحشود. أسلوبٌ جديدٌ ابتدعه لنفسه وانفرد به. وكان شعاره المفضل: "إيران لجميع الإيرانيين"، يدوي في أرجاء الحرم الجامعي. نقّل خاتمي نظره بين الجموع عند اعتلائه المنصَّة قبل أن يباشر خطابه، ثم تبرَّع طالب يقف إلى جانبي بتقديم ترجمة موجزة. كانت الكلمة تدور حول "المجتمع المدني" و"الإنسان" و"حُرِّية التعبير". وكان الطالب بجواري يتجرَّع كلامه ببراءة طفل.

فجأة، قام شبَّان يتَّشحون بالسواد ويطلقون لحىً غير مشذَّبة باقتحام الطريق المحفوف بالأشجار، كانوا يصيحون، وهتف أحدهم: "الموت لأمريكا"، هتافٌ كان أحد الأسباب الموجبة لقيام الجمهورية الإسلامية، ولازمة ترافق خطب الجمعة وتزيِّن جدران ما كان يعرف سابقاً بالقنصلية الأمريكية التي اقتُحمتْ منذ اثني عشر عاماً خلت. في هذا اليوم بالتحديد، رغب خاتمي في استبعادها من خطابه، ففي مقابلة له أجراها مع وكالة CNN قبل عدة أسابيع، أعرب خاتمي عن أسفه بشأن أزمة الرهائن الشهيرة عام 1979، التي تسبَّبت بقطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين. كانت تلك جرأة منه لا سابق لها، ولم يكن أولئك الشبَّان ذوي الثياب السوداء ليتهاونوا معها. همس لي الطالب بجانبي بأنهم كانوا من الباسيج، ميليشيا النظام الذين لا يُبايعون إلا إسلاماً أصولياً. بمنتهى الهدوء، ارتسمت

ابتسامة أخرى على مُحَيًّا الرئيس-النجم: «الموت هو أمر من الماضي»، قال، ثم أضاف: «الحياة هي ما علينا أن نتطلَّع إليه!». ساد الحشدَ صمتٌ مطبق، وكان الشاب الذي يقف إلى جواري يرتعش. الحياة ضدَّ الموت. تلك إذاً كانت عقيدة خاتمي وسرُّ نجاحه لدى أتباعه.

جعلني خطابه أشعر بالقشعريرة، وشعرت بأن كلامه يحمل صدىً فريداً. الحياة ضدَّ الموت... حياتي ضد موتك. أي رسالة تلك التي كان عليَّ أن أقرأها بين السطور؟

«الموت لأمريكا!»، زايد الباسيج. إنما هذه المرَّة، تلاشت صيحاتهم في موجة التصفيق للرئيس الإيراني، كما لو كانت صفعة على وجه الماضي الأسود.

في تلك اللحظة على ما أظن، التقت عيناي بعينَيْ فتاة شابَّة كانت تلوِّح عالياً في زرقة السماء بزهرة تحملها بيدها الهزيلة، مطلقة صيحات خافتة تعبيراً عن الابتهاج، كان المغناهه -غطاء رأسها- كالحجاب التي ترتديه الطالبات، يلتصق كقناع بوجهها الأبيض. كانت تبدو فخورة، وظهر ذلك بوضوح. كانت فخورة بالانتماء إلى إيران، تلك التي عادت لتعشق من جديد، إلى ذاك البلد الذي أدار ظهره لشياطين الماضي. دموع فرِح كانت تنهمر من عينيها اللوزيتين، وتخطُّ دروباً من الكحل على وجنتيها الطفوليتين. أعطيتها منديلاً.

- «شكراً»، قالت لي.

* «اسمت چيه؟»، سألتها ما اسمك؟ لم أكن أعرف بالفارسية سوى تلك الكلمات القليلة.

- «سپيده»[1]، أجابت.

---

(1) ينطق بالعربية زبيدة.

* «لمَ تبكين؟»، سألتها بالإنكليزية.

- «من التأثُّر... كما تعلمين، اليوم شعرت بأن أبواب هذا السجن الكبير قد انفتحت».

* «إلى هذه الدرجة؟»، كان ردِّي.

- «ألست من هنا؟»، سألتْني.

* «كلا... أقصد، ليس تماماً».

- «حسناً، لن تستطيعي إذاً أن تفهمي...».

لن تستطيعي إذاً أن تفهمي.

بسماعي هذه الكلمات، أحسست بغصَّة. لم أكن حقّاً من بلدها، من بلدك. للوهلة الأولى كنا متشابهتين، كنا نرتدي الحذاء الرياضي نفسه من ماركة أديداس، وجينزاً أزرق تحت معطفٍ شرعي. قد يكون لنا الذوق الموسيقي نفسه، الشغف بالقراءة والشوكولا نفسه. إلا أنها نطقت بالصواب. كيف كنت لأستطيع، أنا التي ترعرعت في حضن الديمقراطية، أن أقيس الحجم الحقيقي لأحلام الانفتاح التي تهزُّ كيانها؟ كيف كان لي أن أضع نفسي في مكانها. لهذا السبب أتيت إلى هنا لكي أفهم، أو على الأقل، لكي أحاول.

أعطتني سپيده موعداً بعد عدَّة أيام في "شوكه"، أحد المقاهي العصرية للعاصمة التي لم تكن موجودة في أيامك، ولدى دخولها، تعرَّفت مباشرةً إلى الوجه المستدير كالذي للدمى المصنوعة من الخزف.

كانت قد بدَّلت مغناهها المعتاد بغطاء رأس من الموسلين الأزرق، ما جعلني أبدو بحجابي الرمادي السميك أشبه براهبة مقارنةً بها. على الباب الزجاجي، عُلِّقت لوحة صغيرة تحمل رسماً لامرأة بحجاب أسود وتُذكِّر "الأخوات العزيزات" بـ"احترام التقاليد الإسلامية"، وبكلمات أخرى، الالتزام بزيٍّ كزييّ. وظناً مني أنني أجنِّبها المتاعب، لم أستطع منع نفسي من الإشارة إلى الإعلان. فانفجرت ضاحكة: «أظن أنه بات من الضروري أن نعرِّفك على اتجاهات الموضة في طهران!».

يا لها من ثقة تلك التي كانت تتمتَّع بها فتاة شابَّة، لم تغادر يوماً إيران وقد أمضت معظم حياتها مسربلة ببرقع ثقيل ترزح تحت وطأته! لم تكن هذه الحادثة، بالنسبة إليَّ، سوى فاتحة المفاجآت.

على الطاولة المجاورة، يهمس شاب ذو شعر مصبوغ لامع، كلمات الغزل في أذن صديقته. أمَّا الصبية الجميلة، فقد عقدت وشاحها الذي كان نسخة مقلَّدة لتصميم من ماركة هيرمس، خلف أذنيها لتفادي سقوطه في مثلجات الشوكولا التي طلبتها. وبين ملعقة وأخرى، كانت تتسلَّى بأن تطبع قبلات صغيرة على عنق حبيبها.

مؤخَّراً، أصبح في الإمكان رؤية ثنائي غير متزوج ينسلُّ بسرِّية بين

الحشود، حتى أنهما قد يمسكان بأيدي بعضهما البعض في الطريق. ذاك كان تأثير خاتمي، إلا أن عصفورَي الحب الشابين هذين، قد سمحا لنفسيهما بالتمادي أكثر بقليل من ذلك.

- «ما أشبه إيران بقنبلة موقوتة! أكثر من 60% من مجموع السكان هم دون سنِّ الخامسة والعشرين...».

«أحدث خاتمي فجوةً في الجدار الذي يحلم الشباب اليوم بإسقاطه»، زايدت سپيده.

ومع تفوُّهها بهذه الكلمات، لم تتمالك أن ترسل نظرة ماكرة باتجاه صندوق المحاسبة، إلى حيث تحتلُّ صورة القائد الأعلى للثورة، آية الله خامنئي، مكان الصدارة. فهو "ممثِّل الله على الأرض" وصاحب القول الفصل في إيران، «إنما لكم من الوقت بعد؟».

- «لسنوات، أراد المحافظون أن يسيطروا على جميع مفاصل الحياة. ففرضوا أحكاماً بائدة: لا لظهور طرف الشعر من تحت الحجاب. لا للتبرُّج. لا لسراويل الجينز الضيِّقة. لا لأي شكل من الاختلاط بين الفتيات والفتية قبل الزواج... أمَّا اليوم، فيتفهَّم الإصلاحيون رغبتنا في التغيير، فهُم أكثر ميلاً للإصغاء إلى جيلنا، ولديهم الإرادة لتحريك السواكن. سيتطلَّب الأمر وقتاً، إنما في النهاية ستكتب لأفكارنا الحياة».

أخذت سپيده فاصلاً استغللته لأشغِّل المسجِّل. كنت أريد أن أسألها عن ذكريات طفولتها فانقبض وجهها. هل تصرَّفتُ بتهوُّر؟

- «لا يمكنك أن تتخيَّلي كم كنت محظوظة لأنك لم تولدي هنا، فجيلنا جيل ضائع!

جيل ضائع...»، لم أكن أعرف ماذا أقول.

كانت سپيده "ابنة الثورة". الابنة البكر لعائلة من الطبقة الوسطى، مكوَّنة

من ثلاثة أبناء، ومن سوء حظها فإنها ولدت في عام 1980، إبَّان سقوط الشاه، بعد أشهر ثلاثة من اندلاع الحرب بين إيران والعراق. وفي الوقت الذي كنت أكتب لك فيه الرسائل وألعب لعبة الحجلة، ناعمةً برغد الحياة الباريسية، كانت هي تعيش على إيقاع تقنين الكهرباء والبطاقة التموينية. وتستيقظ في الليل على صوت صفَّارات الإنذار معلنةً قصفاً وشيكاً. في ذلك اليوم، روت لي سپيده كلَّ ما كنتَ قد جنَّبْتَني معرفته.

- «كانت لطفولتي طعم الحداد، فعندما هاجم صدَّام حسين إيران، بعد قيام الثورة بقليل، أُرسِل والدي إلى الجبهة، كان مقدَّماً في سلاح الجو، وهو منصب شغله في عهد الشاه، واستطاع الحفاظ عليه في عهد الخميني.

قمنا باللحاق به إلى دزفول، غير بعيد عن ساحة المعارك. وفي يوم من الأيَّام، تلقَّيت صدمة كبيرة! أصابت قذيفة صديقتي الحميمة ليلى وقطَّعت أوصالها! أضحى البقاء هناك خطيراً للغاية...

عدنا إلى طهران برفقة والدتي، وقبل وداعنا قال لي والدي: لا تقلقي، سيلتئم شملنا مجدداً في القريب العاجل. فالسلام سرعان ما سيحل».

ولكن الحرب طالت. كانت مأذونيات والد سپيده نادرة جدَّاً، بحيث كان من الصعب أن تتعرَّف عليه المرَّات القليلة التي تمكَّن فيها من الفرار من الجبهة.

- «في المنزل، كان جدِّي هو من كنت أدعوه "بابا"»، أردفت قائلة.

مرَّت ثماني سنوات. ثماني سنواتٍ طوال، لم يكفَّ خلالها سكَّان حيِّهم عن التجمُّع في "هجيلات"[1] الحيِّ الصغيرة، المرصَّعة بالمرايا والشذرات البرَّاقة التي أُعدَّتْ تكريماً للمقاتلين الذين سقطوا برصاص العدو.

---

(1) هجيله: كلمة إيرانية تعني القاعة أو المضافة التي يجتمع فيها الناس في الأفراح والمآتم.

- «ما زلت أتذكَّر وجوهاً مخضَّبة بالدموع لجارات مفجوعات اضطررن إلى إخفاء حزنهن، إذ كان عليهن أن يفخرن لتقديمهن "شهيداً" لهذا الوطن. وباستمرار الحرب، وجد الزعماء الدينيون الذريعة المناسبة لخنق الناس تحت قناع من البروباغندا».

في المدرسة ساد جوٌّ من غسيل الأدمغة. كانت الفتيات يلتففن بالبراقع السوداء حداداً. دروس القرآن كانت إلزامية. وكل يوم، كان المعلم يروي لنا "مآثر" الأبطال الشباب، كحسين فهميده، التلميذ ابن الثالثة عشرة من العمر، والذي فجَّر قنبلته اليدوية تحت دبَّابة عراقية... ناهيك عن الخميني الذي يكرِّر للإيرانيين:

«أنجبوا أبناءً لكي يدافعوا عن بلادنا!».

في عام 1988، اجتاحت عاصفة من الزغاريد شارع سپيده. قام العراق وإيران أخيراً بالتوقيع على اتفاقٍ لوقف إطلاق النار. وعاد والدها سالماً غانماً! تعرَّضت قاعدته لهجوم بالغازات الكيماوية من قبل جيش صدَّام حسين، لكنه خرج دون إصابات... ظاهرياً على الأقل.

- «كان والدي متعباً، غير أن كلَّ شيء سار على ما يرام. منذ أشهر قليلة، بدأ والدي يشعر بتصلُّب في ذراعيه وأخذ يفقد وزنه بشكل ملحوظ، كان صوته يُبحُّ ما أن يُطيل الكلام. وبعد جولة على عدد من المستشفيات بغيةَ فهم سبب هذه الأعراض المفاجئة، خَلُص الأطبَّاء بعد إخضاعه لمجموعة من الاختبارات والفحوص، إلى أنه كان يعاني من مرض باركنسون نظراً للآثار السلبية التي يمكن للغاز أن يسبِّبها على المدى الطويل... تخيَّلي أن ذلك حصل بعد مرور عشر سنوات!».

من كلِّ هذه التجارب، خرجت سپيده أكثر قوَّةً وتصميماً. لقد سُرِقت طفولتها، ولكنها لن تسمح لهم بأن يسرقوا شبابها. أسرَّتْ لي أنها في الوقت

ما بين دورتَي التحضير لامتحان القبول في الكلية، كانت تلتهم بالقراءة الترجمات الفارسية لأعمال يورغن هابرماس وحنة آرندت، المحظورة منذ ما يقارب العشرين عاماً، قبل أن تعود في النهاية إلى رفوف المكتبات. وفي المساء، كانت تستمع لمحطة BBC الناطقة بالفارسية التي تُبَثُّ على الموجة المتوسِّطة كي تهرب من اللغة الخشبية للخطاب الرسمي، وتقلِّب متنقِّلةً من قناة أجنبية إلى أخرى بفضل صحن لاقط صغير تم إخفاؤه على سطح المبنى الذي تسكنه.

كانت تهتمُّ بالتقارير الإخبارية والأفلام الوثائقية عن الحياة البرِّية، وأشرطة الفيديو والموسيقى الغربية، طالما أنها لا تتناول الإسلام. وكنت أنا معجبة للغاية بنهمها للمعرفة.

عندما امتدحت لغتها الإنجليزية، أوضحت لي أنها تعلَّمت لغة شكسبير عبر مشاهدة المسلسلات الأمريكية. كانت أمُّها تحلم أن تراها تصبح مهندسة. لقب "مهندس" في إيران يعني أكثر من مجرَّد صفة للنجاح، هو لقب يلتصق بجلدك حتى الممات. إلا أن شغفها الحقيقي كان السياسة والصحافة.

- «سترين، أنا أيضاً سوف أُجري تقارير صحفية ذات يوم».

كلَّما استمعت إليها أكثر، ازدادت دهشتي من ذلك التناقض لإيران المعاصرة: ألم يكن الخميني بتحفيزه لسياسة "زيادة النسل" في الثمانينيات، وتشجيعه للتعليم المجَّاني، يحفر قبر الجمهورية الإسلامية بيديه؟ أليس الشباب الذين تلقَّنوا البروباغندا بالرضاعة ويملؤون اليوم مقاعد الجامعات، هم أنفسهم من يحلمون بالتحرُّر من القيود الدينية؟ تضاعف عدد الطلاب في عشرين عاماً، ومع أكثر من مليوني مسجّل في الجامعة و80% كنسبة للإلمام بالقراءة والكتابة، أصبح التهديد الرئيس للنظام يتمثّل في الجيل الجديد الذي قام بصنعه.

لم أجد أي صعوبة في جعل سپيده تتكلَّم عن خاتمي، فقد كانت من مناصريه الأشدَّاء.

- «إن هذا الرجل هو مخرج النجاة الوحيد للخروج من طريق الجمهورية الإسلامية المسدود!». أكَّدت سپيده.

عندما ترشَّح خاتمي للانتخابات في أيَّار/ مايو من عام 1997، كانت قد أتمَّت أعوامها الستَّة عشر، وهي السنُّ القانونية للتصويت. وقُبَيل الذهاب إلى صناديق الاقتراع، انغمست حتى أذنيها في حملته الانتخابية، يومياً كانت تذرع العاصمة جيئة وذهاباً، لتلصق صور المُلَّا الباسم على السَّيارات. وكحال والدَي سپيده، ترك الكثير من الآباء المتردِّدين أنفسهم ينساقون وراء خيار أولادهم السياسي ويصوِّتون هم أيضاً لخاتمي. وسارعت سپيده بعفويتها المعهودة، إلى إرسال برقية تهنئة خطية فور معرفتها بفوزه.

«وأجابني!». قالت ضاحكة لتذكُّرها تلك الحادثة.

وقد احتفظت سپيده بتلك الرسالة على مكتبها كوثيقة ثمينة، ومنذ ذلك اليوم، لم تفوِّت فرصة الإصغاء إلى أي من خطاباته.

عند سماعها تلفظ اسم هذا الغورباتشيف الإيراني برفق، كنت أخال أنني أمام مراهقة تعيش حبَّها الأول. وإلى جانب ذلك، روتْ لي كيف كان العديد من الشبَّان في محاولتهم لاستمالة الفتيات، يتختَّمون بفيروزة زرقاء كالتي يلبسها خاتمي في إصبعه.

- «هل تعلمين ما هو لقبه؟»، سألت سپيده.

* «كلَّا».

- «الملاك».

الملاك. بعد الملك الفاسد والمشعوذ الشرير، جاء الملاك..: هل

ستكون له على الدوام القدرة على نقل الجبال من أجل الاستمرار بإبهار معجباته؟ أم أن هذا ليس إلا سراباً سياسياً؟

أرسلتُ نظرةً إلى المكان من حولي. كان المقهى قد بدأ يخلو من روّاده.

اختفى الثنائي الشاب، وحلَّت محلَّه مجموعة أصغر سناً. في الخارج، أخذت أضواء الشارع الممتدة إلى اللانهاية بالتلألؤ في عاصمة يقطنها أكثر من اثني عشر مليون نسمة.

لم أنتبه لضوء القمر يدخل من النافذة لشدَّة ما كنت مأخوذة بقصَّة سپيده، ولكن الوقت كان قد تأخَّر والكتاب يناديها للدراسة. التقطتْ على عجل كومة الكتب الموضوعة على الطاولة، وشربت قهوتها التي بردت دفعة واحدة، ثم نهضت وهي تعدِّل بيديها خصلات شعرها المشعَّثة المنفلتة من تحت حجابها. وقبل أن تمضي، عانقتني عناقاً حارّاً بتلك العفوية التي لا تفارقها. ثم مضتْ تضرب صمت الليل بكعبَي حذائها الصغيرين.

بعد شهر، ستنكشف زاوية أخرى من زوايا الحجاب الذي يغطِّي مدينتك. وهذه المرَّة، من خلال حميمية سهرة خاصَّة منظَّمة في الخفاء.

عندما انفرج الباب على الشقَّة التي حملت رقمها بطاقة الدعوة، توقَّفت لوهلة. هل أخطأت في العنوان؟ أم في البلد؟ قامت نيلوفر، أحد معارفي الجدد، بدعوتي إلى حفلة عيد ميلادها. كانت دعوةً تحمل حرارة العفوية التي تميِّز الإيرانيات. "حفلةٌ ودِّيةٌ صغيرة بين الأصدقاء". كان ذلك ما قالته لي على الهاتف.

لم أكن أدري أنني سأجد نفسي في مرقص. أحسست لدى وصولي بالأرض تتداعى تحت أقدامي، ضوضاء تصمُّ الآذان كانت تتسرَّب من الشقَّة. كانت الجدران تهتزُّ والسدادات تتطاير والكعوب تضرب الأرض. كان الكحول يطفر من الأحداق، وأعقاب السجائر المرمية تصل حتى درج البناء. وفي بهو الاستقبال، تناثرت الحجابات التي خلعتها جميلات السهرة على الأرضية الخشبية كحطام بجانب زجاجات الكحول المهرَّبة الفارغة. وتوجَّب عليَّ أن أدفع نفسي بمنكبي لكي أشقَّ طريقي إلى الصالة. أمَّا في الدهليز، فقد اصطف شريط من الصبايا المحجَّبات أمام باب الحمام. كُنَّ يدخلن ثم يخرجن بشعر مصفَّف وفساتين مخطَّطة وشذرات برَّاقة على الرموش المستعارة. وأنا من تردَّدت في ارتداء قميص مكشوف الصدر!

لم يكن من السهل أيضاً التعرُّف إلى الصالة، فقد وُضعت الكنبات

ملاصقة للحائط، وطُويت السجاجيد إلى الحافّات. وعلى طاولة واطئة، أخذت صحفة مملوءة بالفستق ترتجُّ على وقع موسيقى التكنو.

فجأة، اخترق شعاع من الليزر المضيء غمامة الدخان التي عبقت بها الغرفة. وظهر جذع وذراع، ثم سيجارة مارلبورو بين إصبعين درَّمت أظافرهما بعناية، كرؤية شبحية في عري تلك الليلة الإيرانية.

- «كيف الحال؟».

تلك كانت نيلوفر، دخلت ترتدي تنورة قصيرة حاملة كأساً من العرق وقامت بوسم شفتيها المدهونتين بأحمر قرمزي على وجنتي اليسرى.

* «عيد ميلاد سعيد!». قلت لها بطريقة خرقاء وأنا أناولها كيس قمامة.

ابتسمت على نحو متواطئ مرح. خمَّنت من خلال التغليف أن الهدية عبارة عن مشروب محظور.

كانت تتوق إلى معرفة ما إذا كانت الفرنسية الصغيرة قد نجحت في العثور على الفودكا الروسية أو الجن من السوق السوداء.

- «شمبانيا! يا لها من لقية نفيسة! ولكن أين عثرت عليها؟». رمتْني نيلوفر بسؤالها.

* «من أحد المعجبين في السفارة الفرنسية...».

- «أحسنت!». أومأتْ برأسها، كما لو أنني قد اجتزت ببراعة اختبار دخول في أخوية للطلّاب.

ثم أرسلت ضحكة كشفت عن غمَّازة خدِّها الأيسر، التجعيدة الوحيدة التي كانت لديها، كما تصفها تلك المرأة الأربعينية الجميلة اللانمطية والممتلئة، والتي لم تفقد شيئاً من نضارتها. وربَّما بفضل علاقاتها، فقد كانت تُلقَّب بـ"عرَّابة" الشبيبة، إذ لطالما كانت محاطة بكوكبة من فتيات وفتيان لا يتوقَّفون عن قرع بابها ليل نهار سعياً وراء من تمنحهم

أذناً صاغية يعهدون إليها بمشكلاتهم. وهي دوماً على أتمِّ الاستعداد للمساعدة، تحمل في جعبتها حلاً لجميع المشاكل: طبيب جرَّاح تحت الطلب لرتق غشاء البكارة لمن فقدت عذريتها، قنصلية متعدِّدة التأشيرات للهجرة السريعة، ومحامٍ نسوي يحصل لموكِّلاته على الطلاق بأسرع ممَّا يزوِّجهن، حتى أنها كانت هي نفسها مطلقة، تعيش وحدها، وهي منذ أن وجدت بنوك الحيوانات المنوية الإسبانية على شبكة الإنترنت، تحلم بأن تنجب طفلاً بمفردها.

عبثاً حاول جيرانها ثنيها عن أسلوب حياتها، فقد كانت تسخر ممَّا يقولون. كانت تعتبر تصرُّفاتها تلك شكلاً من أشكال التكفير عن الذنب، فقد كانت معارضة سابقة للشاه، تنتمي إلى جيل علَّق آمالاً كبيرة على شخص الخميني، ليحمل بعدها وزر ثورة فاشلة. ولهذا فقد انبرت لمهمَّة مساعدة الشباب ومشاركتهم هروبهم الليلي كنوع من التعويض عن الأخطاء التي ارتكبها أبناء جيلها بحقِّ الإيرانيين.

كانت قنِّينة الشامبانيا الكبيرة بين ساقيها عندما انفلتت منها صرخة ثاقبة قبل أن تطلق السدادة. راقبتُها بمرح وهي تحطُّ فوق كومة الحجابات. وأخت الكؤوس تفور وتزبد.

- «هل تعرفين النكتة الإيرانية الشهيرة؟»، قالت لي نيلوفر باستهجان. «في عهد الشاه كنا نشرب علناً ونصلِّي سِرَّاً، أمَّا اليوم في ظلِّ الجمهورية الإسلامية، فأصبحنا نشرب سِرَّاً ونُصلِّي علناً».

التأم جمعٌ حول نيلوفر، فعلت زجاجة الشامبانيا الكبيرة التي أحضرتها فعلها. فوق خضم هذا الالتحام، تعرَّفت إلى وجه ليلى، الصديقة المشتركة. حضرتْ متأخِّرة كعادتها تتهادى على كعبيها المستدقين. لا شك وأنها طافت على ثلاث سهرات على الأقل قبل أن تنضمَّ إلينا.

- «اسمعي!»، هدرت مستندة إلى كتفي. «ذات يوم، كنت أقود سيارتي برفقة سيامک... تعرفينه، ذاك الذي كان يحاول مغازلتي في الكلية. كنا نستمع إلى شريط كاسيت لمادونا ابتعته للتو من أحد مهربي الكاسيتات "تحت المعطف"... بعد عدة أمتار، كان حاجز شرطة في انتظارنا. كانوا شرطة الأخلاق! لو أنك فقط رأيت وجوههم.

لم يرق لهم أمر مادونا بتاتاً. جرَّبنا ما في وسعنا لتملقهم، ولكننا انتهينا في المخفر.

سبعون جلدة كانت عقابه. أما أنا، فلك أن تتخيلي الإذلاااااال المهين الذي ألحقوه بي: فحص عذرية... لحسن الحظ أنني كنت عذراء، وإلا لوجدت نفسي أرتدي خاتم الزواج!».

أشعرني الإصغاء إليها بقشعريرة. فلطالما كانت تلك الفتاة التي تفيض غنجاً، وها هي الآن تروي على مسامعنا تجارب لا تُصدَّق. إلا أن هذه بالذات كانت صادمة. لو كنت مكانها، لانزويت في منزلي، ناسية أمر الخروج. إنما ما من شيء كان يضاهي براعتها في تحويل التجارب السيِّئة إلى حصاد من الغنائم.

لم تزدها سياسات الانفتاح الخجولة إلا تحدِّياً، وشحذت لديها روح الاستفزاز. يوماً بعد يوم كان حجابها ينحسر أكثر فأكثر. وكانت سهراتها الطافحة بالمشروب تنتهي بطلوع الفجر نهاية كل أسبوع. ما من شيء كان ليخفى على تلك الخاتون التي تهوى السهر، المتذبذبة بين البيرون والأندرون، أي بين الخارج والداخل، كما لو أن التقاطع بين ذاتها الخفية وذاتها الظاهرة قد غدا علَّة وجودها.

- «مرحباً بك في مملكة الانفصام!». استأنفت الكلام، في محاولة يائسة لحملي على الابتسام. «أتعلمين؟ لقد نشأنا هكذا... إنه أسلوب حياتنا. هنا، ابتداءً من صف الحضانة، لا يتعلم المرء سوى أمر واحد:

الكذب... فهو مفتاح البقاء على قيد الحياة... عندما تطرح علينا المعلمة في المدرسة الأسئلة، نجيب: نعم، أمِّي ترتدي البرقع! كلا، لا يلعب أبي الورق ويكره النبيذ! أحياناً أشعر أنني حرباء تغيِّر جلدها تبعاً للموقف. في النهار أتحمَّل الحجاب وفي الليل أتخلَّص منه كي أفرغ الكبت».

سألتها بنبرة متشككة: «أليس هذا أمراً خطيراً؟».

- «أمرٌ خطير؟ بالطبع هو كذلك، ولكن هل نملك من خيار آخر؟».

بجرعة واحدة، أفرغت محتوى كأس الشمبانيا واندفعت إلى حلبة الرقص ما أن وضع "الدي جي" أغنيتها المفضلة: La Isla Bonita. حتى امتدت ذراعا ليلى نحو الكرة البرَّاقة التي تتدلَّى من السقف وأخذ كلُّ ما فيها يتلوَّى... بطنها وأصابعها وجفونها. كانت تضحك منتشية بالمشروب وبالجرأة وبكلِّ شيء، حتى غرق صدى ضحكاتها في كلمات مادونا.

- «ألا ترقصين؟».

لم أستطع في الضوء الخافت أن أتعرَّف مباشرة إلى أردشير، بوجهه النحيل وقصَّة شَعره الدائرية. كنا قد تعارفنا الأسبوع الماضي في بروفة مسرحية "الزنوج" لجان جينيه، في قبو مسرح المدينة في طهران. وهو غرفة مظلمة مفروشة ببعض السجَّاد والمقاعد الخشبية. بعد عشرين عاماً من سيطرة الرقابة، كانت المسرحية على وشك أن تُعرض للمرَّة الأولى في الجمهورية الإسلامية، وكان أردشير مساعد المخرج. أردشير كان الاسم الأوَّل لملك بلاد فارس القديمة. تعمَّد والداه منحه هذا الاسم، خلافاً للأسماء العربية التي يعشقها الملالي ويتكنَّون بها. شُغِف أردشير بالتيَّار العبثي وتلك كانت طريقته في المقاومة "من بين السطور".

* «وكأننا في واحدة من مسرحياتك!». قلت له وأنا أتأمَّل روَّاد هذا الكرنفال.

- «آه! أجل، حياتنا عبثية!» وتوقَّف لتناول صحفة تحتوي زيتوناً، ثم أومأ إليَّ بالجلوس وتابع.

- «في الأساس لسنا سوى دمىً مفـ...».

توقَّف فجأة. قاطع رنين جرس الإنترفون تتمَّة جملته. رنين مفاجئ، غير متوقَّع ومتطفِّل. كانت الساعة تشير إلى ما بعد منتصف الليل. وجميع المدعوِّين كانوا قد وصلوا بالفعل.

إذ لم تكن نيلوفر تتوقَّع وصول أحد بعد، إلا إذا... شاهدتها تحمل شمعة في محاولة لتهدئة الأجواء كي يصمت المدعوُّون. وجهها كان شاحباً يغطِّيه قناع من الذعر. لم يسبق لي أن رأيتها بتلك الحال. «صه!». قالت.

بحركة غريزية، انتصب الدي جي وراء عدَّته، وبيد خبيرة أخذ يفكُّ مكبِّرات الصوت. انفلتت ضحكات مقتضبة، متبوعة بثرثرة ساخطة وهمسات قلقة. أمسكت نيلوفر بسمَّاعة الإنترفون. شلَّ الغضب حركة جسدها. أخذت نفساً طويلاً، ثمَّ، وبأرقِّ نبرة من صوتها، أجابت بفارسية رصينة: «نعم! من هناك؟». لم تجد لسؤالها ردّاً سوى صمت طويل، فتنفَّس من كانوا في الصالة الصعداء.

- «أوف! إنذار كاذب» قالت وهي تغلق سماعة الإنترفون.

استؤنفت الموسيقى في الحال.

أطلق أردشير زفرة ارتياح، وازدرد ريقه ثمَّ استدار مجدَّداً نحوي مصطنعاً ابتسامة.

- «كنت أقول إننا لسنا في الأساس سوى دمىً مفكَّكة تتحرَّك دون اتساق...».

رنَّ الجرس مجدَّداً دون انقطاع هذه المرَّة. عبر شبح القلق الصالة

العابقة بالدخان. على الفور، تجمَّدت الراقصات على كعوبهن العالية، واهتزت كؤوس الشمبانيا التي تُركت فوق الطاولة على عجل. ثمَّ ساد الصمت مرَّة أخرى. أظنُّ أنني سمعت صوت جهاز اتصال لاسلكي آتياً من الشارع. توجَّهت نيلوفر مضطربةً نحو النافذة وأزاحت الستارة بتأنٍّ.

- «اللجنة! اللجنة!» صاحت.

لجنة من شرطة الأخلاق كانت على الباب! انفلتت في الصالة كلمات مشوشة في كلِّ الاتجاهات.

جلستُ مُسمَّرة إلى مقعدي، كنت أفهم كلمة واحدة بين كل مئة كلمة ولم تكن لديَّ أدنى فكرة عمَّا قد يحصل لي. بالأحرى، عمَّا قد يحصل لنا. مخضَّبة بعرقها، تعلَّقت ليلى بكمِّي قائلة: «هيَّا! لا تقفي هكذا!».

ما حصل بعدها كان أشبه بفيلم مصوَّر بالحركة السريعة. بحزمٍ، أعطتني ليلى كرة من القطن لأمسح تبرُّجي. وشرعت هي بارتداء "لباس الطوارئ" المؤلَّف من جينز أزرق وغطاء للرأس وارته في الجزء السفلي من حقيبة ظهر. بسرعةٍ هبَّ الحاضرون وأخذوا يتنقَّلون بين الحمَّام والصالة لإفراغ زجاجات الكحول من محتواها. نيلوفر بدورها تحوَّلت بسرعة البرق إلى وطواط أسود يصعب التعرُّف إليه، ومن تحت برقعها السميك لم يظهر منها سوى عين واحدة! كانت سبَّابتها على شفتيها وهي تدلُّ الحاضرين إلى باب أُخفي في المطبخ قبل أن تندفع في المصعد الرئيس. أمَّا أنا فكنت أتشبَّث بذراعها جزعة.

- «لا تقلقي، سأنزل للتفاوض معهم». تملَّصت مني وهي تدفعني باتجاه الآخرين.

تبعت الجمع.

كان درج الخدمة مظلماً، هبطنا الطوابق الخمسة بالتتابع لنجد أنفسنا

في موقف للسيَّارات تحت الأرض. كان المكان يعبق برائحة الوقود الواخزة.

أمسكتني يد في الظلام وجرَّتني عنوة للاختباء أسفل سيَّارة، المخبأ الوحيد المتبقي لنا. كنت أرتعد.

شعرت بضيق في التنفُّس. كان رأسي ملتصقاً بالأرض، حاولت أن أستجمع أفكاري. ماذا سيحلُّ بنيلوفر؟ أين ذهب أردشير وليلى؟ ماذا سيحدث لنا إذا أوقفتنا الشرطة؟ وأنا، ماذا سيكون من أمري؟ في إيران، تنتقل الجنسية عن طريق الأب. ولهذا كنت إيرانية في نظر حرس الأخلاق الإسلامية و"مجرمة" كالآخرين. ذنبي أنني أردت أن أمرح. إنما لم تكن لديَّ الشجاعة نفسها. هل سأستطيع احتمال ضربات السياط؟ لشدَّة ما كنت مأخوذة بذاك الفضول الساذج الذي رافقني منذ وصولي إلى إيران، لم أفكِّر في إمكانية تعرُّضي للاعتقال. مرَّت دقيقة ودقيقتان وثلاث دقائق. بدا وكأن الوقت يمتدُّ إلى ما لا نهاية. انفجرت تنهيدة بين الفينة والفينة، كان الصمت بعدها يعمُّ مرَّةً أخرى. كنا محكومين بالانتظار.

بعد ساعة، وربَّما أكثر. أخرجنا صرير الباب من شبه الغيبوبة التي دخلنا فيها. هل أكتُشِف مخبؤنا؟ سمعت كعوباً تقرع أرضية موقف السيَّارات. أصخت السمع، كان قرعاً لكعوب نسائية.

هل كانت هناك امرأة شرطية بين زائري الليل أولئك؟ اقترب قرع الكعوب أكثر فأكثر ودنا من السيَّارات. في العتمة، استطعت أن أتبيَّن زوجاً أنيقاً من الأحذية الجلدية السوداء. كان ذاك حذاء نيلوفر. أخرجت رأسي من جوف سيارة رينو التي كنت أحتمي بها لأجد مضيفتنا وقد عادت سالمة غانمة.

- «كنا قاب قوسين أو أدنى» زفرت نيلوفر بفرنسية طليقة.

على الفور، ظهرت عشرات الرؤوس الأخرى من جوف السيَّارات. مسودة من الشحم، إنما تعلوها مسحة من الطمأنينة.

عبَّت نيلوفر نفساً، واستندت إلى إحدى السيَّارات، ثم وبلهجة حازمة توجَّهت إلى المجموعة: «كانوا ثلاثة شبَّان من الشرطة، قالوا إن الجيران قد شكوا بوجود أمسية "غير لائقة" لسماعهم الموسيقى، وإن لديهم مهمَّة لمداهمة الشقَّة. قطبت جبيني وأجبتهم مفتعلة مظهراً جدياً بأنه ليس "من اللائق" أن يدخلوا شقَّتي. أخذ أحدهم بالسخرية غير مصدِّق كلمة ممَّا كنت أقول... عندها قرَّرت الرهان بكلِّ الأوراق المتبقِّية. أخرجت من برقعي حفنة من الأوراق النقدية... وناولتُه إيَّاها. تردَّد في البداية ثمَّ قبلها متشجعاً بلكزة من مرفق أحد زملائه ودسَّها في جيبه مخاطباً إيَّاي: لقد حالفكم الحظ هذه المرَّة. أمَّا في المرة المقبلة، فالسجن في انتظاركم. لم أجبه. أغلقت الباب مسرعة. وعندما سمعت هدير محرِّك سيَّارتهم، تنفَّست الصعداء قائلة: لقد نجحنا!».

يا لها من شجاعة وجرأة! كـ"عرَّابة" طيِّبة، قامت نيلوفر بدعوتنا للمبيت في منزلها، قائلة إن لديها ما يكفي من المراتب لمدِّها على أرضية الصالة. كانت تخشى على من كانوا تحت تأثير المشروب من التعرُّض للتوقيف من إحدى نقاط التفتيش إذا هم خرجوا. كنت لا أزال تحت سطوة ذلك الحادث غير المتوقَّع عندما قرَّرت المغادرة بأسرع ما يمكن. عرضت عليَّ صديقة تسكن في الجوار أن أمضي الليلة في منزلها.

في صباح اليوم التالي استيقظت مذعورة: ماذا حلَّ بأردشير؟

لم أره في موقف السيَّارات عندما وافتنا إليه نيلوفر. قمت مضطربة بطلب رقمه على الهاتف.

رنَّ الهاتف عدَّة مرات قبل أن يجيب.

- «لن تتصوَّري ما حصل!». جاءتني كلماته عبر السمَّاعة.

روى لي، أنه وخشية أن يتمَّ الإيقاع به، قام بالاختباء في الباحة الخلفية من المبنى ثم قام بتسلُّق حائط السور كبهلوان راغب في قتل الوقت، اجتاز ثلاثة أمتار معتبرة من الأسمنت الرمادي ليجد نفسه على الجانب الآخر حيث كان الشارع مظلماً ومهجوراً. أشار إلى أوَّل سيَّارة أجرة للنقل الجماعي وهُرِع إليها، كانت سيَّارة پيكان[1] قديمة وبرتقالية اللون.

ثم استطرد أردشير ساخراً: «على المقعد الخلفي صادفت عدَّة ركاب فاحت منهم رائحة الكحول. وسرعان ما أدركت أننا كنا جميعاً في المركب نفسه: الناجون من مداهمة الشرطة في سهرتين مختلفتين».

أمَّا أنا، فضحكت ضحكة صفراء. خرجت مصعوقة من سهرتي الإيرانية الأولى، وفي الأيَّام التي تلت، رفضت كلَّ الدعوات التي وُجِّهتْ إليَّ متذرِّعة بألمٍ في الظهر أو بوهن. كنت أبقى في المنزل بعد مغيب الشمس كفتاة عاقلة، منتظرة حلول الغد بصبر نافد. لم يكن أصدقائي يفهمون سبب تصرُّفي، واعتبروا أنني كنت أغالي في الجدِّية، وكانوا يضحكون من توجُّسي. أمَّا أنا فلم أكن أملك شجاعتهم. لقد كنت أحسدهم بالفعل. وفي إحدى الأمسيات، استسلمت. قبلت على مضض حضور إحدى حفلات الروك البديل التي تُنظَّم في الخفاء.

أُقيم الحفل في كنيسة أرثوذوكسية روسية، غير بعيد عن مبنى السفارة الأمريكية السابق. وهو مبنى من الطوب الأحمر، مهجور منذ حادثة الرهائن. وبغية تضليل دوريات الشرطة، ترجَّلتُ من سيَّارة الأجرة التي

---

(1) پيكان سيارة كانت تنتجها الشركة الإيرانية إيران خودرو («إيران الوطنية»سابقاً). وكانت تحظى بشعبية كبيرة في إيران من أواخر الستينيات وحتى أواخر التسعينيات، ويشار إليها بالعربة الإيرانية.

أقلَّتْني إلى هناك في شارع مجاور، ومشيت نحو وجهتي بهدوء على رؤوس الأصابع. لقد حفظت الدرس.

كانت الشوارع خالية. طهران كانت تغفو وشعرت كما لو أنني أسير على حبل مشدود. عند باب الدخول، غمغمت اسم الفرقة، O-hum، وكأنها كلمة مرور، ما يعني بالفارسية "الوهم". وقعت أسيرة للمشهد غير المألوف الماثل أمام ناظري بمجرَّد دخولي. كانت الكنيسة تعجُّ بشباب أحاطوا أعناقهم بصلبان حاملين شموعاً في أيديهم وعبق مجاز الكنيسة الرئيس برائحة الشمع والفودكا.

كانت الفتيات يلبسن أثواباً مكشوفة الياقة، وارتدى الشبَّان كنزات سوداء. أخذوا يتمايلون بخفَّة على إيقاع الأغنيات المحظورة. توسَّط المشهد أربعة موسيقيين يرتدون جينزاً أزرق، ويضربون قيثاراتهم الكهربائية مردِّدين قصائد لم أتبيَّن معناها. غير أن إيقاعها بدا لي مألوفاً. في الظلام، أسرَّ إليَّ أحدهم أنها لحافظ.

حافظ! سرت قشعريرة في جسدي، وحملتْني على الفور إلى "الأمواج". في أوَّل دروسي بالفارسية. حملتني إليك، باباي، جدِّي، يا من غادرتَنا مبكِّراً جدّاً.

ربَّما في تلك اللحظة بالذات، شعرت أن جدار الخوف قد سقط، هناك في دار العبادة هذا الذي تحوَّل إلى فضاء موسيقي. ومن حينها بدأت أشعر أنني في مكان مألوف. إيرانك كانت تتغيَّر في السرِّ ومعها كنتُ أنا أيضاً أتغيَّر. كنت متعطِّشة لالتقاط أصغر الفوارق، للانقياد إلى ما هو غير متوقَّع. بعد بضع أمسيات أخرى من الروح نفسها، تجلَّت المسألة أمامي بوضوح: يكمن هناك نوع من الإثارة في مداعبة الخطر، لقد بدأت أستسيغ الأمر. انتهى بي المطاف إلى الانخراط في الجلسات الخاصَّة التي تعرض أفلاماً محظورة ومقرصنة، وحفظت غيباً عناوين أفضل المعارض الفنِّية الخاصَّة

التي كانت قد بدأت تتكاثر كالفطر. وفي الفترة ما بين تقريرين صحافيين، قبلت أن أتموضع للرسم في ثوب أزرق وشعر مكشوف للرسَّام خسرو حسن زاده، أحد الفنَّانين الأوائل الذين تجرَّأوا على تصوير المرأة دون حجاب.

بعد أن أنهيت تقريري الصحفي حول الشباب الإيراني ولدى عودتي إلى باريس في حزيران/ يونيو من عام 1998، لم يعد هناك من كلمة على لساني سوى "إيران". كان أي عنوان ثانوي عن طهران في أية جريدة، كفيلاً بأن يجعلني أنهب محتويات الكشك الذي يعرضها. وتنتابني القشعريرة لسماع اسطوانات گوگوش، نجمة البوب الإيرانية التي اشتُهرت في نهاية السبعينيات. كنت أقضي عطلات نهاية الأسبوع وأنا ألتهم كتب هنري كوربان وداريوش شايگان وصادق هدايت، ساخطة لعجزي عن قراءة شاهنامه الفردوسي بلغتها الأصلية. وفي السينما، كنت أتابع سلسلة أفلام كيارستمي، متسمِّرة إلى مقعدي. حتى أنني توقَّفت عن شرب القهوة، فالشاي الإيراني يشبهني أكثر.

بعدما اعتدت الحياة العفوية، أخذت الأمسيات الباريسية تشعرني بالضجر. بدت لي باريس، مدينتي، هادئة ورتيبة للغاية، أصبحت عاجزة عن فهم أصدقائي، بحياتهم المنظَّمة وروتينهم اليومي وعطلاتهم المدروسة، لم أعد أحتمل عشاءاتهم المخطَّط لها قبل أشهر سواء في المطعم أو في البيت، وما يتبعها من تنظيم صارم للمائدة وعدد المدعوِّين المحسوب بدقَّة، ناهيك عن حرمان المتأخِّرين من أية حصَّة إضافية! أمَّا في طهران، فدائماً ما كان يُترك صحن إضافي على المائدة مع ابتسامة تُرحِّب بأي وافد جديد... كما تُرْتَجل موسيقى عند نهاية المأدبة... وثمَّة دائماً بين الموجودين من يرقص على أنغامها.

أخذ نصفي الفرنسي يضجرني. في فرنسا، أدركت أن جيلي لم يعد لديه ما يثبته. ففي مثل سننا، كانت أمَّهاتنا يناضلن من أجل حقوقهن في منع الحمل والإجهاض وزيادة الضمان الاجتماعي والاعتراف بكفاءتهن المهنية. أمَّا نحن، فاتكلنا مرتاحين على ما حقَّقنه من مكاسب دون أن نعرف كيف نقدِّرها حقَّ قدرها. لم تكن حُرِّيتنا نتيجة لنضال، إنما كانت نمط حياة. على النقيض من أولئك الإيرانيين الشباب الذين ينسلُّون بخفَّة مدهشة بين العقبات اليومية التي تقف، بالرغم من الإصلاحات، في طريقهم. كانت حياتهم، صباح مساء، أشبه بمفاضلة بين المسموح والممنوع. بأعوامهم العشرين، تحدَّى هؤلاء الشباب الحظر كما لو كان أمواجاً عاتية، بشجاعة قلَّ نظيرها.

في الحادي والعشرين من حزيران/ يونيو من عام 1998 استضافت مدينة ليون حدثاً غير مسبوق بالنسبة إلى إيران. جمعت مباراة لكرة القدم كِلا المنتخبين الوطنيين لإيران والولايات المتَّحدة في لقاء تاريخي بين بلدين طالت قطيعتهما لما يقارب العشرين عاماً.

لم أكن من هواة الرياضة، ناهيك عن كرة القدم، غير أن تلك كانت مناسبة خاصَّة. ابتعتُ دون أي تردُّد تذكرة القطار إلى ليون لتشجيع الفريق الإيراني. أنا التي لم تحضر في حياتها مباراة واحدة.

ولدى فوز إيران بنتيجة 2-1 طرت من الفرح. اتصلت بليلى في طهران. «لقد فزنا!». جاءني هتافها من الطرف الآخر مصحوباً بالزغاريد وأبواق السيَّارات، وصيحات المشجعين، "إيران! إيران!"... دمعت عيناي، عزَّ عليَّ ألا أكون إلى جانبهم نتشارك لحظات النشوة. على الهاتف، وصفت لي ليلى انفعال الحشود، وازدحام الشوارع بالرجال الذين خرجوا إليها بالبيجامات والأطفال المحمولين على الأكتاف وبفتيات صبغن وجوههن

بالأحمر والأخضر والأبيض كألوان العلم الإيراني. أردفت ليلى: «تصوَّري أن بعض الإيرانيات رقصن مع رجال الشرطة، أمرٌ لا يُصدَّق!».

وأنا أيضاً، بدأت أصيح بصوت عال: «إيران! إيران!». لم أستطع منع نفسي.

ما من كلمات تكفي لوصف وجه والدي عندما أخبرتُه أنني ذاهبة إلى إيران، للاستقرار فيها بشكل نهائي هذه المرَّة.

- «أمتأكدة من خيارك؟»، شدَّد سائلاً بامتعاض.

في عصر ذلك اليوم من آب/ أغسطس 1998، كنا نجلس متقابلين في صالة شقَّتنا الباريسية. لم يعد والدي منذ وفاتك الشخص نفسه، فالحداد قد قطع آخر حبل ربطه بإيران، وأصبح كل ما له علاقة ببلدك يسبِّب له الضيق.

* «بالتأكيد!». أجبته بنزق.

لم يسبق أن شعرت بالحاجة إلى تبرير قرارتي. ففي البيت، كانت الاستقلالية قيمة مقدَّسة عزَّزها والداي كنمط حياة من المجتمع الغربي. والآن، يحاول والدي أن يُثنيني عن رغبتي في الاستقرار في إيران: «لن تستطيعي أن تفهمي».

كم من مرةٍ سمعت تلك اللازمة من قبل... لهذا السبب بالضبط، أردت أن أفهم. ومن أجل ذلك، كان عليَّ أن أترك لنفسي العنان للغوص دون تردُّد.

في تلك اللحظة، تاهت نظراتي في صورتك التي تتصدَّر الصالة منذ أن رحلت عنا. كنت تبتسم للعدسة، جالساً في حديقتك الفارسية، بتلك الابتسامة الغامضة التي كانت تناسب مُحيَّاك. وجهك الأكلف بفعل الشمس ورأسك الحليق يضفيان عليك لمسة من رسومات بيكاسو. قام

أبي بإشعال سيجارة وغاص في أريكته. لم يكن من النوع المحبِّ للكلام، إذ دائماً ما عبَّر صمتُه عنه، غير أنه أراد هذه المرَّة أن يشرح موقفه.

- «ليست إيران سوى مصنع للمشاكل... لن تستطيعي التأقلم معها بتاتاً! من المستحيل التفاوض مع النظام. لو أنك فقط تعلمين ما عاناه جدُّك على أيدي زبانيته كل تلك السنوات...».

* «كنت أظنه بعيداً عن السياسة»، أجبته متفاجئة بتلك المعلومة التي لطالما ظلت خافية عني حتى اللحظة.

- «إنها لَقصَّة طويلة... لنقل إنه لم يكن موالياً للشاه... وهو ما أنقذه بعد الثورة بالرغم من خدمته كدبلوماسي في ظلِّ النظام القديم... ولكن خروجه لم يكن بالأمر السهل، فالجمهورية الإسلامية لا تعاقب معارضيها فحسب، لا بل إن هاجسها هو السيطرة على كل كبيرة وصغيرة: الحياة الخاصَّة والعلاقات خارج إطار الزواج والملكيات... وهكذا صادرت السلطات بعض الأراضي من جدِّك عن طريق إلصاق تهمة "الفجور" به...

يا لهم من مبتزين محترفين! تخيَّلي ما حصل بعدها! رُفعت بحقِّه دعوة أمام قاضي المحكمة الثورية تتهمه بادِّعاء النبوَّة. وما تبع ذلك من إذلال ورشاوى دفعها المحامون المزعومون، ناهيك عن منع السفر... أمور استمرَّت لما يقارب العشرين عاماً. أجهزت تلك القضية عليه...».

* «وكيف خرج منها بعد ذلك؟».

- «كسب القضية عشية وفاته... حكمت له المحكمة بإعادة ممتلكاته».

أخذ والدي فاصلاً شدَّ فيه نفساً من سيجارته.

- «وكأنما كان ذلك ما انتظره لكي يمضي بسلام».

ذلك هو إذاً قناع التعب الذي كان ملتصقاً بوجهك لدى زيارتك الأخيرة إلى فرنسا والتي سبقت دخولك المستشفى. في تلك المناسبة،

قمت بإخراج بزَّتك الكحلية القديمة التي تعبق برائحة النفتالين، وارتديتها مزدانة بربطة عنق أنيقة مقلَّمة، في محاولة منك لخداع الوقت وتجنيبنا تلك المعاناة الجماعية التي تحمَّلها ملايين الإيرانيين بصمت. لأنك لم تكن الوحيد الذي حمل لسنوات وزر ثورة انحرفت عن مسارها.

كم من الشهادات المؤثِّرة سمعت خلال إقامتي الأولى في طهران: كل تلك القصص عن الإعدامات التي نُفِّذت بمحاكمات صورية، واليافعين المجنَّدين في الجيش، وأُسر الجنود المنشقين التي اضطرت إلى الفرار من البلاد عبر جبال كردستان لرفضها القادة الأصوليين الجدد... لم يكن لديَّ أدنى شك بأن إيران الملالي كانت بلداً قامت فيه "عصابة رجال الدين" بإخصاء الشعب ومبايعة الشريعة، لكنني كنت أيضاً على قناعة بأن الزمن يتغيَّر.

بدأ لاعبون جدد بالظهور، وآخرون أخذوا يُشكِّكون بهم. كان أبي بالتأكيد مُطَّلعاً على مجرى الأمور، فتلقَّى لأوَّل مرَّة في حياته دعوةً لحضور حفل استقبال في مقرِّ إقامة سفير الجمهورية الإسلامية في باريس.

لم تتصادف المناسبة مع ذكرى "عاشوراء" ولا مع واحدة من احتفالات "قيام الثورة الإسلامية".

كانت الغاية من تلك الأمسية مناقشة الاستثمارات والمناقصات وتشجيع آلاف المغتربين الإيرانيين على العودة إلى بلدهم.

* «لقد تغيرت إيران يا أبي!». أجبتُه بتعنُّت.

لكن والدي الأسير لماضيه، كابر على موقفه، فجاء جوابه القاطع:

- «لا أملك سوى نصيحة واحدة أقدِّمها لك، حذارِ من الإيرانيين... فهم كما يقول المثل الفارسي: يلفُّون حول رقبتك حبلاً من حرير».

ماذا أراد أن يقول؟ أنهم يفتحون لك الباب لكي يُحسِنوا طعنك بعدها؟

كنت أستشيط غضباً من أمثاله الصدئة. إن كان لا يريد أن ينظر أبعد من أنفه، فالأمر منوط به. أمَّا أنا فحسمت أمري. حقائبي كانت جاهزة وكنت أرغب في المغادرة بأسرع ما يمكن، بأن أحج إلى طهران، إلى تلك الأرض التي كانت موطنك والتي تناديني للعودة. وكنت متشوِّقة لسبر أغوار الماضي من أجل أن أفهم الحاضر بصورة أفضل.

عند عودتي إلى طهران، قدَّم لي عماد الدين باقي أفضل درس عن إيران المعاصرة، ذلك الذي لم يكن في وسعك، لا أنت ولا أبي، أن تقدِّماه لي. باقي كان في السابعة والثلاثين من العمر وثورياً قديماً، أحد أشكال "تشي-غيفارا" الإسلاميين الذين استبدلوا الكلاشينكوف بالقلم. في ذلك الخريف من عام 1998، سارعت أطرق باب "جميع"، واحدة من أحدث الصحف اليومية الإصلاحية، حيث كانت مقالاته تتوجَّه بالنقد جملةً إلى نظام ساهم هو نفسه في قيامه قبل عشرين عاماً. كان المبنى الرصين ضائعاً في ضباب ازدحام ميدان هفت تير، في قلب العاصمة. عند بهو الاستقبال، أشارت لي مضيفة شابَّة بأن أتبعها.

توسَّطت وجهها المحاط بالحجاب الإلزامي ضمادة أنفية، إشارة تُوحي بعملية تجميل حديثة العهد أجرتْها مسايرة للموضة الجديدة في إيران، أو ربَّما تقليداً لها.

فُتح الباب الخشبي على غرفة جميلة، تتألَّق بضوء أنيق وشفَّاف، كانت هي أيضاً على ما يبدو قد خضعت لعملية تجميل سريعة.

رائحة الطلاء الجديد وغراء ورق الجدران كانت تفوح منها. كانت الكراسي التي أحاطت بطاولة كبيرة لا تزال في غلافها البلاستيكي وبطاقة السعر تتدلَّى من مساندها. وحول الطاولة، كانت هناك أقل من دزِّينة من المراسلين الشباب يعزفون بمهارة على لوحات المفاتيح لكومبيوترات جديدة كُلِّياً.

عالجت مقالاتهم مواضيع لا تزال إلى اليوم من المحرَّمات: المساواة بين الجنسين ومساحة أكبر من حرِّية التعبير وتعديل الدستور. في غياب أحزاب سياسية حقيقية، أصبحت الصحف متنفَّساً لجميع المطالب ومنبراً للنقاش. كان هناك رجل أكبر سِنَّاً يقرأ البروفات ويعلِّق عليها بصوت عالٍ منكبَّاً على الشاشة، بدا شعره كثيفاً بشكل ملفت، مرتدياً قميصاً أبيض أنيقاً وبنطالاً عصرياً من القماش. «إنه باقي»، همست السكرتيرة في أذني. استطعت أن أستجلي بعض الكلمات المألوفة والمقتبسة مباشرة من المفردات الغربية عبر نقاشه مع زملائه الشباب: «لاييك... ديمو كراسي»، مصطلحات جديدة أخذت تبرعم منذ عهد قريب في غرف الأخبار لتلك الصحف الجديدة.

- «أهلاً وسهلاً بك!». بادرني باقي بأدب، رافعاً رأسه.

كان صوته دافئاً، حلواً ورصيناً في آن معاً. جلست على كرسي تصدَّر الطرف الآخر من الطاولة.

راقبته يتوارى في المطبخ ليعود حاملاً كوباً من الشاي ينبعث منه البخار، عجزت عن تخيُّله كأحد من قاموا "باختطاف إيران" كما كان يردِّد والدي. تراكمت الأسئلة في دفتر ملاحظاتي. من كان هذا الرجل حقَّاً؟ لَمَ اختار أن يكون بوقاً للتطرُّف قبل عقدين؟ هل هو نادم؟ والأهم من ذلك، ما الذي حصل لكي يقفز الرجل إلى المركب الآخر؟ بدا باقي مستمتعاً بدهشتي، فمن الأرجح أنني لم أكن أوَّل صحافية تجري معه تحقيقاً كهذا. أجاب بحماس: «كان لي من العمر 17 عاماً فقط عند قيام الثورة. كنت شاباً يافعاً مسكوناً بالأوهام. قمت وأصدقائي بتشكيل كتيبة نضالية أطلقنا عليها اسم ميسم. كنا نجول على الجامعات ونجبر الطلاب على ترديد هتافات ضدَّ الشاه، ونبثُّ تسجيلات آية الله الخميني معتقدين بأننا نستطيع بذلك

تغيير العالم. أردنا إنشاء الجمهورية الإسلامية الأولى على الأرض وآمنا بها إيماناً راسخاً».

أصبح الإسلام بالنسبة إلى باقي حامل راية النضال، وهو الذي نشأ وترعرع في كنفه. فقد وُلد في كربلاء، إحدى العتبات المقدَّسة في العراق. سليل أسرة من المعارضين الدينيين. كان جدُّه رجل دين محترماً للغاية في الأوساط الشعبية. ولدى عودتهم إلى إيران في عام 1963، اعتُقل والده على الفور وعُذِّب على أيدي السافاك ومخابرات الشاه. ومنذ ذلك الحين، أصبح الخميني في نظره طريق الخلاص الوحيد.

- «كان الوحيد الذي تجرَّأ على أن يقول: لا للشاه، لا للفساد، لا للإفراط في تقليد الغرب! ووعد إيران باستعادة كرامتها واستقلالها.

كان زعيماً روحياً محاطاً بهالة كبيرة! وكأنه جاء مخلِّصاً من السماء، كنا نعبُّ كلماته دون تفكير».

لم يكن المتديِّنون في تلك المرحلة هم وحدهم من ساهم في صناعة البطل الجديد. فعند عودته إلى البلاد في 11 شباط/ فبراير من عام 1979 التفَّ حول آية الله الخميني كوكبة من مختلف الاتجاهات المتباينة من إسلاميين وعلمانيين وقوميين وشيوعيين... وراهنت النساء على زعيم من نوع جديد جذبتهن إليه وعوده بالمساواة بين الجنسين. ولكن سرعان ما خيَّب آمالهنَّ. وغدا المرشد الأعلى للثورة الإسلامية الشخصية الرئيسة في الدولة ومصدر الشرعية السياسية، حتى أنه حاز لقب إمام، تشبُّهاً بالمهدي الذي ينتظره الشيعة منذ قرون.

وخلال الأشهر الأولى من تلك الموجة العارمة، هاجم الثوَّار رموز النظام القديم ولم ينجُ من أيديهم لا التماثيل ولا فيلات كبار المسؤولين ولا حتى المباني الإدارية.

اختار باقي سجن إيفين سيِّئ الذكر هدفاً له، هناك حيث قبع الكثير من أقاربه لسنوات طويلة.

- «عندما فُتحت أبواب السجن أخيراً، كنت أتصرَّف كصبيٍّ أرعن! أردت أن أرى، أن أجول بين الزنازين لكي أفهم معنى الخوف والتعذيب، قائلاً لنفسي: لقد انتهى كل هذا الآن! فكرت أن لا بدَّ من تحويله إلى متحف لكيلا ننسى، ولكيلا يحدث ذلك مرة أخرى».

لم يكن باقي يتصوَّر أبداً، عندما مرَّت تلك الأفكار في رأسه، أنه سينتهي بعد سنوات وراء تلك القضبان. ولكن لم تكن الأمور قد اتخذت هذا المنحى بعد وتابع قصَّته منغمساً بذكرياته: «بتأثير العدوى الإسلامية، ذهبت للاستقرار في قُم، الفاتيكان الشيعي، حيث التحقت بالحوزة العلمية. لسنوات طويلة، سيصبح القرآن بالنسبة إليَّ، الرفيق الأوحد وخارطة الطريق».

شهد عام 1989 خيبة أمل باقي، أي بعد عشرة أعوام من قيام الثورة، بالتزامن مع وفاة الخميني ونهاية الحرب بين إيران والعراق. أخذت الحميَّة الدينية، التي كانت تتغذَّى على خطاب المرشد الأعلى والمعركة باسم الإسلام الشيعي ضدَّ صدام العدو السني، بالتداعي. وبعد أن كانت متلاحمة حول المرشد الأعلى، بدأت الأطراف الفاعلة في الفصائل السياسية المختلفة تنهش بعضها البعض. وغالى أولئك الذين احتكروا السلطة في التعصُّب للنهج المحافظ. أمَّا من تم تهميشهم فلجأوا إلى الدراسات الفلسفية والاجتماعية. ومنهم سعيد حجاريان وعبد الكريم سروش وأكبر غانجي... فبعد أن كانوا أعضاء متنفذين في الأمن والحرس الثوري، أصبح هؤلاء الرجال، من خلف الكواليس، مهندسي التغيير. ومن هذه المجموعة سيولد التيَّار الإصلاحي.

- «قررت إذاً أن أنضمَّ إليهم، فعدت إلى طهران والتحقت بجامعة العلَّامة الطبطبائي لدراسة علم الاجتماع. ثمَّ بدأت بالكتابة». تابع باقي.

ذكرتني كلماته بعبَّاس عبدي، أحد أتباع الخميني. ففي أثناء دراسة باقي للقرآن في قُم، شارك عبدي في الهجوم على سفارة الولايات المتَّحدة في طهران. وبعد سنوات من النضال المستميت، أصبح مختطف الرهائن الأمريكيين هذا، واحداً من مستشاري خاتمي الثقاة. حتى أنه كاد أن يتجاوز الخط الأحمر عندما قبل لقاء باري روزن وجهاً لوجه، وهو أحد الرهائن الأمريكيين من حادثة السفارة، في أواخر يوليو 1998، وعقد الاجتماع التاريخي على مرأىً من عدسات العالم أجمع، داخل أسوار اليونسكو في باريس. ما زلت أذكر كيف تابعت عن كثب ذلك الحوار الذي جاء وليد الصدفة، تحت قبَّة المكان الذي عملتَ في سفيراً للحوار والثقافة. كان ذلك أوَّل لقاء مباشر من نوعه منذ عشرين عاماً، وشكلاً من أشكال الإقرار بالذنب.

وباقي؟ هل يندم لمناداته بكلِّ تلك الشعارات المعادية للإمبريالية عند تفكيره في طي صفحة نظام استبدادي إلى الأبد؟

- «لا يخفى عليك أنه حتى ميشيل فوكو، أحد أعظم مفكريكم، قد كال المديح للجمهورية الإسلامية وقتها... أمَّا اليوم، فأهم ما في الأمر، هو الاعتراف بأخطائنا والاستماع إلى مطالب الشعب... إنه أوان الثورة على الثورة».

استرعت تلك المقارنة مع فترة ما بعد الثورة الفرنسية انتباهي، عندما نأى الليبراليون بأنفسهم عن الإرهاب الذي نادى به روبسبيير. قرأ باقي العديد من الكتب، من أجل فهم أفضل لموقع إيران من حركة التاريخ. كان يريد تسخير الصحافة كمنبرٍ جديد لمساعدة بلاده على اجتياز تلك المرحلة من التغيير. ولدى خروجي من صحيفة "جميع" أدركت فوراً أننا

سنلتقي لمرَّات مقبلة، وستكون صراحته وحسُّه التحليلي، دليلي لسنوات طوال في المتاهة الإيرانية.

في الطريق إلى البيت، توقَّفت لدى كشك لبيع الصحف في الحي الذي كنت وجدَّتي نسكنه، فيما أصبح طقساً يومياً تبلور منذ عودتي للاستقرار في طهران. أصبح البائع يألفني لكثرة ما رآني أحوم حول كشكه، وكان يحتفظ لي كل يوم بأفضل ما يستخرجه من بين المنشورات الإصلاحية، ويلخِّص ترجمة بواسطة قاموس إنكليزي صغير مرمي وسط علب السجائر والعلكة.

وقد استرعى انتباهه في هذا اليوم مقال ساخر لإبراهيم نبوى. نبوى كان شخصية مذهلة انتقلت من معارضة الشاه إلى نقد الملالي... ومنذ اليوم الذي تُرك فيه للصحافيين المجال للتنفُّس، أخذ بكتابة عمود دوري لاذع تنشره يومياً صحيفة "جميع" تحت عنوان "الطابور الخامس"، يتهكَّم فيه على هجوم المحافظين الذين يرون في كلِّ صحافي جاسوساً محتملاً! يسخر العمود بوقاحة من ألتراس الموالين للنظام، ويعود نجاحه إلى أن ما يكتبه نبوى يطوف الجامعات على شكل نكات يتبادلها الطلاب في المدرَّجات. دقَّقتُ النظر في النص الصغير الذي أحاطه البائع بعناية باللون الأحمر، كانت "قفشة" اليوم تحاكي في سخريةٍ خطاباً محافظاً: نحن ضد سياسة الطالبان، إلا فيما يتعلق بالمرأة والشباب والسياسة والحرب. وهو نفسه لم يتوقَّع أن يصيب في صياغة تلك العبارة إلى هذا الحد.

التنقيب في تاريخ بلدك، هو تنقيب في تاريخك.

تاريخ علّامةٍ كنت أجهل كلَّ شيء عنه تقريباً. قمت بوضع خط تحت اسم داريوش فروهر الذي تصدر قائمة الشخصيات التي كنت أتوق إلى لقائها. ينتمي هذا المثقَّف السبعيني إلى جيلك. ومنذ أمسيتها المجنونة، دأبت نيلوفر على الحديث عنه أمامي بإعجاب شديد: «رجل نزيه وديمقراطي، علماني حقيقي، لطالما ناضل من أجل بلاده... أب روحي لي... سأعرفك به». كان هذا وعد نيلوفر. شدَّ تقدُّمه في السن انتباهي بطريقة غريزية. قلت لنفسي: لعله الوحيد الذي في إمكانه أن يخبرني عن طهرانك، طهران شبابك. سررت كثيراً لإمكانية التحدُّث إليه.

بعد ذلك، وقبل أيام قليلة من زيارتنا، سقط خبر وفاته عليَّ كالصاعقة.

حدث ذلك صبيحة يوم خريفي من عام 1998، في وقت بدأت فيه الأشجار تفقد أوَّل أوراقها. خرجت جدَّتي للتسوُّق، أمَّا أنا فكنت أتناول الإفطار عندما اتصلت نيلوفر: «قتلوا فروهر! قتلوا فروهر!».

استطعت أن أميِّز صوتها المنكسر برغم أنها لم تلفظ سوى هاتين الكلمتين.

ثم استحالت كلماتها إلى خشخشة معدنية قبل أن يبتلعها الصمت.

* «ألو؟ ألو؟» رددت. لا إجابة سوى لازمة متكررة: بيب بيب.

أعدت طلب الرقم، إلا أن الخط كان مشغولاً دون انقطاع. من النافذة التي تعلَّقت بها، تأمَّلت لبرهة الجبال المكسوة بثلج خفيف قبل أن أضع

السمَّاعة جانباً. لقد اغتالوا داريوش فروهر! شغَّلت التلفاز مرتبكة، بحثاً عن نشرة الأخبار. «بسم الله الرحمن الرحيم»، نطقها المذيع بنغمة أكثر رتابة من غسَّالة صحون. أخذت أتنقَّل بسرعة بين القنوات: دورة لتدريس القرآن، حلقة من المفتش ديريك مدبلجة إلى الفارسية، شريط عن الحرب العراقية-الإيرانية... ولا كلمة واحدة عن فروهر. لطالما تحاشى "صدا وسيماى"[1]، سواء بالصوت أوالصورة، ذكر اسم هذا المفكِّر المثير للجدل.

علمت من القصص التي كنت أسمعها من زملاء المهنة أن جهاز الدعاية التابع للنظام هذا، قد اعتاد مهاجمة الكتاب والمعارضين في برنامج مريب يدعى "هويت" في فترة التسعينيات. تلك كانت حقبة مظلمة ظنَّ الجميع أنها انقضت. قرَّرت الاتصال بصديقتي ليلى، ملكة الليل. ولم أكد أنطق اسم الرجل العجوز، حتى أجابتني بأنها في عجلة من أمرها، دون أن تمنحني دقيقة واحدة، هي التي تمضي عادة ساعات على الهاتف. طلبت على عجل صديقة أخرى، على الطرف المقابل، أجابتني محاولة تغيير الموضوع: «على فكرة، في المرَّة المقبلة التي تسافرين فيها إلى فرنسا، لا تنسي أن تحضري لي معك نسخة من مجلة إل[2]». كانت ردَّة فعلها مستهجنة. لمَ كلُّ هذا الارتياب؟ بجزع ذهبت للتحقُّق من زميلة إيطالية تدعى ناديا بيتسوتي، وهي واحدة من قلائل النساء المراسلات في طهران.

- «أشم رائحة لا تعجبني». قالت وهي تفتح لي الباب، مخمِّنة على الفور سبب مجيئي.

---

(1) التلفزيون الإيراني الرسمي.

(2) Elle مجلة نسائية.

* «ماذا نعرف أكثر عن الحادثة؟».

- «يبدو أنه قد قُتل ذبحاً بالسكين...».

وزوجته أيضاً... حدث ذلك في مسكنهما... أحد أصدقاء العائلة اكتشف جثّتيهما... مشوَّهتين وداميتين...

وبعد ساعات، أخذت المعلومات تتأكَّد شيئاً فشيئاً. مع تفاصيل أكثر وضاعة: طُعن الزوجان بوحشية عشرات المرات قبل أن يرمي المجرمون جثتيهما المشوهتين باتجاه القبلة. بالتأكيد، دُبِّرت الجريمة ونفَّذها أحد المتطرِّفين المعتوهين، ولكن كيف يمكن تبرير عمل لا إنساني كهذا باسم الإسلام؟ ولمَ فروهر بالذات دون غيره؟ حقيقةً لم أكن أعرف عن هذا المعارض العجوز سوى القليل.

شرحت لي ناديا التي عاشت في إيران لفترة أطول ممَّا عشت، أنه كان واحداً من أولئك الرجال الذين لم يتنازلوا عن مبادئهم. ففي ظلِّ النظام الملكي، دفع فروهر ثمناً باهظاً لنضاله من أجل حرِّية التعبير، خمسة عشر عاماً قضاها خلف القضبان. تقلَّد بعدها لفترة وجيزة منصب وزير العمل إبَّان سقوط النظام السابق، قبل أن يعود مجدَّداً للانضمام إلى صفوف المعارضة. ومنذ ذلك الحين وهو يترأَّس حزباً محظوراً، غضَّت السلطات الطرف عنه، حزب الجبهة الوطنية الذي يمثِّل حركة سياسية وطنية ديمقراطية. وهو ما جعل من فروهر شخصية مستهدفة.

- «لم يكن ليؤذي نملة»، تابعت ناديا. «وباستثناء نشرة عن انتهاكات حقوق الإنسان وُزِّعت بنسخ مطبوعة على محيطه، لم يعد ناشطاً بشكل كبير».

* «إذا كان بعض المتطرِّفين غير راضين عن أفكاره، فلمَ إذاً لم يكتفوا برميه في السجن كعادتهم؟». سألت زميلتي.

خيَّم صمت ثقيل على مكتب ناديا. منذ بداية التسعينيات، بدا وكأن الجمهورية الإسلامية قد توقَّفت عن تصفية معارضيها. ويعود تاريخ آخر حادثة إلى عام 1992، عندما اغتيل أربعة معارضين أكراد في مطعم في برلين. لم نستطع لا هي ولا أنا أن نجد سبباً لهذا التصعيد المفاجئ لأعمال العنف.

- «قطعاً لن أفهم هذا البلد». همست بعجز.

لكنني لم أتخلَّ عن إصراري. في يوم الجنازة، ودون تردُّد، انتقيت الأطول بين معاطفي السوداء، واخترت شالاً بلون الغربان يتماشى معه. صعدت إلى حافلة النقل العام متسربلةً بهذا الزي الذي يلائم جميع المناسبات. كانت ممتلئة بالركاب. قفزت إلى الجزء الخلفي المخصَّص للنساء دون أن أنبس بكلمة، ثم نزلت في أقرب محطَّة إلى مسجد الفخر، حيث أقيمت مراسم الجنازة. تبعت الناس الذين أخذوا يتفرَّقون بخطوات بطيئة ومهيبة في شارع يعجُّ بحشد متراص وصامت.

في هذا الحي الواقع جنوبي طهران، عاش الزوجان فروهر حياة متواضعة لسنوات طويلة.

خيَّم الحزن على الأجواء وكانت الأنظار في حالة ترقُّب.

لم يجرؤ أحد على النطق بكلمة واحدة، وكأنما كمَّم الخوف الأفواه من جديد. بعد بضع دقائق، حلَّ الغضب محلَّ الخوف. بدأ رجل ستِّيني بإنشاد مرثيات في مناقب الفقيدين، كاسراً الإيقاع الرصين لوقع الخطى على الرصيف. وأخذت الأيدي تتَّجه نحو السماء مأخوذة باللحن، رافعة صور داريوش فروهر، بشاربه الممشَّط المدبَّب، وزوجته پروانه، التي تبرز خصلات شعرها الأشيب من مقدَّمة حجابها. كانا زوجين لا ينفصلان كما تقول نيلوفر. ففي حين كان هو يناضل ضدَّ الظلامية، كانت هي تنظم

الشعر. انهمرت دمعة تأثُر على خدٍّ مسنٍّ محني الظهر متّكئ على عصاه، يرتدي ربطة عنق وقبعة بيريه صغيرة. «حُرِّية الفكر إلى الأبد!». همهم صوتٌ أبح. التفتُّ، وإذ بامرأة إيرانية في العقد الثالث من العمر، وعلى معطفها الأسود، علقت دبوساً يحمل شعار حزب فروهر. إن رؤية جيلين تحالفا ضدَّ الظلامية كانت مشهداً مؤثِّراً جدَّاً بالنسبة إليَّ. فكرت فيك، باباي، في الثنائي الذي كنا لنشكِّله أنت وأنا، الثنائي المستحيل.

بسرعة البرق، تحوَّل موكب التشييع إلى مظاهرة جرَّتْ في ركابها بضع مئات من الشباب ممَّن تجمَّعوا في البدء بهدوء على الأرصفة. أسرَّ إليَّ أحدهم: «لم أسمع أبداً بفروهر من قبل، ولكنهم باغتياله منحونا رمزاً للمقاومة!». وراءه كان هناك عدد من الطلاب ينتحبون برؤوس مطأطئة. «هل رأيت هذا الحشد؟!». هتف أحد المنظِّمين، «إنه إشارة إلى أن المعركة من أجل الحرية لا تزال على قيد الحياة، ولا يمكننا إسكاتها!». بعد ذلك حدث شيء غير متوقَّع، فبدلاً من أن تستقلَّ الحشود الحافلات التي اصطفت على طول الشارع للذهاب مباشرة إلى مقبرة بهشت زهرا، حيث ستوارى جثامين الراحلين، أخذ الموكب بالتوجُّه نحو المجلس. تقدَّم المشيِّعون بخطوات واثقة من مبنى البرلمان الإيراني الذي أُنشئ بعيد الثورة الدستورية عام 1906 ضدَّ الملك القاجاري. والذي كان رمزاً أساسياً من رموز كفاح الإيرانيين الطويل غير المنتهي من أجل الاستقلال والديمقراطية. هناك، كانت الشرطة على أهبة الاستعداد. وضربت قوات حفظ الأمن طوقاً حول المجلس استعداداً للانقضاض على أوَّلهم. وبالرغم من ذلك، تابع المشيِّعون تقدُّمهم بحذر، يداً بيد، مدفوعين بإصرارهم لتكريم الفقيد حتى النهاية. لم يكن تقدُّمهم بدافع الاستفزاز، وإنما فقط من أجل إيصال رسالتهم: "عبثاً يعتقد القتلة أن في إمكانهم، من خلال أفعالهم الدنيئة، ثنيَ الشعب الإيراني عن مواصلة نضاله نحو الحُرِّية

والعدالة". عبارة متوعِّدة خُطَّت على منشور بحروف سوداء تم تمريره وتداوله تحت البراقع، احتفظتُ بنسخة منه. إلا أن القتلة تجاهلوا الرسالة عمداً، ففي الأيَّام التالية، سقط ضحايا آخرون، واحداً تلو الآخر كأوراق الخريف، منهم ماجد شريف ومحمد مختاري ومحمد پوينده. رجال قلمٍ جمعهم الدفاع عن حُرِّية التعبير. لقد اختُطفوا أوَّلاً، ثمَّ عُثر على جثثهم ملقاة في الشوارع، مخنوقة هامدة.

لم يترك القتلة أيَّ أثر يدلُّ عليهم، لا بصمات ولا مطالب. كانت أعمالاً عشوائية وجبانة، دون مبرِّر واضح سوى زرع الاضطراب والقلق في صفوف الكتَّاب والمدافعين عن الديمقراطية. من الذي يقف وراء ذلك الموت الذي يحصد رؤوس الطبقة المثقَّفة؟ ولمَ بتلك الطريقة الوحشية بالذات؟

في عصر أحد الأيَّام، ذهبت لزيارة أمير حسن چهلتن، كاتب صديق لم يبرح منزله منذ طوفان القتل هذا. بيده المرتجفة، سلمني ورقة. «تلك هي قائمة الأشخاص المطلوبة تصفيتهم»، همهم منهاراً، كما لو أن للجدران آذاناً. ألقيت نظرة. كان اسمه هناك في الوسط، بالخط العريض. لم أجرؤ حتى على أن أسأله كيف وصلت تلك القائمة إلى يده. «أتصدقين أنني اعتدت ألا أرتعد عند سماعي خطى خلف بابي؟». همس.

عندما التقيته قبل بضعة أسابيع، كان رجلاً آخر. كانت الابتسامة لا تفارق شفتيه، أهداني إحدى رواياته الممنوعة منذ سنوات والتي أُفرج عنها مؤخَّراً، ثم أطلعني على سرٍّ مشروع جديد: إعادة إحياء رابطة الكتَّاب المحظورة، تلك الرابطة الشهيرة التي كانت تناضل ضدَّ الرقابة، بالتعاون مع عدد من زملائه الكتَّاب المؤمنين بأنه مع اتجاه النظام نحو الانفتاح، سيكون المستقبل لهم من جديد. «أمَّا الآن، فالخوف يتملَّكني ليل نهار».

قال وهو يرافقني إلى الباب. تصافحنا دون أن نجرؤ على أن نقول "إلى اللقاء" لأنها ربَّما قد تعني "وداعاً".

علمت وفي وقت لاحق أن أمير حسن، وخمسين من زملائه، تجرأوا على تحطيم جدار الصمت بكتابة رسالة إلى خاتمي طالبوه فيها بالتحقيق في تلك الجرائم الوحشية. وفي طفرة شجاعة لم يسبق لها مثيل، وقف الرئيس في صفِّهم. وفُتِح تحقيق بناء على طلب صريح منه كُشفت نتائجه للعامة بعد أن كانت في الماضي تدفن في أدراج النسيان، كانت الجرائم تحمل بصمة عناصرَ متنفِّذةٍ في الأجهزة الأمنية. وتحت الضغط، استقال وزير الإعلام، قربان علي دري نجف آبادي في نهاية المطاف، وهو ما شكَّل انتصاراً كبيراً للسياسيين الإصلاحيين. إلا أنه بالرغم من توقُّف عمليات القتل، فإن القتلة لم يُكشفوا ولم يعاقبوا. وتنتهي القضية بعد بضعة أشهر بقصَّة الدواء مزيل الشعر التي زعُم أن المتَّهم الأول سعيد إمامي قام بابتلاعه في زنزانته. وبهذا اضطُرَّ المثقَّفون الإيرانيون إلى فتح صفحة جديدة على مضض، من أجل مواصلة مسيرتهم نحو مستقبل أفضل. هل كانت لديهم شكوك أن القتل ليس سوى مقدَّمة رهيبة لسلسلة أشرس من الهجمات ضدَّ أنصار التغيير؟

تلك كانت الفترة التي بدأت أستيقظ فيها مذعورة. فبعد أن كنت أنام دون انقطاع، مهدهدة بالخرير المتواصل للخوب، ذلك المجرى المائي الذي ينساب عبر طهران، ويتغذّى من مياه ذوبان الثلوج المنحدرة من الجبال، جارياً تحت نوافذ بيتك باباي. أخذت الأصوات المتقطِّعة تُقلق نومي. وذات صباح، شعرت وكأنني على وشك أن أصاب بالإغماء عندما فتحت عيني، أخذ قلبي يخفق بعنف. كانت الساعة نحو الخامسة صباحاً، وكنت مضمَّخة بعرقي.

استويت في سريري وأرهفت السمع. كانت هناك أصوات تُشبه وقع خطوات على البلاط، تأتي من غرفة المعيشة في الجانب الآخر من الممر. كنت قد أحكمت إغلاق باب المبنى بالقفل قبل أن أخلد إلى النوم، كما كانت النوافذ مغلقة أيضاً.

«لا شيء أسوأ من الوقوع ضحية لهلاوس الارتياب...» حذَّرتْني ناديا صديقتي الصحافية التي تكبرني بخمسة عشر عاماً. قبل بضعة أيّام، حاولت طمأنتي عندما أفضيت لها عن اختفاء بعض الأغراض من غرفة نومي في ظروف غامضة. كبعض المجلات النسائية التي أحضرتها من باريس، قميص أو اثنين، لا شيء يُذكر، إنما... في النهاية عزوت السبب إلى التعب والإجهاد، فعادة ما تؤدِّي قلَّة النوم إلى الشعور بالتشوش.

ذات ليلة، راودتني فكرة غريبة:

ربَّما كان ذلك شبحك الساهر على منزل العائلة، المسكن المشيَّد من

الطوب الأبيض، والمؤلَّف من طابقين والأخير من ممرٍّ مسدود تحفُّ به الأشجار المهيبة الذي أتقاسم سكناه مع الجدَّة حيث أشغل طابقه العلوي. وفي الطابق السفلي إلى اليمين، كان المبنى يحمل الأرقام "12 + 1"، خُطَّت باللون الأسود فوق الباب الأمامي، تطيُّراً من خرافة الرقم "13".

إنما في تلك الليلة بالذات، كانت الأصوات حقيقية.

- «من هناك؟». هتفتُ وأنا أقترب بوجل من باب الصالة.

توقَّفت الخطوات، فدسستُ رأسي من فرجة الباب.

لم يكن سراباً، كان هناك أحد بالفعل، ظلٌّ نحيل مختبئ خلف الكنبة...

وفي غسق الليل، تمكَّنتُ تدريجياً من تمييز بعض العلامات الفارقة: وجه شمعي، وشعر مخضَّب بالحناء، جسد هزيل يلتف في قميص نوم طويل. كان شخصاً أنثوياً مألوفاً بشكل غريب...

- «ماماني!».

مثلت الجدَّة أمامي بخُفَّيها، ونسخة من مفاتيح الطابق الثاني تتدلَّى من عنقها!

- «ولكن ماذا تفعلين هنا؟ لقد أخفتني!». بادرتها بحنق.

* «أنا لم... لم أستطع النوم... لهذا صعدت للقيام بجولة». تمتمتْ بخجل.

كانت هي إذاً وراء اختفاء المجلَّات وبصمات الأصابع على الكومدينة والأدراج المفتوحة وعبوات الكريم الفارغة بشكل مثير للريبة. إلا أن رائحة العشب الطازج التي تتركها في أعقابها كانت تفضحها. لا شكَّ أن زوجتك أتقنت فنَّ مفاجآتي...

منذ استقراري في طهران، كان التواصل معها أمراً عسيراً. فالهوَّة بيننا

كانت مضاعفة: هوَّة الأجيال من جهة، وهوَّة الثقافات من جهة أخرى. لم أكن أملك أي خيار وفقاً للعادات الإيرانية، سوى أن أقيم في منزل الأسرة. وكانت تلك فرصة الجدَّة لفرض قوانينها.

«هذه هي شقَّتك»، قالت لي عند وصولي وهي ترشدني إلى الطابق الثاني فوق منزلها.

كان المكان الذي خصَّصته لي يقبع تحت كومة من الغبار: خردوات في كلِّ مكان وعلب مغلَّفة ومختومة بشريط لاصق. إلا أن ميزتها كانت في أنها منفصلة عن الطابق الأول بواسطة باب يُغلق بالقفل. وما أن انتهت عمليات التنظيف حتى بدأت أرسم التصميم في رأسي. الغرفة الهادئة تصلح لتكون مكتبي. وسيُطلى المطبخ وجدرانه المتداعية باللون الأصفر. وسيكون هناك على الشرفة صحن لاقط مخفي لاستقبال القنوات الأجنبية سرّاً. أمَّا الصالة الكبيرة فستستضيف معارفي الجدد. لم أشك للحظة، وقد أصبحت "الجارة" في الطابق العلوي، في أنني سأفقد كل استقلالية. وما هي سوى بضعة أيَّام حتى تأكَّدت شكوكي.

سرعان ما أصبحت موضع اهتمام الجدَّة وموضوع جميع أحاديثها.

فبعد أن هجرها أبناؤها الثلاثة الذين أصابتهم عدوى حُرِّية الغرب كما كانت تقول، ضبطت لسنوات طويلة ساعة حياتها على توقيتكَ أنت: الإفطار، الغداء، العشاء، وقت الدواء، الشاي، زيارة الطبيب... كل ذلك كان محسوباً بالدقيقة تقريباً. تشاحنتما طوال الوقت، لكن لطالما كان الأمر كذلك: كنتَ سبب وجودها وعمودها الفقري، دائماً ما سألت نفسي إن كنتما قد أحببتما أحدكما الآخر. ففي زمنكما، كان للحب معنى مختلف. كان لها من العمر ستة عشر عاماً عندما مرَّرت خاتمك في إصبعها في زواج مدبَّر كما تقتضي الأعراف والتقاليد وحسب ما روتْ لي. كانت ابنة تاجر

في السوق الكبير، أمَّا أنت فسليل عائلة من المثقَّفين، ومع الوقت، انتهى بكما المطاف إلى التآلف.

بعد ثورة 1979، بنت جدَّتي لنفسها قلعة وهمية في حماك. وعند استلام رجال الدين السلطة، جرَّدوها من ثوابتها. جاء الحجاب في البداية ليسحق تسريحة الشعر، ومن ثمَّ كل أسماء الشوارع التي تم تغييرها. وحملت اللوحات المعدنية البيضاء والزرقاء أسماء آيات الله وشهداء الحرب العراقية-الإيرانية. وهي الحقبة نفسها التي أصبحت فيها ذاكرة جدَّتي - على الرغم من أنها لا تزال سليمة - انتقائية، وسيبقى اسم جادة "پاسداران[1]" بالنسبة إليها دائماً "سلطنت آباد" وهي شريط طويل من الأسفلت يمتدُّ نحو الضواحي الراقية شمالي العاصمة ويتقاطع عمودياً مع الشارع الذي يقع فيه منزلكما. لم يكن ذلك نوعاً من الحنين إلى النظام القديم، إنما هي غريزة الرفض، وهو أمر لم أستطع فهمه سوى لاحقاً.

بوفاتك، تزعزت عاداتها اليومية نتيجة الفراغ الذي سبَّبه غيابك. فنزعت جميع الستائر من طابقي المبنى، وغطَّت بالنايلون كل كراسي الصالة الواسعة.

بيتكما كان ملاذها الأخير. بالنسبة إليها لا وجود "للبيرون"، الخارج، لم يكن هناك سوى "الأندرون"، الداخل، الذي تزداد جدرانه سماكةً يوماً بعد يوم، يدور يومها حول السماور الجاهز دوماً ليصب الشاي للزوَّار العابرين على قلَّتهم وإطعام الأسماك الذهبية، الشاغلين الوحيدين المقبولين شرعاً لما كان في حقبة ماضية بركة الفناء الخلفي. وفي بعض الأحيان، كانت تقضي أسابيع مرتدية بيجامتها، مغلقة على نفسها "سجنها الذهبي" -كما

(1) حراس الثورة.

كانت تسميه - وهي الوحيدة التي تمتلك مفاتيحه: قفل البوَّابة، المدخل الرئيس، الصالة، غرفة نومها، وحتى ثلاجتها، كان لها باب يقفل.

وبمرور الوقت، تحولت ماماني إلى بطلة مأساتها الخاصة. ستارة مسرحها اليوناني كانت عبارة عن النافذة التي تفصل مطبخها عن العالم الخارجي. وهي غالباً ما تلصق أنفها إلى زجاجها لتتجسَّس مختبئة خلفها بكثير من الريبة على ما يحصل في الجانب المقابل: مجيء ابن الجيران وذهابه على درَّاجته، قرقعة بائع خردة، أكورديون المتسوِّل، كانت تلك إحدى تسلياتها المفضَّلة. أمَّا خرير الخوب المتدفِّق تحت مصاريع تلك النافذة، فكان يطغى على همهمات المدينة الآتية من البعيد، حيث كان حلم الديمقراطية في مخاضه العسير. ما كان في ذلك البيت من شيء يقرِّبنا سوى صورتك جالساً وسط مجموعة من الفراشات البلاستيكية، تنفض ماماني عنها الغبار يومياً. لعلَّها من المفارقات أن تكون أنت قاسمنا المشترك الوحيد.

تجرَّأت ذات يوم أن أسألها عن سبب عدم مجيئها للعيش في فرنسا، حيث دفنت. فلربما تشعر بأنها هناك أقل وحدة.

- «أمن أجل يرمونني في دار للمسنين؟ كلا شكراً!»، أجابتني. «والآن بعد أن أتيتِ للعيش في طهران، لن أتركك وحيدة. لا يجوز لامرأة شابة أن تعيش وحدها، مستحيل. إنها سمعة الأسرة».

بالنسبة إلى أرملة في السبعين، جُرِّدتْ من ثوابتها، كان من الطبيعي أن تعيد تنظيم أيَّامها الجديدة بعد وصول حفيدتها التي اجتاحت حياتها فجأة. كانت ترغب، مدفوعة بغريزة الأمومة المستعادة، في التحكم بأدقِّ تفاصيل حياتي. ولم تكن تنقصها الحيلة لتحقيق أهدافها.

كنت محصنة ضدَّ شكواها الأبدية من ساقيها اللتين لم تعودا نافعتين

لشيء، وعلى قناعة بأنها عاجزة عن ارتقاء درجات السلَّم الخمسين التي تفصلنا، حتى ذلك اليوم عندما اكتشفت في الخامسة صباحاً، موهبتها في التسلُّق وفنَّها في اقتحام الأبواب.

أسوأ ما في الأمر، أن انزعاجي من ظهورها الليلي لم يزدها إلا فضولاً وسيطرة. فبعد تلك الحادثة المشؤومة، أصبحت أي زيارة عابرة لأحد الأقارب البعيدين، ذريعة لإحضاري إلى مطبخها على الفور للمساعدة في تقديم الشاي والكعك. وغالباً ما يتم هذا الاستدعاء بواسطة الإنترفون، أمام ذهول الجيران. كنت أرى كيف يستمتعون بمتابعة تلك السيدة الصغيرة وهي تلعب دور القائدة الآمرة، مرسلة في طلب حفيدتها من شرفة منزلها، وهي تُعمل أصابعها في زر الإنترفون بعد أن ترتدي البرقع فوق البيجاما. وإمعاناً في تعزيز سلطتها الأسرية، أخذت تتفنَّن في تنظيم أوقات خروجي وفق طقس محدَّد. وعندما كنت أتغيَّب لأكثر من يوم، كانت تهبُّ مسرعة لوضع القرآن فوق رأسي وتحملني على الدوران حتى الإعياء، متمتمة ببعض الآيات التي حفظتها عن ظهر قلب.

هي التي مارست شعائر الدين كما يحلو لها، وجدت فيه وسيلة لحمايتي من عين الحسود. وكانت تلك طريقتها في الدعاء سِرَّاً لهدايتي وعودتي إلى الصراط المستقيم. إذ كنت في نظرها "على ضلال مبين": عازبة، في سنٍّ كانت هي فيه أمّاً لولدين. غير اجتماعية، لامتناعي عن تحية إحدى صديقاتها العابرات عندما كنت أتحدَّث إلى الراديو في بثٍّ مباشر. جاهزة دائماً لإقحام رأسي في كتاب عند سردها للقيل والقال في الحي... كنتُ "فرنسية" أكثر ممَّا تحتمل، غايةً في الاستقلالية والتحفُّظ والبرود. من سوء حظي أنني كنت أشعر بالضجر خلال لقاءات العشاء العائلية. وحلا لها أن تقول لي في كل مناسبة: في الغرب، يربُّونكم على أن تضعوا

حجراً مكان القلب. ثم تتبعها باللازمة الشهيرة: إذا تأخَّرت أكثر بالزواج، ستصبحين عجوزاً متجعدة ولن يرغب فيك الرجال.

أتساءل أحياناً كيف احتملتَها طوال تلك السنوات، أنتَ الذي أتقنت ببراعة فنَّ التحفُّظ. وفي ذات يوم، بينما كان خاتمي على وشك الظهور على شاشات التلفاز، جرَّبت أن أدفعها للحديث عن السياسة، أملاً في إيجاد أرضية مشتركة بيننا. ولكن عبثاً.

- «الشاه والملالي، جميعهم متشابهون! قادة فاسدون لن يسمحوا لنا بالتنفُّس». قالت.

* «نعم، ولكن يقال إن خاتمي مختلف».

- «أتظنين؟! لم يسبق لي أن أدليت بصوتي».

في الواقع، علاقتها الوحيدة بالسياسة، كانت من خلال إذاعة فرنسا الدولية الناطقة بالفارسية.

كثيراً ما كانت تستمع إلى نشرة الأخبار المسائية التي كانت تلتقطها خلسةً على الموجة المتوسِّطة، من راديو ترانزستور قديم يجلس في حضنها. كانت تلك طريقتها للخروج من عزلتها والشعور أنها أقرب إلى أبنائها الثلاثة المتفرقين بين فرنسا والولايات المتَّحدة. وفي الوقت الذي يدوي فيه الراديو بصوت مرتفع يصل إلى شقَّتي، تترك ماماني لنفسها العنان كي تحلم باليوم الذي يلتئم فيه شمل الجميع في طهران، إن شاء الله. عندها، ستتمكَّن وقتها من إزالة مشمَّع طاولة السفرة القديم، وتحرير الأرائك من غطائها البلاستيكي وتنسيق الزهور في المزهرية البيضاء الكبيرة، ونفض الغبار عن صور العائلة التي تزيِّن بوفيه غرفة الصالون.

وحده رنين الهاتف ما كانت له القدرة على انتشالها من أفكارها ووضع حدٍّ لتلك الضوضاء، إذ تكفي رنَّتان فقط لتلتقط يدها السماعة في حرص

على ألا تفوِّت أي مكالمة... بما فيها تلك التي تطلبني. وفي غيابي، كانت تعطي لنفسها الحق في أن تدقِّق في المتصلين الذين حاولوا الاتصال بي، فإن كان المتصل رجلاً، توجَّب أن تعرف ما إذا كان من عائلة جيدة، فمن يعلم! أمَّا إذا وردت مكالمة هاتفية من باريس، فهي فرصة مثالية لنفض الغبار عن فرنسيتها الصدئة. وعندما اتصلت الفنانة المسرحية پرى صابرى كي تدعوني لحضور عرضها الأخير، تمكَّنت ماماني هي أيضاً من الحصول على تذكرة لها.

في صباح أحد الأيام كادت تصاب بأزمة قلبية عندما تعرَّفت إلى صوت عبَّاس كيارستمى في الهاتف!

منذ أن اتصل هذا المخرج الإيراني العالمي ردًّاً على طلبي لإجراء مقابلة معه في الأسبوع التالي، ولم يعد على لسان الجدَّة سوى اسمه. كيارستمى!

علم الجيران جميعهم بالأمر. وأصبحت أنا، موضع تقدير الحي.

لكنني ضقت ذرعاً بسلسلة الانتهاكات تلك ولم أعد أحتمل أكثر. فإيران التي تريد ماماني فرضها عليَّ، لا تشبه في شيء إيرانك التي غرستَ حبَّها في نفسي. وكلَّما حاولتْ سجني في روتين حياتها اليومي، أصبحت رغبتي في الانعتاق أكثر إلحاحاً. ولتجنب إشعال ثورة عائلية اضطررت إلى أن أبحر وأستعيد روح السفر بأسرع ما يمكن.

بندر عباس! على خريطة قديمة وجدتها في أحد صناديقك، وضعت دائرة حمراء حول اسم هذه المدينة الساحلية متعّددة الثقافات، الواقعة في مدخل الخليج الفارسي جنوب إيران، والتي طالما جذبتني. زاد في جاذبيتها اختلافها الكبير عن طهران. وجدت في شباط/ فبراير 1999 أخيراً الذريعة المثالية للذهاب الى هناك: الانتخابات البلدية الأولى من نوعها في الجمهورية الإسلامية. عندما كانت العاصمة تقبع تحت معطف ثلجي، وهي تحاول تجاوز صدمة جرائم القتل المتسلسلة، حملت حقيبتي ملتفّةً بحجابي وأشرت إلى سيّارة أجرة في شارع پاسداران.

كان الطريق المؤدي الى مطار طهران أفضل مقدَّمة للحملة الانتخابية. فسواء على المقاعد ومحطّات الحافلات ومحطّات الوقود، لم تفلت أي مساحة من الملصقات التي تفنَّن الكثيرون في تصميمها، في رغبة واضحة لاجتياز الصعوبات ومواصلة مسيرة الإصلاحات الوعرة مهما كان الثمن. برقع أسود وحذاء قرمزي، تلك كانت صور فائزة هاشمي، ابنة الرئيس السابق رفسنجاني المنتشرة على مدِّ النظر، مرفقة بشعار يدعو للمساواة بين الجنسين.

أوقفت سيَّارة الأجرة لشراء الصحف مندهشة من حجم هذه المنافسة السياسية غير المألوفة في الجمهورية الإسلامية. على الصفحات الداخلية لصحيفة "سلام" اقتحم العديد من المرشحين المساحة التي كانت مخصَّصة عادة لإعلانات "إزالة الشعر بالليزر" و"النظام الغذائي المعجزة"،

وبفضل إمكانات "الفوتوشوب"، صوَّر بعض المرشَّحين أنفسهم إلى جانب الإصلاحي خاتمي وبعضهم الآخر إلى جانب المحافظ خامنئي. أمَّا عند تصفُّحي لجريدة "إيران"، تفاجأت بمقابلة مع مرشَّح مستقل عن مدينة مشهد المقدَّسة، جمال صنعت نگار، يسخر فيها من "المستحبَّات"، وهي أعمال صالحة يقوم بها المؤمنون الأتقياء طلباً للأجر والثواب، معدِّداً بفخر قائمة "ذنوبه الصغيرة" كحبِّه للشطائر بجميع أشكالها والسينما... وموسيقى البوب التي "تحمله إلى عوالم أخرى" كاسراً بذلك الحاجز التقليدي بين العام والخاص، ناهيك عن التفصيل الأكثر إثارة للجدل: رغبته في التقارب مع أمريكا.

كان هذا المناخ من الانفراج السياسي أمراً جيِّداً. ففي مكتب وسائل الإعلام الأجنبية، التابع لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي ذات النفوذ، صدر قرار اعتمادي الصحفي على الفور، دون الحاجة إلى تبرير سفري وحيدة بلا محرم. ولم تستدعِ خطتي للسفر بالحافلة من بندر عباس إلى بوشهر، ميناء الصيد الساحر الذي أصبح اليوم في عين الأزمة النووية، اعتراضات أي من مسؤولي الوزارة الآخرين. «حذارِ من الروبيان، فهو حرِّيف جدَّاً»، قالها مسؤول الوزارة علي رضا شهراوى مكتفياً بابتسامة، متمنياً لي رحلة طيِّبة.

هبطت في بندر عباس، وعيناي تتسعان دهشة. لا شيء في هذه المدينة الملوَّنة المكتوية بحرارة الشمس، يشبه برد العاصمة وتلوُّثها. ولدى النزول من الطائرة، كان في انتظاري على مدرَّج المطار شاب له بشرة نحاسية من أثر الشمس. كان هذا موسى، مصوِّر شاب سيكون دليلي خلال فترة إقامتي. اقترح عليَّ موسى عند إيصالي إلى الفندق مقابلته بعد ساعات للانضمام إلى سهرة مع الأصدقاء. قبلت الدعوة بسرور، غير أن سائق الفندق لم يشاركني الحماس نفسه. اتسعت عيناه من الخوف عند

قراءته العنوان مكتوباً على قصاصة ورقية، وكأنني على موعد مع زمرة من الجزارين...

- «ولكن هذا هو حي السود!». قال وهو على وشك أن يرجوني كي أعدل عن وجهتي. أدركت أنني لامست وتراً حساساً في إيران وهو موضوع التنوُّع الثقافي وما يتعلَّق به من أحكام مسبقة. السائق الذي رفض الاعتراف بأن نصف الإيرانيين فقط هم من الفرس، كان يزدري الأقلية السوداء التي تؤلف جزءاً من سكّان بندر عباس. و"لقلقه على سلامتي" أخذ على عاتقه واجب مرافقتي وانتظاري عند الباب لحمايتي "لو حصل مكروه ما".

في تلك الليلة، تبدت أمامي إيران أخرى. إيران الخليج الفارسي. التي ربَّما لم تكن إيران ماماني، أسيرة "سجنها الذهبي"، لتعلم بوجودها أبداً. انسللت بين بيوت متواضعة من اللبن قبل أن أصل إلى ضفَّة شاطئ مهجور. غمرتني رائحة السمك ثم صوت الأمواج وتقاسيم لحن. وفي ضوء دافئ ينبعث من قنديل كاز بسيط معلَّق على الحائط المطلي بالكلس، كان موسى هناك في انتظاري أمام ستارة تقوم مقام الباب. بادرني بالتحية ثم أومأ لي أن أتبعه. في الفناء الداخلي، اصطفت أرتال من الأحذية بعناية على طول الجدار.

حين خلعت حذائي، استسلمت لإيقاع الموسيقى. كانت رحلة خارج الزمن: في غرفة يُدخل إليها من الفناء، كانت هناك جوقة من الرجال والنساء المتسربلين بجلابيب بيضاء وسراويل برَّاقة وأوشحة ملوَّنة تسحر الفضاء. فوق هذا الجمع، تعبق سحابة من البخور. هؤلاء الإيرانيون "السود"، الذين يجب تجنُّبهم كما قال السائق الذي أقلَّني، هم أشخاص في منتهى الجمال والأناقة. غنَّوا ورقصوا، وقرعوا الجرار وألقوا قصائد آتية من ضفاف أخرى. وجدت نفسي وسط حفلة زار لطرد الأرواح الشرِّيرة، حدثني موسى بإيجاز عنها، وهي التي ألهمت المخرج

الإيراني ناصر تقوايى فلمه الوثائقي الشاعري رياح الجن عام 1969. في هذا التجمُّع الصغير على ضفاف الماء، تستلم امرأة تدعى "ماما زار" زمام الإيقاع. كانت ترتدي ثوباً لؤلؤيَّ اللون، مطرَّزاً بأزهار أرجوانية، مربَّعة الأكتاف، مستديرة الوجه، أشاعت الدفء في الأجواء بصوتها الحار والمضطرم، واقفة وسط الصالة، تموج ذراعيها فوق رأس طفل غُطِّي جسمه بملاءة طويلة. وفي الوقت نفسه، يقرع المشاركون العصي المصبوغة بدم شاة ضُحِّي بها خصوصاً لتلك المناسبة. «تلك هي طريقتنا للحماية من العين وطرد الحسد»، همس لي موسى واضعاً في يدي اثنتين من العصي لإشراكي في طقوس طرد الأرواح، حيث شرحوا لي أن الطفل كان يعاني من آلام في الرأس، وهو مسحور حسب اعتقادهم.

لشدَّة ما فتنني هذا المجتمع الصغير المؤلَّف من بضع مئات من الأشخاص، قرَّرت أن أشاركهم حياتهم لعدَّة أيام. يعيش هؤلاء الناس على أي شيء تقريباً. في النهار، تدخِّن النسوة الشيشة في ظلال الأشجار في أثناء ذهاب الرجال إلى الصيد في عرض البحر على متن قوارب خشبية صغيرة. أمَّا أكثرهم تدبيراً، فيغامرون بتهريب التلفزيونات من دبي، عبر مضيق هرمز. عمل محفوف بالمخاطر لكنه يُعينهم على الوفاء بمتطلَّبات أُسَرهم وسدِّ رمقها.

في عزلتهم عن بقية المدينة، كانوا على بعد سنوات ضوئية عن الجدل المستعر حول الإسلام والديمقراطية في الوسط الثقافي لطهران، يعيشون، ويسعون كلَّ يوم للبقاء على قيد الحياة، ممارسين شعائر توارثوها لأجيال عن أسلافهم الذين لا يعلمون عنهم سوى أنهم جاؤوا من إفريقيا منذ أكثر من أربعة قرون، في تمازج استثنائي بين تقاليد الخليج والطقوس الإفريقية الباطنية. ينحدرون من العبيد الذين جاء بهم التجار البرتغاليون عندما أنشأوا محطَّات تجارية في هذه المنطقة الاستراتيجية.

لم يكن موسى أسود، كان موسيقياً مغموراً يكنُّ إعجاباً عميقاً لتلك الطقوس السرِّية. ويأمل في التعريف بها. ناضل موسى لسنوات من أجل تنظيم حفلات موسيقية صغيرة في الخفاء يمزج فيها البوب والفولكور في نادي الدلفين، أحد ملتقيات الشباب النادرة في بندر عباس. هناك حيث الترفيه الوحيد المتاح هو شرب زمزم كولا، الكولا الإيرانية، ومشاهدة غروب الشمس من شاطئ شبه مهجور. كانت المفاجأة أنْ فرقته المكونة من شباب موهوبين، قد حازت للتوِّ على موافقة رسمية للعرض من وزارة الإرشاد الشهيرة. سبب وجيه لدعوة صحافية أجنبية لحضور هذا الحفل الخاص دون خوف من الانتقام، ليكون نافذة حقيقية تشهد على التنوُّع الثقافي للبلد الذي كان موسى فخوراً به.

إيران لجميع الإيرانيين، هكذا كان خاتمي يقول. هنا فقط، وفي أقصى أطراف هذا البلد، توصَّلت بالفعل إلى إدراك هذا الشعار. بعد عامين من فوزه، تحول هذا القول إلى فكرة مهيمنة، ليس فقط عند الشباب والنساء، إنما عند جميع الأقليات -إثنية أو ثقافية أو اجتماعية- تلك التي لاتزال تعيش إلى اليوم على هامش الآخرين. أتاح لي مسح سريع أجريته في القرى المحيطة أن أقيس أهمِّية الانتخابات البلدية القائمة. فبالنسبة إلى أصدقاء موسى، وللسكَّان المنسيين في محافظات بوشهر وهرمزگان، كانت صفحة المركزية على وشك أن تطوى. ففجأة حلَّ الشأن المحلي الحقيقي محلَّ المركزية المفرطة القابعة تحت غطاء الإسلام والاستبداد.

في هذا الجنوب النائي، لم يصوِّت الناخبون لصالح الإصلاح الدستوري أو ضدَّه. ولا لصالح من يعد بتخفيف الحجاب أو ضده. ما يهمُّهم، هو الاعتراف باختلافهم، توصيل المياه الجارية، تنظيم المزيد من النشاطات للشباب ومدُّ شبكات الطرق... عند انتقالي من قرية إلى قرية، شعرت الرغبة نفسها في أن يصل الصوت إلى المستوى القومي. في

بندر داير، تلك البلدة الصغيرة ذات العشرين ألف نسمة والواقعة غرب بندر عبَّاس، إلى حيث تبعت موسى وأصدقائه، أثارت الانتخابات البلدية اهتماماً غير مسبوق.

رزح الشارع الرئيس خلال الحملة تحت زينة ثقيلة من الحبال والفوانيس والأعلام الوطنية الصغيرة. ودأب خمسة وخمسون مرشَّحاً بينهم أربعِ نساء، من الصباح وحتى المساء، على توزيع منشورات، وإغراق الناخبين المحتملين بحلويات مصنوعة من الفستق وماء الورد. وبعد أن يقوموا بتحية الحشود، يصطفُّ أكثر المرشحين تنظيماً وراء طاولة بقاليةٍ تحولت إلى مركز انتخابي. كان هناك من المرشحين ما يُرضي جميع الأذواق: ابتداءً بالباسيج الملتحي، الذي يذيع شريطاً يتغنَّى بشهداء الحرب، إلى داعية الإصلاح بسترة من القطن الخفيف، يروِّج لمزايا المغازلة قبل الزواج، مروراً بالمدرِّسة ذات الثلاثين عاماً التي يساندها زوجها بفخر.

في يوم الانتخابات، قمت بجولة على مراكز الاقتراع.

تزاحم الحشود ببهجة على أبواب المدارس والمساجد التي خُصِّصت لهذه المناسبة. وعند نشر النتائج الأولى في اليوم التالي، اجتاحت الجنوب عاصفة من الزغاريد، تؤكِّد هذا العطش الجامح للتغيير: في طول البلاد وعرضها، فاز المرشَّحون المستقلون والإصلاحيون بـ80% من الأصوات. بل أكثر من ذلك، بدأت النساء ينخرطن في الحياة السياسية بشكل لا سابق له، حتى أنهن في بعض البلديات كُنَّ على رأس القائمة. تملَّكتْ موسى سعادة غامرة. حماسه كان على النقيض من الكآبة التي اجتاحت طهران منذ مسلسل القتل. بفضله هو وأصحابه، عاد إليَّ الأمل من جديد ببلدك، باباي. ولكنني لم أتصوَّر أن هذا الهدوء سيكون عابراً.

دماء... دماء في كل مكان، وهتافات غضب منفلتةٌ من البراقع. «يسقط الاستبداد!». صرخت إحدى المتظاهرات. «الحُرِّية أو الموت!». هتف طالب آخر، عاصباً جبينه بعصابة. أكاد لا أتعرَّف على وجه مدينتك.

في الرابع عشر من تموز/ يوليو 1999، غرقت مدينتك في الفوضى. أضرمت النار في الإطارات المطاطية وقلبت القمامة على الرصيف في شارع انقلاب ومنطقة الجامعة. لم تعد زهور العام الماضي سوى ذكرى مشوَّشة تخنقها سحابة كثيفة من الدخان الأسود. ووراء حاويات القمامة، تمترس المتظاهرون والمقاليع في أيديهم.

رأيتهم عندما كنت متكوِّرة على نفسي عند البوابة، يتحدَّون النظام مدفوعين بالزخم الذي يحرِّكهم.

منذ خمسة أيَّام والعاصمة تهتزُّ غضباً. أفلت الشباب لجام غضبهم في صحوة لا سابق لها منذ الثورة الإسلامية، بعد عشرين عاماً على ثورة آبائهم. وفي زاوية من الشارع، ظهر الباسيج. عرفتهم على الفور بلحاهم السوداء ودرَّاجاتهم النارية من نوع هوندا. توجَّهوا بصفوف مرصوصة يناورون بين المتاريس، ثم أخرجوا بغضب سلاسلهم وقاموا بمحاصرة المحتجين إزاء بوَّابات الحرم الجامعي. نبَّه الصوت المعدني سمع المتظاهرين، فتفرَّقوا بسرعة، ثم ما لبثوا أن عادوا أكثر عدداً بعد مضيِّ الزمرة المسعورة.

في الرابع عشر من تموز/ يوليو 1999 ذاك، وعلى مرأى مني، حدث ما لا يمكن تصوُّره. ارتفعت وسط سرب من المتظاهرين قبضة اخترقت

السماء، ثم انطلقت صرخة في وسط الفوضى. الموت لخامنئي! هل صحيح كان ما سمعت؟ بحثتُ في خضمٍّ أبخرة الغاز المسيل للدموع عن وجه ذاك الذي وقَّع للتو على حكم إعدامه بمهاجمة المرشد الأعلى، فإهانته تعتبر بمرتبة الكفر في إيران، وعقوبتها الحتمية هي الإعدام. لم يجرؤ أحد قط على هذا التحدِّي السافر. بدأ الهتاف يتردَّد بين الحشد، أكثر وضوحاً هذه المرَّة. "مرگ بر خامنئي!" الموت لخامنئي! أصبحوا أكثر من عشرة متظاهرين ممَّن يهتفون ضدَّ صاحب الشرعية الدينية والثورية الذي لا يجوز المساس به، وخلف الخميني، خامنئي بالذات...

شعارٌ واحدٌ قد حطَّم النير، إنما بأي ثمن؟ لست أعلم بعد، لكنها ليست إلا البداية لقصَّة طويلة مكتوبة بالدم. قصَّة مستبد تزعزع عرشه، ولن يتوانى عن فعل كل ما في وسعه لفرض سلطته على مجتمع لم يدعُ إلى إسقاطه، بقدر ما كان ينادي بإصلاح نظامه. قصَّة ورثة الثورة خلال عقد خطير، تنازعتهم فيه قيم الجمهورية والقيم الإسلامية في معركة لا ترحم. شعرت بوخز في عيني ودار بي رأسي. كنت أشهد وأنا مذهولة، غارقة في حشد من المتظاهرين، ومن قلب الحرم الجامعي في طهران، الفصل الأول من مسرحية عنيفة لخيال الظل، سأصبح لاحقاً من روَّادها الدائمين...

الموت لخامنئي! الموت لخامنئي! ترنَّح بلدك. وأنا كنت أترنَّح معه.

بدأ كلُّ شيء بقصَّة عادية. قبل ذلك بأسبوع، في السابع من تموز/ يوليو. طُلِب إلى صحيفة سلام الليبرالية أن تتوقَّف عن الصدور بعد اتهامها بنشر رسالة "سرِّية للغاية". أوصى فيها عنصر من المخابرات بتشديد قانون الصحافة. وفي اليوم نفسه تم التصويت على القانون في البرلمان. لم تكن تلك هي المرَّة الأولى التي يُواجِه فيها أرباب القلم أمراً مماثلاً، فخلال عام أغلق القضاء المحافظ عشرات الصحف الجديدة، بما فيها صحيفة "جميع" التي يعمل باقي، الثوري السابق، لصالحها. وكلَّما أُغلقت صحيفة، ظهرت أخرى تحمل الشعلة. غير أن في هذه المرةَّ، ضرب متشدِّدو النظام بقوَّة وهاجموا الصحيفة الأكثر قراءة من المثقَّفين، وإحدى أركان المشروع الإصلاحي لخاتمي.

بسرعة البرق، طاف القرار الجديد بإغلاق "سلام" على الجامعات. وفي مساء اليوم التالي، أُقيم اعتصام في أميرآباد، السكن الجامعي الرئيس في طهران، عاد بعده الطلَّاب بهدوء إلى غرفهم.

بعد ساعات، تم إيقاظهم بوحشية كبيرة إثر مداهمة الباسيج في الليل، مسلَّحين بقضبان حديدية. التقيتُ مهدي في اليوم التالي للهجوم بالقرب من الحرم الجامعي، وهو طالب في التاسعة عشر من العمر. روى لي الكثير من تفاصيل ما شاهد وسمع... أنه وفي تلك الليلة، كان نائماً بعمق عندما حطَّم أعوان النظام قفل غرفته دون سابق إنذار، وقلبوا الأدراج ومزَّقوا ملصقات خاتمي، محطِّمين نافذة تطلُّ على الفناء. ثمَّ انقضوا

على مهدي انقضاض طير جارح على فريسته، وكالوا له اللكمات حتى سقط مدمىً مغشياً عليه. ولمَّا استعاد وعيه كان المعتدون قد هربوا. زحف مهدي بجسمه المغطَّى بالكدمات حتى الممر ليستطلع حجم الأضرار، على الأرض تناثرت أحشاء الفُرُش وانهارت أجزاء من جدران وتبعثر حطام لكراسٍ.

نجا مهدي بأعجوبة. قال لي بصوت مرتجف إن على بعد بضعة أمتار من غرفته، رُمي أحد الطلاب من الشبَّاك، ثم سارع الباسيج للملمة الجثَّة المحطَّمة- ولم يعرف أصدقاؤه ما آل إليه مصيرها.

لا شكَّ في أن حادثة المهجع أضرمت النار في الهشيم.

وحتى لا يتكرَّر مثل هذا العمل البربري، اجتاح آلاف من الطلَّاب أمثال مهدي شوارع طهران في حركة عفوية غير سياسية، مدفوعين بإحساسهم بالظلم والاستنكار لنظام لطالما استمرأ اللجوء للعنف والقمع.

اقتصرت المظاهرات في البداية على طهران، ثمَّ امتدَّت إلى مدن عدَّة كشيراز وتبريز وأصفهان ومشهد.

في كل يوم، كان هناك متظاهرون جدد، يزيدون الاحتقان في صفوف الثورة، كبالون مملوء بغاز الهيليوم، جاهز للانفجار.

في الليل، دوى صوت سيَّارات الإسعاف في المدينة على إثر الاشتباكات بين المتظاهرين وميليشيا النظام. للمرَّة الأولى منذ قيام الجمهورية الإسلامية، احتدمت المشاعر في الفضاء العام وكسر الحاجز بين البيرون والأندرون -الخاص والعام. في الرابع عشر من حزيران/ يونيو احتشد أكثر من عشرة آلاف من المتظاهرين بين ساحة "ولي عصر" والحرم الجامعي. وعند هتاف: الموت لخامنئي، ازداد إطلاق النار. «اختبئوا! لقد جاءوا»، بسرعة صرخ أحد الطلَّاب. وفي أقل من ثانية،

ظهرت مجموعة من ميليشيا الباسيج من خلال سحابة من الدخان الأسود. واختفى المتظاهرون.

أشارت إليَّ طالبتان متحصِّنتان أمام ستارة معدنية لصيدلية بأن أنضمَّ إليهما للاختباء، عبرت الشارع بأقصى سرعة وأنا أتفادى حطام الزجاج. على الحائط المجاور للمتجر، خط أحدهم كلمة "Freedom" مكتوبة بلون الدم. دم أحد الجرحى ربَّما... أو أحد القتلى.

- «دلفين! دلفين!».

التفت لسماعي اسمي، فتعرَّفت على سپيده، الطالبة الشابَّة التي التقيتها في مقهى "شوكة". كانت تختنق، تتصبَّب عرقاً وأخذت تصيح: «لقد قتلوا طلاباً... قتلوا طلاباً».

كانت عيناها محتقنتين بالدموع، وفمها متشنجاً من الذعر. جررتها إلى الحارة المجاورة حيث وجدنا مخبأً تحت شرفة مبنى.

- «لماذا؟ لماذا؟». ردَّدت مراراً وانخرطت في البكاء.

كانت سپيده في حالة من الضياع، عاجزة عن قبول ردٍّ فعل وحشي كهذا بعد أن وضعت كل آمالها في الإصلاحات. شعرتُ بالعجز. لم أجد الكلمات لمواساتها. ليست تلك معركتي. «لن تستطيعي أن تفهمي»، هكذا قالت لي بنزق في الماضي. بشكل عفوي، أخذتها بين ذراعي. مكثنا ملتصقتين، ننتظر توقُّف إطلاق النار لالتقاط أنفاسنا. اقترب منا بعض الطلَّاب، وأشاروا لنا بأن الباسيج قد اتجهوا إلى شارع آخر. وقد حان الوقت للمغادرة قبل عودتهم. نظرت إلى سپيده. قبل أن أودِّعها، وسألتها على نحو ساذج: «هل تعتقدين أننا ذاهبون إلى ثورة جديدة؟».

* «كلا، بالتأكيد لا!». أجابت على الفور. «لا مجال لتكرار الأخطاء نفسها التي ارتكبها آباؤنا... انظري إلى هذا البلد، لقد تراجع قرناً في أقل من عقدين!

في ذلك الوقت، أعمت طوباوية الثورة بصيرة آبائنا الذين كانوا يصعدون إلى الأسطح عند هبوط الليل لرؤية وجه الخميني في القمر كما كانوا يزعمون! أمَّا نحن، فأكثر واقعية. لا يمكن لله أن يفعل لنا شيئاً ما لم نمسك نحن بزمام مصيرنا».

- «وكيف ذلك؟».

* «لست أدري... لست أدري. ما يهمُّ الآن هو ألا ننجرَّ إلى العنف. ربَّما كنت على خطأ، ولكنني ما زلت أريد أن أؤمن بالإصلاحات».

في ذاك المساء، عدت إلى البيت سيراً على الأقدام. وعند مروري بشارع ولي عصر، وهو شارع طويل محفوف بالأشجار يتقاطع عمودياً مع شارع انقلاب، كدت ألا أتعرف عليه. على الرصيف، تحوَّلت واجهة مصرف إلى شظايا، اشتعل موقف باص وعلى مسافة منه بعثرت لوحة "ممنوع المرور" أسفلت الطريق، كانت الكلاب تعوي كذئاب خلف حطام السيَّارات. أين ذهبت أزهار الربيع الإيراني الحمراء؟ أية هاوية تلك التي سقط فيها بلدك؟ للمرَّة الأولى، أخذت أشك في حماسي. ربَّما كان أبي على حق: وماذا لو كانت إيران التي جئت أبحث عنها مجرَّد وهم؟ كيف أمكنني أن أكون على هذا القدر من السذاجة؟ كيف استطعت أن أتغنَّى بمديح بلد ما زال في خضمِّ التغيير، كما لو كنا نعيش عهداً جديداً لا رجعة فيه؟

لقد سمحت لنفسي بأن أنجرف بالتيَّار، أن أنخدع بسحر أغطية الرأس الملونة التي بحجم منديل، بطفرة مقاهي الإنترنت، بجنون حلبات التزلُّج حيث يختال الشباب المترف في غفلة عن عين حرس الأخلاق التابع للنظام. وفي كل نهاية أسبوع، أصبح الخوف من مداهمة الشرطة يضفي نكهة على سهراتي بدلاً من أن يعكِّرها. لشدَّة ما كنت مفتونة بفن الالتفاف الفارسي ومفعمة بالتفاؤل الأعمى، لقد أُخذت على حين غرَّة.

بأرجل متعبة، عبرت ميدان سيد خندان. عندها شعرت بالصمت الذي يلفُّ شمال طهران. هناك حيث للحقيقة وجه آخر. يعيش الناس هنا بعيداً عن نبض المدينة. خلف أبواب الفلل الفخمة حيث تتابع البرجوازية المتماهية مع الغرب بشغف مشاهد بريتني سبيرز على محطّة الـMTV، وتعبق العاصمة برائحة الشانيل والفودكا.

عندما دفعت باب المنزل، انتزعني صوت جدَّتي من أفكاري.

- «اتصل بك أحدهم!».

كدت أنساها في خضم هاجس أعمال الشغب الطلّابية. توجهت إلى الحَّمامْ وعيناي ما تزالان محمرَّتين بتأثير الغاز المسيل للدموع. التصقت بي ماماني مستاءة من عدم استحواذها على اهتمامي.

- «اتصل بك أحدهم!». كرَّرت.

فتحت ماء الصنبور كي أبرِّد وجهي. ولأنني كنت معتادة على جعجعة طاحون كلماتها، لم أُعرْ ملاحظتها انتباهاً. وددت لو أنها تهتمُّ ببلدها أكثر من اهتمامها بي، أن تفتح عينيها وتنظر أبعد من حارة بيتها، شارعها... وحياتها.

كانت ماماني منكفئة في فقاعتها الآمنة الأكثر إحكاماً من باب مصفَّح، ولم يخطر لها أن مدينتها تغلي على صفيح ساخن. فتابعت حديثها برباطة جأش:

- «علاوة على أنه لم يكن مهذَّباً، لم يترك لي رقمه ولا اسمه».

عندما رفعت رأسي قبالة المرآة، اجتاحت لفافات شعرها مجال رؤيتي. تجهَّم وجهها لمجرَّد أن أحدهم لم يتكرَّم بالرد على جميع أسئلتها، بينما على بعد أمتار، كانت المدينة تتخبَّط في حال من الفوضى.

* «لا تكترثي! إن كان لأمرٍ مهم، فسيعاود الاتصال!». أجبتها بحنق.

ثم جمعت أغراضي وذهبت إلى الطابق الثاني. كنت في حاجة إلى التقاط أنفاسي بعد العاصفة، ولم يكن لديَّ من الصبر ما يكفي لسماع نحيبها. أمَّا المتصل المجهول الذي لم يفصح عن هويته، فكان آخر ماكنت قد أهتم له. إلى أن، وبعد عدة أيَّام، عاود المجهول الاتصال. وكنت أنا هذه المرَّة مَن ردَّ عليه.

كانا اثنين. رجلان لهما ملامح مجهدة وشعر بُنّي وأكتاف مربَّعة. ألصقا ظهريهما بكرسيَّيْهما لدرجة أنهما لم يتزحزحا عنهما عندما وصلت، بل ظلَّا يحدِّقان في وجهي. خفضت رأسي، أعدت تعديل وشاحي بحركة آلية. مرَّرت كفَّ يدي على صدري بالتحية. لم يجيبا. تكلَّمت عيونهما نيابة عنهما. بطريقة استجوابية، قاما برصد حركاتي بدقَّة. كانت جدران المكتب بيضاء لا يشوبها كدر، ناصعة لدرجة أنها قد تفاجئ صدى الصمت. من السقف، تدلَّى نيون ممل، وفي أعلى النافذة الوحيدة تدلَّت ستارة سميكة مشبعة برائحة الأماكن سيِّئة التهوية. في الخارج، يحرس الباب مجنَّد شاب ببزَّة عسكرية. كل ما هنالك يوحي بأننا في محكمة.

- «اجلسي»، أمرني أطولهما بالجلوس.

تعرَّفت في نبرة صوته على الشخص المجهول عبر الهاتف. كان هو إذاً، الرجل الذي رفض أن يعطي رقمه لماماني، المتصل الغريب الذي أصرَّ على رؤيتي. كنت أتخيَّله أقصر، أو ربَّما أكثر بدانة. في منتصف المكتب الخشبي الكبير الذي يفصلنا تربَّع ملف سميك، تعرَّفت إلى اسمي مكتوباً عليه بأحرف لاتينية. ماذا يريد مني؟ لم يحدِّد على الهاتف سبب استدعائي. اكتفى فقط بإعطائي هذا العنوان: مكتب الأجانب، جادة فيلا، وسط طهران. ولم أسأله المزيد لاعتقادي أنها مجرَّد معاملات إدارية. ولم أُصبْ في ذلك. في هذه الحجرة الضيِّقة التي لا يدخلها ضوء النهار، شعرت وكأنني فأرة محتجزة في مصيدة.

- «اسمك؟». توجَّه إليَّ بالكلام.

* «اسمي؟».

- «أجل، اسمك».

* «نعم، ولكنكم تعرفونه». أجبت وأنا أُشير إلى الملف السميك.

- «قولي ما اسمك».

بقيت صامتة، لم أكن أعلم ما الذي يرمي الوصول إليه.

رفع صوته بجرأة: «اسمك، إنها الإجراءات».

* «أية إجراءات؟».

- «نحن هنا من يطرح الأسئلة، لا أنت! قولي ما هو اسمك!».

احتدت نبرة صوته. كان يتحدَّث إنجليزية مشوبة بلكنة فارسية قوية. ظهري كان مشدوداً إلى مقعدي ولم أعرف ماذا أقول.

- «ماذا يا خانم مينوي، هل فقدتِ لسانك؟». قال متهكماً وهو يفتح ملفي. لم أقل شيئاً. بأي حقٍّ يتحدث إليَّ بتلك الطريقة؟

انحدر نظري إلى يديه اللتين تتصفَّحان الوثائق. استرعى انتباهي على الفور تفصيل وحيد: كانت يده اليسرى ذاوية ينقصها إصبعين. هل فقدهما في الحرب؟ أم في عراك بالأيدي؟ جعله هذا التفصيل الغريب أكثر تهديداً. ثم أردف: «ما رأيك بخاتمي؟».

* «خاتمي؟» أجبت دون أن أستطيع رفع عيني عن يده.

- «نعم، كما سمعت. خاتمي!».

ما علاقة الرئيس الجديد بهذا الحوار؟ أجبته مصدومة:

* «يبدو أن الشباب يحبُّونه».

- «وأنت؟».

* «أنا؟ ممم، صراحة لا رأي لي في هذا الموضوع».

- «والمرشد الأعلى؟ ما رأيهم به؟»

* «ممم...».

- «ومع ذلك كنت في المظاهرات، لقد رأيت أموراً ونقلتها للراديو».

لم أعلم بماذا أجيب، أثار الرجل ذو الأصابع الناقصة حنقي بأسئلته. وإلى جانبه كان مساعده صامتاً لا ينبس بكلمة. سبرتُ عيني هذا الأخير، علِّي أجد بارقة من طمأنينة، أو تفسيراً لسبب استدعائي. ابتسم لي ابتسامة محايدة باردة. بقيت صامتة.

- «قرَّرت إذاً أن تبقي صامتة؟ مع أنك تثرثرين جيِّداً في تقاريرك!». استأنف محدثي بلهجة تهكمية.

أدركت من خلال كلماته ما يحصل. لم تكن للرجلين الجالسين قبالتي أية علاقة بمكتب الأجانب، ولم يكونا هنا للتأكد من صلاحية جوازي أو سريان إقامتي في إيران. كانا يجريان تحقيقاً معي. كان الرجلان عنصرين تابعين للمخابرات! الجهاز نفسه الذي قام قبل عام باجتثاث رؤوس المفكِّرين والمثقَّفين الليبراليين. سرت قشعريرة في جسدي. لطالما حدَّثني زملائي الإيرانيون عن رجال الظل هؤلاء، واعتادوا على استدعاءاتهم كلَّ مرَّة كانوا يتجاوزون فيها الخط الأحمر.

ولكن لمَ أنا، أنا التي كنت حديثة العهد بهذا البلد وبالكاد حططت فيه رحالي؟ كيف انتهى بي المطاف لأصبح على قائمتهم؟

استأنف أسئلته التي انهالت جافَّة وقاطعة، هل كان الشباب محقِّين في تظاهرهم؟ لمَ ترك والدي إيران؟ هل أشعر أنني مسلمة أم مسيحية؟ من هم أصدقائي؟ مترجمتي؟ النشطاء الذين كنت على صلة بهم؟ وعند كل إجابة مواربة، يشتدُّ الاستجواب وتزداد الأسئلة دقَّة وحِدَّة. هل أملك

جوازاً فرنسياً أم إيرانياً؟ ما هي دراستي؟ ما الذي جاء بي إلى إيران؟ أجبت دون تردُّد على السؤال الأخير:

* «شأن عائلي. رغبت في أن أستعيد صلتي ببلد جدِّي». خمَّنت أنه سبب نبيل وربَّما يستعطفهما. إنما لم تكن تلك الاعتبارات الشخصية ممَّا يعنيهما في شيء. نظر في عيني مباشرة بشيء من اللامبالاة قبل أن ينهال عليَّ بوابل من "النصائح": عليَّ ألا أصدِّق ما يقوله لي الشباب الإيراني، فهم يبالغون عندما يعبِّرون عن خيبتهم من النظام. وبخلاف الظاهر، فإن الشعب "يعتز" بجمهوريته الإسلامية، ففي كل عام يزداد عدد الإيرانيين المحتفلين بذكرى الثورة.

- «أليس كذلك خانم مينوي؟ لقد سبق أن حضرتها، وتستطيعين أن تقيمي الوضع على حقيقته».

نعم، كنت هناك، لكنني لم أرَ الأمر نفسه. في الوقت الذي كانت فيه الثيوقراطية الإيرانية تحيي ذكراها العشرين بمسيرات منظمة، رأيت بأم عيني كيف كان الجمهور يظهر اهتماماً ببسطات الجوارب وحمَّالات الصدر التي يعرضها الباعة المتجوِّلون في الطريق أكثر من اهتمامهم بالإنصات إلى خطب أبواق النظام. أمَّا الشباب، فكان غيابهم واضحاً، فضَّلوا حضور حفلات مهرجان موسيقى البوب الأوَّل الذي أقيم بدعم من أصدقاء خاتمي الإصلاحيين على الاحتفال بالذكرى السنوية. بل أني تساءلت كيف قد تكون ردَّة فعل صاحب اليد المشوهة عند رؤية خشايار اعتمادي، نجم النجوم، في سترة جلدية ونظارت شمسية، وهو يلهب المسرح المصنوع من الكرتون الخشبي، ممسكاً بالغيتار الذي يسنده على جينزه والمعجبات يتهافتن عليه...

- «ربما كنت مشغولة للغاية بتقاريرك حول الموسيقى الشيطانية؟».

وكأنما قرأ أفكاري! إذاً، كان الرجل يعلم بكل شيء. أوقات خروجي، مواعيدي، مقابلاتي. ولا تفوته أصغر تفاصيل حياتي. قرأ تقاريري وسمعها، ويعرف عن إدماني للسينما الإيرانية. كما كان على علم أيضاً بمشاحناتي مع الجَّدة. ومن لائحة بسَطها على الطاولة، بدأ يقرأ بصوت عال أسماء معارفي الجدد وصديقاتي المقرَّبات. من أين له كل تلك المعلومات؟ هل كان هاتفي مراقباً؟ هل كانت تحرُّكاتي مرصودة؟ من أخبره عني؟ أهو مسعود ده نمكى. أحد قيادات حزب الله الإيراني، ميليشيا النظام، الذي يشتبه الطلاب في أنه من قاد حملة القمع في السكن الطلَّابي؟

خلال أعمال الشغب، وافق ده نمكى، وهو أحد المحاربين القدماء خلال النزاع العراقي-الإيراني، على مقابلتي، بالرغم من كراهيته للصحافة الغربية. وفي مكتبه المملوء بأكياس الرمل وصناديق قذائف الهاون التي نسَّقها على شكل ديكورات حربية كمن يزرع حديقة، قضى الوقت مباهياً بفضائل "الثورة الإسلامية" التي كانت بنظره تتعرَّض للخطر، ومن الواجب إنقاذها. كان خاتمي بالنسبة إليه يبيع الإرث المقدَّس للإمام، ويبدق الشيطان الأكبر. حلَّ العدوُّ الداخلي اليوم محلَّ العدوِّ الخارجي. لذا، كان من الضروري العودة إلى الصراط المستقيم، الإجهاز على المتظاهرين وإيقاف التمرُّد قبل فوات الأوان. كانت الرسالة واضحة، وخرجت مضطربة من المقابلة.

في تلك الأثناء استمرَّ صاحب الأصابع الناقصة في استعراض قائمة معارفي إلى أن ركَّز على اسم بعينه.

- «نيلوفر». قال وهو يلفظ كل مقطع بوضوح.

نيلوفر! تردَّد صدى اسمها مشتَّتاً على الجدار الأبيض.

- «وصديقتك نيلوفر، كيف تعرفت عليها؟». سألني.

قطبت حاجبي. أخذت لعبة الأحاجي تلك تتجاوز حدود المقبول.

- «تعرفين جيِّداً من أقصد...».

بالطبع كنت أعرف عمَّن يتكلَّم. ولكن ماذا يزيد؟ ولِمَ هي بالذات؟ أبسبب نبتة القنب المزروعة على شرفة منزلها؟ أم أنه نمط حياتها الجريء؟ ربَّما بسبب معجبيها الكثر الذين يرتادون سهراتها السرية؟

لا، كانت الحياة الخاصة لعرَّابة الشبيبة آخر ما قد يهمُّه. ما عناه في الواقع هو اتجاهاتها السياسية، دورها في الاحتجاجات، صلاتها مع الخارج... في الواقع، لم أعرف عن نيلوفر سوى القليل. كانت متحفِّظة في ما يخصُّ شخصها، ودائماً ما أعطت الأولوية للآخرين. وحتى لو كنت أحفظ سيرتها الذاتية عن ظهر قلب، لم أكن لأعطي نفسي الحقَّ في نشرها.

أصرَّ. قاومت. أصرَّ مرَّة أخرى. تلعثمت ببضع كلمات. أصرَّ مجدَّداً. لذت بصمتي متشبِّثة به. زادت نبرته حدَّة. جاهدت للحفاظ على هدوئي. بدأ القلق يجتاحني ولم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير في الوسائل الدنيئة للمخابرات: الاختفاء الغامض، التعذيب، القتل الممنهج. هل كنت أنا أيضاً عرضةً لأن أنتهي في قاع حفرة؟

فجأة ساد الصمت. توقَّفا فجأة عن أسئلتهما، أسلوب آخر من المخابرات المعهودة في الترهيب. كان الصمت صنفاً آخر من أصناف التعذيب النفسي. ألقيت نظرة على ساعتي. انقضت ساعتان منذ وصولي. لم يكن المحقق الثاني قد نطق بكلمة بعد. وهنا، بادر بالقول.

- «لا تقلقي عزيزمء، لن نأكلك. أنت كأخت لنا. أوَّلاً وأخيراً، أنت إيرانية، وشيعية. ومعنا أنت بين أهلك...». قال متهكِّماً، ثمَّ أردف باللهجة المتحبِّبة نفسها.

- «بسته، ديگه، يكفي لليوم... الآن حان دورك، في حال رغبت في أن توجهي إلينا سؤالاً».

* «من... من حضراتكم؟» سألت بسذاجة، والذهول ما زال يعتريني من سيل الأسئلة.

- «آه، إنه سِرٌّ أمني» قال رئيس المحقِّقين وهو يشير إلى الباب بسبَّابة يده الضامرة.

الباب! انتهت هذه المحنة أخيراً. دلفت عبر الباب قبل أن يغيِّر رأيه، متجنِّبة النظر إلى تلك اليد التي أثارت حنقي.

عند خروجي من التحقيق، شعرت على الفور أنني أفتقدك. أحسست باليتم، بالضياع بسبب ذلك الكم الهائل من الأسئلة الاستجوابية. في تلك اللحظة، أردت أن أكلِّمك، أن أرتمي بين ذراعيك. في الخارج، كانت جادة فيلا تغرق في الضوء. أغلقت عيني نصف إغماضة لكي تتأقلما من جديد مع ضوء النهار. على غير هدي، سلكت طريقاً عبر الزحام. شدَّني أحدهم من كمِّي، التفتُّ مذعورة. وإذ بصبي يداه مسودتان من السخام، وجهه ملائكي وعلى كتفه جثم عصفور كناري. كان يحمل في يده مغلَّفات صغيرة تحوي عبارات للحظ من قصائد حافظ. يا له من أمر مذهل! في إيران، كان حافظ في كل مكان، حتى في وسط الزحام. حاضراً إلى درجة امتلاك الموهبة الفريدة لاجتراح قوس قزح في أكثر الأوقات حلكة. فتَّشت في جيوبي ومنحت ورقة نقدية صغيرة للمتسوِّل الصغير. ثم اخترت مغلفاً وفتحته، غير أنني كنت عاجزة عن قراءة أبيات القصيدة.

لشدة سعيي وراء الأخبار، لم أجد الوقت لتحسين مستواي في اللغة الفارسية، وأن أتجاوز الكلمات القليلة التي لقَّنتَي إيَّاها على فراش مشفاك. ولكثرة ما كنت غارقة في تقاريري، قمت بالاعتماد على مترجم لإجراء المقابلات والمقالات التي حُرِّرت على عجل في حمَّامات الحرم الجامعي، والبث المباشر للراديو. قفزت كالزنبرك من مظاهرة إلى أخرى، دون أن آخذ وقتي لاستيعاب المعلومات التي تدفَّقت بسرعة متزايدة. كم عدد الطلاب الذين اختفوا؟ العشرات، المئات، الآلاف؟ ونتيجة إذعاني لما يمليه الإيقاع السريع للأحداث، لم أعرف أسماءهم، أعمارهم، لون

شعرهم. موت بلا اسم هو موت لا ضجيج له. لم أكن مرتاحة للإصرار التي تحدَّث به المحقِّقون عن صديقتي نيلوفر. أين هي الآن في تلك الفوضى؟ لم نتحادث منذ اغتيال فروهر. كان عليَّ أن أجدها، أن أكشف لها هذا الأمر. عندما أصبحت في المنزل، حاولت الاتصال بها هاتفياً، دون جدوى. رفضت أن أتوقَّع الأسوأ. تشبَّثت برؤيا تصوَّرتها فيها في نيس، تحتسي النعناع الطازج على شاطئ البحر. المدينة التي درست فيها وتقدَّمت بأطروحتها عن التمييز بين الجنسين في إيران عام 1992. حدَّثْتني نفسي أنها لربَّما قرَّرت العودة إلى هناك لقضاء عطلة الصيف.

كانت القرارات المرتجلة تليق بها. ولكنني لم أدرِ لِمَ كان هناك شيء على غير ما يرام في سيناريو النعناع هذا.

قفزت في صباح أحد الأيَّام إلى سيَّارة أجرة متوجِّهةً نحو الجبال الواقعة شمال طهران. وبعد تجاوز القصر القديم للشاه، أشرت إلى السائق بأن يدخل إلى الحارة التي تؤدِّي إلى منزل نيلوفر في أحد الأزقَّة المتعرجة النادرة، حيث نجت المباني التقليدية ذات الطابقين من جنون العقارات في حي نياوران.

كنت أحفظ الطريق عن ظهر قلب لكثرة ما اجتزته في الليل كما في النهار. كان هناك صبية يلعبون الكرة أمام مدخل البناء الأبيض. وسرعان ما خنق صمت رصاصي تسرَّب فجأة من درابزين السور السميك، تلك الإشارة الضعيفة للحياة. في دفقة أمل أخيرة، ضغطت زر الإنترفون. مرة، مرتين وثلاث مَّرات... لا إجابة. رفعت رأسي باتجاه نافذتها. ستائر الطابق الثاني كانت مسدلة، وأصص الجيرانيوم على الشرفة فارغة. جفَّت أوراق نبتة القنب. شعرت فجأة بوحدة هائلة. على الأرجح دفعت نيلوفر، كما فروهر، ثمن تلك الحرب الطاحنة التي أنشب فيها الإصلاحيون والمحافظون سكاكينهم بعضهم في بعض. لقد اختفت. دون أن تترك أثراً.

بعد بضعة أيام، وُئِد حراك السكن الجامعي في مهده. بلغت الحصيلة الرسمية للضحايا ثلاثة قتلى وثلاثة جرحى وألف وخمسمئة معتقل. أمَّا الأرقام غير الرسمية، فكانت مقلقة. سقط على الأقل خمسة قتلى، وأُصيب المئات، ناهيك عن آلاف المجهولين أمثال نيلوفر ممَّن اختفوا في صمت تام، دون أي خبر عنهم. وعند مطلع العام الدراسي أخذ المشهد يصبح أكثر قتامة. حُكم على أربعة من المتظاهرين بالإعدام بتهمة انتمائهم للـ"محاربين"، أعداء الله. منهم أحمد باطبي، شاب بشعر طويل نسبياً، كانت "جريمته" أنه ظهر على غلاف مجلَّة التايمز حاملاً بيديه قميصاً مخضَّباً بالدماء. وبذلك كان هؤلاء المتظاهرون من أوائل الرموز الثورية الإيرانية في الحراك. أُفرج عنهم أخيراً بعد سنوات طويلة وشاقَّة في المعتقل...

كانت الاحتجاجات بعيدة عن أن تضمَّ جميع الطلاب، بضعة آلاف من المتمرِّدين مقابل مليون مسجِّل في الجامعة. ومع ذلك فإنها ستغيِّر وجه الحرم الجامعي إلى الأبد. كنتيجة للحراك، نجح المحتجُّون في جعل قائد الشرطة يستقيل. واستقال وزير التعليم العالي مصطفى معين تضامناً مع الحركة. وفي الأشهر التالية، على الرغم من الرقابة المشدَّدة، أصبحت الجامعات بؤرة للمطالب الجديدة، وقدم كل قرارٍ صادرٍ عن المحكمة، ذريعة لاعتصام جديد. وُجِّهت الدعوات إلى حضور المنتديات في قاعات المحاضرات. وفي الكافتيريا، وُزِّعت منشورات تحت الطاولات. أطلق الطلَّاب صحيفة خاصَّة بهم على ورق رخيص، بعد حرمانهم من صحفهم المفضَّلة، وتأسَّست وكالة أنباء طلابية بشكل كامل (ISNA) وكالة أنباء الطلبة الإيرانية، واتَّخذت مقراً لها على بعد خطوتين من جامعة طهران، وراء شارع انقلاب. بين المحاضرات، كان الشباب يكتبون للتنفيس عن غضبهم. وبعد بضعة أشهر، في شباط/ فبراير من عام 2000، تمكَّن أخيراً

أعضاء من "دفتر تحكيم وحدت"، رابطة الطلاب الرئيسة، من دخول الحياة السياسية بشكل كامل عن طريق التمثيل البرلماني، حيث فازوا بسهولة في الانتخابات إلى جانب الإصلاحيين في 28 شباط/ فبراير، فكانت هزيمة لم يستطع المحافظون تقبُّلها. فبعد مجيء خاتمي في الانتخابات الرئاسية عام 1997، والانتخابات البلدية عام 1999 التي فاز أنصاره بمعظمها، أفلت اليوم منهم البرلمان أيضاً، وسيكون انتقامهم هائلاً بلا رحمة.

بعد أسبوعين، نجا سعيد حجاريان، أحد مستشاري الرئيس المقرَّبين ومنظِّري التيَّار الإصلاحي، من الموت بأعجوبة. فبعد أن أُصيب برصاصتين في وسط الشارع أطلقهما معتدٍ على درَّاجة نارية، دخل في غيبوبة طويلة. استيقظ في أعقابها وقد أصيب بشلل نصفي. وفي أوائل نيسان/ أبريل الماضي، أثارت مشاركة نحو عشرين من الصحافيين والمثقَّفين البارزين في مؤتمر ألماني بعنوان "إيران ما بعد الانتخابات" غضب متشدِّدي النظام. فما إن عادوا من المؤتمر المذكور، حتى استقبلتهم أحكام القضاء المحافظ، وقضى أقلُّهم حظّاً سنوات طوالاً في السجن بعد محاكمة صورية هدفت إلى إسكات الأصوات الليبرالية.

في الأيام التي تلت، علمت أيضاً بخبر إلقاء القبض على باقي، الصحافي من صحيفة "جميع"، بسبب مقالاته التي أشارت إلى بعض أزلام النظام الضالعين في مسلسل القتل خريف عام 1998. والواقع أن المتطرِّفين سعوا وراءه على وجه الخصوص. فبالنسبة إليهم، لم يكن منشقّاً خطيراً فحسب، بل خائناً يستوجب القتل، لأنه وجَّه إليهم إهانة بنبذه للأيديولوجية الدينية التي استقاها، كالكثيرين، من مدينة قُم المقدسة، "مهد" الثورة، حيث عصفت نسائم التغيير بالعمائم أيضاً.

قُم... المدينة الملعونة. قُم، عاصمة الحداد والدموع...

قُم... كلمة تلوكها في مقطع واحد، كتعويذة مريبة. تتقاطع شوارعها المملَّة ذات اللون الواحد بزوايا قائمة، وتُضفي عليها أزقَّتها الضيِّقة والمترَّبة طابعاً من القرون الوسطى.

كانت أبنيتها ذات السقف المسطَّح مهملة سيِّئة الصيانة. وما من شيء يرشح من خلف أبواب المدارس الدينية الموصدة، فواجهاتها السميكة تكتم أدنى صوت... وأدنى همس. حتى سكَّان هذه المدينة الكتيمة اتَّسموا بالانغلاق. لم تكن الجدران من حجر فقط وإنما من قماش. أسوار من العمائم والجلابيب وأوشحة الحجاب والبراقع. عند عطفة مسجد، كأنما من العدم، تظهر نسوة يتَّشحن بالسواد، كأنصاف أشباح أو ظلال. دون أية ملامح لجسد بشري، دون أكتاف، دون أذرع دون أرجل، دون صدر ودون مؤخَّرة. كما لو أنهن يحملن الموت المبكِّر في كيانهن. كانت براقعهنَّ أشبه بتابوت، وأجسادهن نير لا شكل له ولا جنس، يجررنه عبر متاهة من الأزقَّة... مدينة قُم... لم يسبق أن أوحت لي مدينة بهذا القدر من النفور.

في ذلك الصباح من نيسان/ أبريل عام 2000، سرتُ منذ مطلع الفجر بمحاذاة الجدران المتداعية للمدينة المقدَّسة، كانسة ببرقعي غبار الأرصفة القروسطية، متلمِّسة طريقي في تلك المتاهة من المساجد، إلى حيث جئت أستطلع آراء علماء الدين في الأزمة السياسية. اصطدمت لدى وصولي بجدار آخر: آية الله مصباح يزدى، "بعبع" الطلبة الإيرانيين

المخيف، الذي سيتسبَّب بعد بضع سنوات بسجن رسَّام كاريكاتير زميل، صوَّره في شكل تمساح.

ما كان يهمُّني في ذلك اليوم بالذات هو الدور الذي لعبه في قمع المظاهرات، وتكميم أفواه الطلاب، واغتيال المثقَّفين. إذ قيل إنه تبنَّى خيار العنف "لمعاقبة" أولئك الذين "لا يحترمون الإسلام". كان معلِّم الغلاة من المحافظين ومرشدهم. رغبت دون شك في مقابلته، لكن المقابلة أُلغيت في اللحظة الأخيرة، وبالرغم من الجهود الحثيثة لسكرتيرته، رفض مصباح يزدى مقابلتي. لم يكن يحبُّ الصحافة، ناهيك عن الإعلام الغربي. طفقت أجول من حيٍّ إلى حي، مضطرَّة إلى أن أهيم على وجهي بانتظار الموعد التالي. وعند عطفة مدرسة دينية، سلكت زقاقاً يعجُّ بالمارة. كانت هناك دائماً الظلال نفسها: النسوة المحجَّبات، الملالي المعمَّمون. الأبواب الموصدة نفسها. الوجوه نفسها، لون الحزن...

قُم، قبر محكم الإغلاق.

في تلك المتاهة كبيرة، تحصَّنت بما قاله لي الصحافي باقي قبل سجنه. «لا تخدعنَّكِ المظاهر».

كان باقي أول من شجَّعني على الذهاب إلى هناك، قائلاً إن قُم غدت المعقل الرئيس للشقاق بين ثيوقراطية أنجبتها هذه المدينة. وقال أيضاً إن على المرء أن يأخذ وقته من أجل أن يدلف وراء تلك الواجهات كاشفاً غموضها. لأن الصراع الحقيقي بين الإصلاحيين وخصومهم المحافظين يدور هناك، في ظلال المآذن، حيث يلوذ البعض بالتسامح، بينما يلوِّح البعض الآخر بسيف الظلامية. حرب تدور حول الدين، أو بالأحرى، حول تفسير الدين.

"إسلام" ضدَّ "إسلام". لسخرية القدر، إن أفضل من يمكنه من

رجال الدين أن يحدِّثني عن هذا الوضع، يقبع هو الآخر تحت الإقامة الجبرية، مسجوناً في منزله، ممنوعاً من استقبال الزيارات ومعزولاً عن العالم الخارجي. كان اسمه علي منتظري. يتمتَّع رجل الدين هذا باللقب المرموق "مرجع تقليد"، وهي أعلى رتبة في التسلسل الهرمي لدى أئمة الشيعة. ولاستحالة مقابلته، حصلت من ابنه أحمد، وهو قريب لباقي، على امتياز سِرِّي لإجراء مقابلة معه في مكتبه المجاور لمسكن الأب.

يقع المكتب في حارة مسدودة، يحرسها عناصرُ بملابس مدنية. كان مقرُّ إقامة رجل الدين العجوز هذا رمادياً، وكأنما التصقت كآبة المدينة كلُّها بجدرانه. تجاوزت الحاجز متخفية، برأس مطأطأ ووجه نصف مغطًّى. عند أول رنَّة جرس فتح أحمد الباب على الفور مرتدياً بنطالاً فضفاضاً وقميصاً أبيض. كان على علم تام بسبب مجيئي. ولم يتقيَّد بالرسميات المعتادة. مكتبه كان يؤدِّي غرض قاعة استقبال، وديكوره بسيط عفا عليه الزمن، مؤلَّف من أثاث غير متكلِّف: مكتبة، طاولة وكرسيين. وما أن جلس وراء مكتبه حتى بدأ نجل منتظري الحديث على الفور. قال إنه يريد أن يتكلَّم، وكان ذلك واضحاً.

- «يوشك بلدنا على أن ينحرف نحو الفاشية الدينية!». هتف بصراحة، في إشارة واضحة الى الأحداث الأخيرة.

فهمت بشكل أفضل الآن لمَ كان هذا الرجل مقرَّباً جدّاً من باقي. كان يتحدَّث بصراحة سافرة، دون مواربة. رجل مبادئ، يعرف ثمن الكلمة، إلى الدرجة التي لم يعد يخشى فيها الرقابة الذاتية. وفيما كان يتحدَّث، ألقى نظرة ملؤها الحنان على صورة والده: رجل سمح، قصير القامة مستدير الوجه، تزيِّنه نظارات سميكة ذات إطار أسود، كان آية الله منتظري يبتسم. في تناقض مع تجهُّم صور خامنئي. يقال إن حاجزاً واحداً يفصل

هذا المكتب المتواضع عن المسكن العائلي حيث يعيش رجل الدين المعارض هذا منعزلاً. كان هناك بالفعل، على بعد أمتار قليلة منا، وراء الجدار السميك الذي يجبره على الصمت التام. هل كان يسمعنا؟ كيف كان يمضي أيّامه؟

هل كان نادماً على قيام تلك الجمهورية الإسلامية التي كان واحداً من مهندسيها الرئيسين عام 1979؟ من الغريب تصوُّر أن المرجع الديني لآية الله الخميني ووصيفه السابق، هو اليوم سجين النظام الذي ساهم هو نفسه بكلِّ ما أوتي من قوَّة وإيمان في إرساء دعائمه.

قدَّم لي أحمد منتظري كوباً من الشاي. ثم واصل محتفظاً بتصميمه:

- «يؤمن والدي بأننا يجب أن نتحرَّك مع الزمن. الحداثة هي تحدٍّ فكري، وليست مجالاً لاستعراض العضلات. بالنسبة إليه، لا يمكننا الاستمرار في استخدام التفسير التاريخي للدين في عالمنا اليوم. فتسييس الدين يدمِّر معناه الأصيل... الحلُّ الوحيد لإنقاذ سمعة رجال الدين هو النأي بهم بعيداً عن السياسة».

بالإصغاء إليه، فهمت أن أحداً لا يمثِّل تطوُّر إيران "ما بعد الثورة" بأفضل من منتظري... فهو الذي وُلد في نجف آباد على بعد ثلاثين كيلومتراً إلى الجنوب من أصفهان، ويقال إنه ما يزال يحمل لكنتها. درس الفقه في أصفهان قبل التوجُّه إلى مدينة قُم، حيث أصبح الخميني معلِّمه الفكري. وسرعان ما نشأت بين الرجلين علاقة تواطئية، قضى التلميذ المخلص حقبة في سجون الشاه، وتبع أستاذه إلى منفاه في نيوفل لوشاتو قرب باريس، قبل أن يصبح الأخير رمزاً للثورة الإسلامية. معاً، قاما بصياغة الدستور الذي نصَّ على أن إيران دولة قانون، ذات نظام برلماني. وبالرغم من مظهرها الديمقراطي المتمثِّل بانتخابات نيابية ورئاسية، كمن التباس

الجمهورية الإسلامية، بحسب ما كانا يتخيَّلانها، في أن سلطتها ملهمة من الله: أوكل ولاية الفقيه إلى المرشد الأعلى مهمَّة إدارة شؤون المؤمنين، بانتظار مجيء المهدي، الإمام الشيعي الثاني عشر.

وفقاً للقانون، يُعهد بمنصب ولاية الفقيه إلى: علَّامة في العقيدة، عادل، فاضل، مواكب لروح العصر والتغيير، شجاع، كفؤ وقدير، وأن يكون مقبولاً كمرشد من أغلبية الشعب. إنما في النهاية حصلت جميع الانتهاكات باسم تلك الصفات المتوافرة لدى الكثيرين. واعتماداً على القراءة التي قام بها البعض للنص، كانت سلطة المرشد، بالنسبة إلى البعض، مطلقة. وبالنسبة إلى آخرين، محدَّدة.

وبتعيينه إماماً لصلاة الجمعة ورئيساً لمجلس الخبراء، تم تقديم منتظري كخليفة مرتقب للإمام الخميني. ابن لفلاح، ورجل من العامَّة يتحدَّث بلغة بسيطة وشعبية، عرف كيف يجعل الحشود تلتفُّ حوله، ويشترك مع أستاذه في الكراهية الشديدة للإمبريالية الغربية. إلا أن شهر العسل ما لبث أن انتهى بمرور الوقت. ومع ازدياد التورُّط في الحرب العراقية الإيرانية، كان منتظري أوَّل من شجب الطريقة التي برَّرت بها السلطات استمرارها.

وفقاً لمنتظري، فإن الكثير من الأكاذيب، الكثير من الدعاية، والكثير من الوفيات الناجمة عن الصراع، كان عليها أن تتوقَّف في وقت سابق. وما أن وُقِّعت معاهدة السلام - و"تجرَّع كأس السم" على حدِّ تعبير الخميني - حتى تجرَّأ منتظري على التمرُّد ضدَّ التصفية الجماعية لآلاف المعارضين. ليست أساليب مخابراتك بأفضل من تلك التي كانت في أيام الشاه! بتلك العبارة سمح منتظري لنفسه أن يكتب للخميني ما اعتُبر أكبر نقد وُجِّه إلى الأخير.

لم يغفر له معلِّمه البتة. فبعد وفاة المرشد الأعلى، عام 1989، عهد بالخلافة في نهاية المطاف إلى رجل دين آخر، علي خامنئي، الذي ترأَّس جمهورية إيران الإسلامية منذ عام 1991.

لم يكن هذا الملّا ذو المرتبة الدينية المتوِّسطة يملك من المؤهِّلات ما يمكنه من شغل هذا المنصب، وهو لم يكتب "رسالة": الميثاق الذي يعنى بالقضايا الفقهية، ويتيح له استحقاق لقب آية الله. وسرعان ما خلَّف تعيينه استياءً في أوساط رجال الدين. بالنسبة إلى الكثيرين، لم تكن لعلي خامنئي الهالة والمؤهِّلات التي كانت للإمام الخميني. ثم بدأ جدل لا سابق له، يتنامى بهدوء في بعض الحوزات العلمية في قُم، وكان إلى ذلك اليوم من المحرَّمات، حول دور المرشد الأعلى. دون التردُّد في سلخ سلطته تدريجياً...

ولم يرمِ آية الله منتظري سلاحه، على الرغم من العار الذي لحق به جرَّاء تنحيته. فبعد فترة من الصمت، لم يتوانَ عن اغتنام رياح الحُرِّية التي هبَّت مع انتخاب خاتمي رئيساً عام 1997 بإعادة النظر عبر كتاباته في مسألة المنشأ التعسُّفي لسلطة المرشد المطلقة، الأمر الذي اعتبره خصومه قمَّةً في التحدِّي، فقاموا بعد بضعة أشهر بنهب مكتبته ووضعه تحت الإقامة الجبرية...

- «وفقاً لما يقول والدي، ليس لولاية الفقيه شرعية إلهية»، أردف أحمد. «فهو ينتخب ديمقراطياً لفترة محدودة وقابلة للإلغاء. وكل ما دار من جدل، تمحور حول فكرة الانتخاب أو التعيين الإلهي. إلا أنه بالنسبة إلى النواة الصلبة في الحكم، كانت تلك المساءلة بمثابة إعلان حرب. ولهذا تمَّ إبعاد والدي».

ولكن الرجل الذي طال سجنه بين أربع جدران، استطاع اختراقها.

ألهم حماسه جيلاً جديداً بأكمله من رجال الدين. فلولا حماس ودعم منتظري الذي يجلُّه الشباب، لم يكن المتظاهرون ربما ليجرؤوا في تموز/ يوليو من عام 1999 على الجهار علناً هاتفين "الموت لخامنئي!"، لأنه، وإن كان مكروهاً من المؤيدين، فإن صفته كمرجع تقليد تسمح له بتقديم الإرشاد أو الفتاوى لجمهوره من المؤمنين.

- «إذا كان والدي قد أعطى لنفسه الحق في انتقاد النظام، وبشدَّة، فذلك لأن لديه كلَّ شرعية للقيام بذلك... فمن خلال معارفه الثقافية والدينية، يعلم أدق مفاصله. وهو بالتالي أقدر من أي شخص آخر على كشف مفارقاته. الأمر الذي يشكِّل خطورة بالنسبة إلى من هم في السلطة»، يقول ابنه.

بمعاينة النظام الإيراني تحت المجهر، يتبيَّن أن تناقضاته كانت عديدة بالفعل. فمن جهة، كانت هناك المؤسَّسات الديمقراطية، مثل المجالس البلدية والبرلمان ورئيس منتخب عن طريق الاقتراع العام المباشر، ولو أن مرشَّحي الرئاسة يتم اختيارهم من قبل مجلس صيانة الدستور - هيئة النظام الرقابية. ومن جهة أخرى، فالمرشد الأعلى ذو السلطة غير المحدودة، وسيطرته المباشرة على القضاء والشرطة وجيش من الحرس الثوري المتنفذ، تجعل منه مشروع طاغية. فلأي الاتجاهين ستكون الغلبة في النهاية؟

- «لقد خضنا مرحلة لا سابق لها من النقاش، ولكن أيضاً من التشكيك. لم يسبق لأسس النظام أن كانت موضع جدل، وتفجَّر اختلاف وجهات النظر علناً. كانت تجربة جديدة. فحتى ذلك الحين، اكتفت السلطة بانتخابات شكلية، إنما هل يمكنها أن تصمد أمام انتخابات ديمقراطية حقيقية؟ وبعبارة أخرى، هل يمكن لولاية الفقيه أن يتعايش جنباً إلى جنب

مع الديمقراطية؟ ما أخشاه في تلك الحالة هو أن يفضِّل قادتنا القوَّة على نتائج صناديق الاقتراع»، أردف أحمد.

وبعد عشر سنوات، في حزيران/ يونيو 2009، تتبادر كلماته إلى الذهن لدى فوز محمود أحمدي نجاد بانتخابات مزوَّرة على الأرجح، الفوز الذي أقرَّه المرشد الأعلى ضدَّ إرادة الشعب. وفي تلك الأثناء، سيحرص أحمد منتظري على نشر أفكار والده التقدُّمية مع ظهور أولى بوادر التوتُّر لدى المحافظين، وقد كرَّس نفسه لذلك بالرغم من كل الصعاب. لقد كان باقي على حق، على المرء ألا ينخدع بالمظاهر. والآن، مع وجود شرخ صغير في الجدار، بدت المدينة المقدَّسة فجأة وكأنها تتنفَّس بشكل أفضل.

ومع تردُّد صوت أذان الظهر، استأذنت من ابن منتظري بالانصراف، وقبل أن يأذن لي أشار بأن أنتظره. رأيته يتوارى خلف باب ليعود حاملاً بين ذراعيه مظروفاً سميكاً.

- «إنها مذكرات والدي»، أسرَّ لي وهو يسلِّمني الرزمة. «ستجدين فيها خلاصة آرائه».

كان العمل الضخم والسميك، والمؤلَّف من أكثر من مئتي صفحة منسوخة بالتصوير الضوئي، محظوراً وممنوعاً من النشر بشكل صارم. لكن أتباعه كانوا يتداولونه خلسة في الخفاء. شكرته بإيماءة من رأسي، وأنا أخفي تلك الوثيقة التي فُرضت عليَّ تحت حجابي الأسود. ثم دلفت إلى داخل سيارة أجرة وكأن شيئاً لم يكن. للبرقع أحياناً فوائد جمَّة.

أنت من كنت تجلُّ الشعراء أكثر من الرب، كنت لتسخر مني: عقب زيارتي لمدينة قُم، تنامى لدي شعور بالافتتان تجاه الملالي. أردت أن أعرف كل شيء عنهم. قمت بترجمة كل خطبهم. شاهدت مؤتمراتهم. حفظت عن ظهر قلب أسماء الإصلاحيين والمنفتحين منهم. وفي أحد الأيام، بعد أن صرَّحت لزميلة سويسرية من زملاء المهنة بهذا الشغف، أعطتني عنوان رجل دين شاب من شهروري، وهي ضاحية شعبية من ضواحي طهران. كان مهدي ج. في السادسة والعشرين من العمر، تخرَّج للتو من المدرسة الدينية، يتحدَّث الإنكليزية بطلاقة، وهو من المواكبين لأحدث صيحات التكنولوجيا الحديثة. ولديه حلم لامنطقي بأن يفتتح مقهى للإنترنت بجوار المسجد.

«مُرِّي لرؤيتي قبل وقت الصلاة»، اقترح عليَّ بصوت بشوش عند اتصالي به. هُرعت إلى الموعد دون أن أخمِّن ما ينتظرني. كان مسجده المتواضع المبني من الطوب والإسمنت يغصُّ بالناس، وقد أَمَّه المصلُّون من أنحاء الحي كافَّةً في مجموعات متفرِّقة. قمت على الفور بتمييز مهدي بين الحشود بعمامته البيضاء التي تلفُّ جبينه. كان في انتظاري عند المدخل مرحِّباً بي، واضعاً كفَّه على قلبه.

– «تفضَّلي بالانضمام إلى النسوة هناك في الأعلى»، قال على الفور وهو يشير إلى الدرج الخارجي. تلك كانت مفاجأة، أومأت برأسي بالإيجاب. أنا التي ظننت أن لديَّ الوقت للتحدُّث معه قبل الخطبة وجدت

نفسي أنضمُّ إلى مصلًى النساء في الطابق العلْوي، بعيداً عن أعين الرجال، مع عدد من الفتيات اللواتي اصطففن ليرتقين على عجل الدرج المؤدِّي إليه. انطلق صوت المؤذِّن على الفور. وقبل أن يتوارى في قسم الرجال، أضاف مهدي:

- «قد قلت لهم في الواقع إنك شيعية. إن لم يكن لديك مانع».

شيعية؟ أن أكون شيعية هو أمر غير قابل للنقاش في إيران، فالدين ينتقل عبر الأب، ولا يمكن التملُّص منه. لقد ورثت منذ ولادتي ودون علمي هذا المذهب الذي هو فرع من الإسلام، انفصل عن المذهب السنِّي في القرن السابع الميلادي بسبب الخلاف على خلافة الرسول محمَّد. الأدهى من ذلك أنني كنت من "السادة"، ابنة "سيِّد"، ما يعني تحدُّري من السلالة النبوية. وهو مكتوب في جواز سفري الإيراني بالخط الواضح. لم يخطر ببالي قط هذا السؤال، فقد نشأت في ظلِّ العلمانية، حيث هجر الله المدارس في فرنسا منذ أمد بعيد. أمَّا والدتي التي تربت في كنف الراهبات في مدرسة "كوفان دي زوازو" الداخلية، فهي من تكفَّلت بمنحنا جرعة زائدة من المسيحية، ولم يكن الدين بالنسبة إليَّ أكثر من مجرد لعبة. في طفولتي، كل ما كان يعنيني هو سرقة "رقائق البرشام" في الكنيسة خلال مراسم المناولة الطويلة لأبناء خالاتي الفرنسيين، أو القفز على ظهر ماماني عندما تكون في باريس، حين تمدُّ من حين إلى آخر سجَّادة صلاتها في صالوننا لتصلِّي في وقت الآذان باتجاه القبلة. أمَّا اليوم، في تلك الضاحية من ضواحي طهران، سيكون هذا المخزون الديني الضئيل من سينقذ الموقف.

حذوت حذو أولئك الشابَّات الإيرانيات في تسلُّقهن درجات المسجد، كانت هناك ستارة في أعلى الدرج تقوم مقام الباب. خلفها غرفة ضيِّقة، تنيرها لمبة صفراء تتدلَّى من السقف. تسربلت النساء بأغطية

مزركشة، أغطية الصلاة وبَدَون كَسِرب من اليعاسيب عند تجمُّعهن في صفوف متراصَّة. "الله أكبر... الله أكبر..."، تصاعدت من الطابق السفلي جوقة من الأصوات الخشنة تلاها صدى أصوات النسوة. امتدَّت يد من تحت أحد الأغطية ولمست ذراعي لتسلِّمني غطاءً وحجراً للصلاة. دُعيت للانضمام إلى حلقة صلاة الجماعة! هكذا، ودون سابق إنذار. لا مجال للتراجع. اصطنعت ابتسامة، واتخذت لنفسي مكاناً خلف المرأة المجهولة التي دعتني للمشاركة في الشعائر. لم أملك أي خيار آخر. "الله أكبر... الله أكبر..." اضطررت على حين غرة إلى مواكبة الإيقاع. كانت أنظاري مثبتة على ظهر المرأة التي دعتني، وبدأت أحذو حذوها: ركوعاً. الرأس إلى الأرض. وقوفاً. الذراعان نحو السماء. ما أشبه الأمر بالتمارين الرياضية. كنت أتصبَّب عرقاً خوفاً من ارتكاب هفوة...

- «هل تشعرين بألم في الحلق؟». سألت إحدى المصليات في نهاية الصلاة.

* «كلا، إنني أصلي في قلبي». أجبتها، آملة أن أستطيع إخفاء جهلي بالقرآن.

عندما غادرت، كان مهدي ج. هناك في أسفل الدرج.

- «لقد اجتزت الأمر ببراعة!». قال وهو يغمز بعينه.

كنت غاضبة بسبب هذا المقلب الذي جرَّني إليه. تلك كانت المرَّة الأولى التي صلَّيت فيها في حياتي كلِّها، وفي إيران! كان المُلَّا الشاب مديناً لي بتفسير. وما أن أغلق خلفنا باب مكتبه حتى انخرط في الاعتذار.

- «يترقَّب الأصوليون أقلَّ زلَّة مني، وقام الباسيج في الحيِّ، في عدَّة مناسبات، بمحاولة إغلاق المسجد، واتَّهموني بازدراء الدين الإسلامي وإعطاء صورة مشوَّهة عنه. حتماً لن يعجبهم مُلَّا شاب يتحدَّث الإنكليزية،

فكيف هو الحال لو علموا أنني ضربت موعداً لصحفية غربية في مسجدي؟»، قدم لي مهدي ج. كرسياً قبل أن يجلس بدوره قبالتي.

- «هل أنت مستاءة؟»

* «آه؟ كلا...». أجبته وأنا ما أزال ألهث جرّاء تمرين الارتجال الممل. لم أستطع أخفي استيائي، كان عليه على الأقل أن يعلمني مسبقاً.

- «كما تعلمين، ليس المتطرِّفون وحدهم من يضعني تحت المجهر. عندما بدأت بالوعظ والخطب، لم يكن هناك في الصلاة سوى رجل واحد فقط وفتاة صغيرة. كان المراهقون يتجهَّمون لرؤيتي ويعبرون إلى الرصيف الآخر، ويرفض سائقو سيَّارات الأجرة اصطحابي في سيارتهم لأنني أرتدي عمامة».

* «ليس الأمر سِرَّاً»، أجبته، «فمن المعلوم ألّا أحد يحبُّ الملالي».

وسرعان ما شعرت بالندم لقول جملتي تلك. ترك الانزعاج أثره على كلامي. توقَّف مهدي ج. لبرهة قبل أن يتابع:

- «صحيح أن لا أحد يحبُّ رجال الدين في هذه الأيَّام... ولكن اطمئني، فأنا أوَّل من يقوم بالنقد الذاتي. لقد سئم الناس من هذا الإسلام هادم الملذات المفروض عليهم من فوق منذ سنين. وهم على حق! فالدين ليس إلا قيوداً».

لم أقل شيئاً. انتظرت أن ينهي كلامه.

- «أعلم أنكم في فرنسا تضعوننا جميعاً في سلَّة واحدة» استطرد قائلاً. «فبالنسبة إليكم، الشيعة والسنة، جميعهم سواء! الإسلام الشيعي في الواقع هو أقل جموداً بكثير مما يبدو. طبعاً، شرط أن يحسن المرء اتباعه. إنه مبدأ الاجتهاد وتفسير النصوص المقدَّسة. فعندنا مصطلح "الشك المقدس"، أي أننا نشكِّك في كلِّ شيء ونضعه موضع مساءلة. هل التدخين حلال؟

هل تعدُّد الزوجات قانوني؟ لا شيء ثابت. حتى أن لدينا مبدأ يسمى "عسر وحرج"، وهو ما يعني استثناء القاعدة العامة. فإذا كنت على سبيل المثال، تائهة في الصحراء، ولم يكن لديك سوى النبيذ لإطفاء عطشك، فلا حرج عليك من شربه وهو ليس بخطيئة!

لم تفته التكشيرة المرتسمة على وجهي، فأمثلته قد أثارت فضولي.

- «نعم، نعم! أؤكِّد لك!» قال بإصرار. «هناك مرجعٌ لكلِّ مؤمن في الإسلام الشيعي، آية الله، يمكنه أن يسأله جميع الأسئلة التي تخطر في باله. ومهما كان الموضوع الذي يشغلك، سيقوم بالإجابة عنه عبر البريد».

* «وأين مقهى الإنترنت من كل هذا؟».

- «آه، إنه مشروعي الشخصي». أجاب، «أوكلت إليَّ مؤخَّراً إدارة العلاقات العامة لأربعة آلاف مسجد، كما أنني مسؤول عن مشروع أتمتة خمسمئة وقف إسلامي. وهو ما منحني فكرة لفتح مركز صغير في الجوار حيث يمكن للشباب الاتصال بالإنترنت. المشكلة هي أنه ليست لهؤلاء الشباب هوايات. ولهذا فهم ينساقون إلى المخدِّرات والمشروبات المحرَّمة... أنطلق هنا من مبدأ واجبنا نحن رجال الدين في نكون حاضرين للمساعدة، وليس للترهيب».

بانتباه شديد كنت أدوِّن الملاحظات، أمَّا هو، فكان يجيب بحماس على أسئلتي، مستمتعاً بجهلي بالتشيُّع.

- «إذا ما استمرينا على هذا المنوال، فستصبحين شيعية حقيقية!». قال لي ممازحاً.

ابتسمت، لم أكن أعلم أن من الممكن لمُلَّا أن يكون ساخراً هكذا. هل يعود السبب لصغر سنِّه، أم لإجادته الإنكليزية؟

بعد ساعة من المحادثة، بدأ يكبر في نظري وازداد شعوري بالارتياح.

وفي الأسابيع التالية، أصبحت أستشيره في كلِّ المسائل الصعبة في القرآن. وكان هو يتَّصل في كل مناسبة دينية ليتمنى لي عيداً سعيداً. وعندما عكفت على دراسة مكانة المرأة في الإسلام، كان من الطبيعي أن أتوجَّه إليه بأسئلتي.

- «سآتي أنا إليك»، عَرَض علي. «وبهذا توفِّرين على نفسك مشقَّة الازدحام».

وافقت دون أن أرى في تصرُّفه سوى محض تهذيب خالص. وقبل أن أستقبله، غطَّيت شعري بوشاح، احتراماً مني للمؤسَّسة الدينية التي يمثِّلها.

وعند وصوله، كدت ألا أتعرَّف عليه. فباستثناء لحيته البنية الخفيفة، كان كل ما فيه قد تغيَّر، حذاؤه وجلبابه. وقف ممشوقاً كالألف في ردهة المنزل، وقد ارتدى سروال جينز أزرق وسترة جلدية تتماشى معه.

- «كي أجنبك الإحراج أمام جيرانك»، قال معلِّلاً وقد اتَّخذ وجهه مظهراً جدياً.

مدَّ لي يده بالتحية! لم يكن من اللائق أن أصافحه وفقاً لقواعد السلوك المرعية، حتى وإن بدَّل ثوبه الديني بزيٍّ عصري!

مددت يدي مرتبكة، لأشير له بتحفُّظ باتجاه الصالة.

- «إن مسألة المرأة، وخصوصاً العلاقات بين الرجال والنساء، هو موضوع أثير إلى قلبي!». أردف وهو يتَّخذ له مجلساً على الكنبة الصغيرة. كان متشوِّقاً للحديث لأهمية الموضوع لديه، متخذاً عائلته كمثال، فهو متزوِّج من امرأة تكبره سناً، كخديجة، الزوجة الأولى للرسول محمَّد، كما أنه أب سعيد لابنتين.

- «لن أسمح أبداً لزوجيهما في المستقبل أن يرفعوا أيديهما عليهما، فليس للرجل الحق في أن يكون عنيفاً مع زوجته، حتى وإن أخطأت.

القرآن واضح في هذا الشأن. إذا أراد الرجل معاقبة زوجته، فإن أقصى ما يمكن أن يفعله هو ضربها بباقة من الريحان. فإذا جرحها، أو تحوَّل لون بشرتها إلى الأزرق أو الوردي، فعليه أن يدفع غرامة. وفي هذه الحالة يحقُّ للزوجة حتى طلب الطلاق!».

كان من الشيق رؤيته يتناول الموضوع بهذا القدر من الشغف، فالمرأة بالنسبة إليه زهرة حساسة يجب احترامها، وكيان تجب حمايته. ثم تشعَّب النقاش ليشمل مسألة الحجاب. فمن وجهة نظره التي أشترك معه فيها، يجب أن يكون للإيرانيات الحقُّ في اختيار ارتدائه من عدمه. وإلى جانب ذلك، عبَّر لي عن دهشته لرؤيتي ارتدي الحجاب في المنزل.

- «حتى وإن كان يليق بك»، أضاف وقد أخذ يجيل النظر في وجهي متفحِّصاً أدقَّ تفاصيله. ثمَّ أرخى ذراعه على مسند ظهر الكنبة التي كنا جالسين عليها جنباً إلى جنب.

نهضت كي أقدِّم له كوباً من الشاي، مفسحة له المجال ليراجع تصرُّفه. احمرَّ خجلاً وأخذت يداه ترتجفان قليلاً. وساد صمت كسرته بأن فتحت موضوع إمكانية ترشُّح المرأة لمنصب الرئاسة من عدمه.

- «هل أنت... هل أنت عازبة؟»، سألني.

لم أفهم ما هي علاقة حياتي الخاصة بالسؤال الذي طرحته.

- «هل أنت... عازبة؟»، كرَّر.

* «نعم».

- «ألا تنوين الزواج؟».

* «يوماً ما، ربما... ولكن ما يزال لدي الوقت».

توقَّف لبرهة، متأمِّلاً وجهي، عينيَّ ويديَّ.

- «هل فكرت في أن تعقدي صيغة؟»، سألني.

* «ماذا؟».

- «صيغة زواج... تعلمين، إنه الزواج المؤقَّت الذي يتيح لك ممارسة الجنس لمدَّة محدَّدة. عشر دقائق، يوم، ثلاثة أيام... أو تسعة وتسعون سنة... علاقة حسب الطلب، إن كنت تفضِّلين».

صُعقت، ولم أكن أعرف كيف أتصرَّف. أمَّا هو، فتابع قائلاً:

- «كان هذا أمراً شائعاً بين المسافرين والحجَّاج في عهد الرسول. وخاصة عندما يقضون وقتاً طويلاً بعيدين عن أُسَرهم. فكانوا يتَّخذون زوجة ثانية لفترة محدودة... لإشباع حاجاتهم».

بحسب وصفه، لم أرَ في الأمر أكثر من شكل من أشكال الدعارة أو الزنا. بالتأكيد، لا يزال هناك الكثير لأتعلَّمه عن التشيُّع.

* «ولكنني كنت أظن أن الفكرة من الدين هي حماية الأسرة... أليس هذا كله... ضرباً من النفاق؟».

- «كلا، ليس بالمجمل! وهو أيضاً لصالح المرأة التي لديها احتياجات عاطفية. لأنه رسمياً، لا يمكن إلا للأرامل والمطلقات بأن يعقدن صيغة».

صمت مرَّة أخرى، ثم تابع بعد تردّد:

- «في النهاية، تلك هي القاعدة العامَّة... ولكن بعد ذلك يمكن أن يكون هناك دائماً استثناءات».

* «ماذا تقصد؟».

- «سأبوح لك بسر: لنقل إن هذا الأمر يمكن أن يكون نوعاً من الاتفاق السرِّي بين شخصين. وليس هناك من داع لإبلاغ أسرتيهما...».

اتفاق سري! عند لفظه لتلك الكلمات، رفع مهدي رأسه نحوي ونظر مباشرة في عينيَّ اللتين أخفضتهما. أصبحت الآن أرى إلى ماذا يرمي بالضبط. لمتُ نفسي لأنني فتحت له بابي، لارتكابي مرَّة أخرى خطأً بسبب

سذاجتي. كيف كان ليخطر لي أن مُلَّا متزوجاً، في السادسة والعشرين من العمر، سيطلب مني الزواج؟ شعرت بنظراته تسحقني. بقيت صامتة، أحدِّق في الطاولة الواطئة، ثم في قدميَّ، ثم في ساعتي. كانت تنقصني الأفكار لأحوِّل مجرى الحديث. فنهضت وعدَّلت من وشاحي وأوثقته بإحكام حول صدغيّ، ثم أبلغته ببرود أن عليه المغادرة وأن في انتظاري موعداً آخر.

- «بهذه السرعة؟»، قال.

* «نعم، فأنا مشغولةٌ للغاية. ولكن سيكون من السرور أن نلتقيكم»، قلت برعونة آملة أن أتملَّص منه بسرعة.

بدت على مهدي ج. علائم الخيبة. صافحني مجدَّداً براحة يده الرطبة، قبل أن يستدير على عقبيه. فتحت له الباب، وشاهدته ينزل الدرج وعلى ظهره سترته وأنا ما زلت ممتعضة من تصرفه.

- «أراك قريباً». قال لي، قبل أن يختفي في الشارع.

* «إلى اللقاء». أجبته آملة ألا أصادفه مجدَّداً.

بعد بضعة أيَّام، رنَّ جرس الهاتف في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.

* «ألو؟». قلت وأنا أتظاهر بأن الهاتف أيقظني.

- «أنا مهدي».

مهدي! لم أستطع أن أتخيَّل جرأته.

- «هل أيقظتك؟».

* «نعم». أجبته ببرود.

- «أقوم بتنظيم مسير في الجبل يوم الجمعة المقبل، هل ترغبين في الانضمام؟».

الجبل! تسلُّق مساراته والقيام بمسير على مسافة أقل من ساعة من طهران، تلك كانت إحدى التسليات المفضَّلة للشباب الإيراني الذي ينشد الهرب. وهم أنفسهم من يهربون بأقصى ما يمكنهم من الملالي. أجبته برعونة وأنا لا أزال أستجمع أفكاري:

* «أوه، كما تعلم، فأنا مشغولة جداً...».

فأصرَّ قائلاً: «إذا كان السبب هو زي الملا، فلا تقلقي، سوف أخلع عمامتي وأرتدي سترة من الجلد!».

* «كلا، فعلاً، لا، شكراً»، أجبته وأنا أتذكَّر مجدَّداً اتفاقه السرِّي.

خيَّم الصمت عبر سمَّاعة الهاتف. كان هو من ظل صامتاً هذه المرَّة قبل أن يجيب أخيراً بصوت متوتِّر:

- «كنت أظنك مختلفة عن الآخرين... اعتقدت أنه لم يكن لديك ذلك الحكم المسبق عن الملالي... اعتقدت أنك جئت إلى إيران كي تفهمي الفروقات الصغيرة بشكل أفضل. ولكن في الحقيقة، فأنت لا تودِّين رؤيتي لأنني رجل دين!».

* «كلا، على الإطلاق، ليس هذا ما قصدته...». كان قد أقفل السمَّاعة.

للموتى أيضاً أسرارهم. كنت أظنُّ أن أسرارك دُفنت إلى الأبد، ولم أتصوَّر أن تكتشف في يوم من الأيَّام، وأن يتم ذلك بفضل زيارة غير متوقَّعة.

كانت الساعة نحو العاشرة من إحدى أمسيات صيف عام 2001 عندما انتزعتني قهقهات مفاجئة من أمام شاشة كومبيوتري. كانت الضحكات آتية من شقَّة جدَّتي. في مثل تلك الساعة عادة، تغطُّ ماماني في سبات عميق وتسبح في أحلام الحبوب المنومة. ومنذ حادثة الأشباح تلك، لم تعد تظهر بتاتاً في الليل. فما الذي تغيَّر؟ لم أُضع الوقت في البحث عن قاطع النور، هرولت في الظلام إلى الطابق السفلي وأنا أجتاز كل أربع درجات بقفزة واحدة. إلى أن استرشدت خطواتي الأخيرة منتصف الطريق بشعاع من الضوء تسرَّب من مدخل الشقَّة. على الحصيرة أمام الباب ألقي زوج من الأحذية الزرقاء اللامعة، لم تكن ماماني بمفردها.

- «هاهاها... هي هي... هاهاها».

تعالت القهقهات النسائية فِي صخبٍ وضجيج. لم يكن الاسترسال في الضحك من عادات جدَّتي، ولا أظن أنني رأيت ابتسامتها في حياتي، وهي من كانت بليغة في الشكوى كبلاغة البعض في إلقائهم لقصائد حافظ. ضغطت على جرس الباب. فإذا بالكناري الاصطناعي ينطلق مغرِّداً في بيت الدرج. انقطعت الضحكات. وصرَّ مقبض الباب، فانفرجت فتحته عن ضوءٍ مبهرٍ اجتاح عتمة الدرج.

- «سلاااام!».

قبل أن يتسنَّى لي الوقت لتحديد مصدر الصوت الثاقب، شعرت أولاً برأسي يرتطم ويرتد إزاء صدر لين عارم. ثم بيدين ضاغطتين طوقتاني بحزم وأخذتا تنتقّلان صعوداً وهبوطاً على ظهري بحركة محمومة. حاولت المقاومة دونما جدوى، سحقت فتحة الصدر الجريئة أنفي، عطست إذ تعرفت على الرائحة الفلفلية لعطر كوكو شانيل المقلَّد. أفلتني الحضن بعدها كاشفاً عن عينين خضراوين واسعتين يحيط بهما شعر مشقَّر بالأوكسجين.

- «كنا للتو نتحدَّث عنك أنا وجدَّتك!». قالت كومة اللحم الكبيرة التي انتصبت قبالتي. يخال المرء عند سماعها تتحدَّث بهذه الألفة البالغة أنها عرفتني منذ نعومة أظافري. لم تكن لدي أدنى فكرة من أين خرجت، ولم يكن هذا الوجه ذو اللون الخزفي الذي تتخلَّله تجاعيد خفية مألوفاً. كان حاجباها منتوفين بعرض مليمتر واحد، وأجرت لأنفها عملية تجميل، أحمر شفاهها الفاقع يتماشى مع فستانها التفتا... أكان هذا تأثير الوزن الزائد أم مفعول عملية التجميل؟

من الصعب تحديد عمرها، غير أن من الواضح أنها كانت امرأة جميلة في شبابها. وفي موجة فاحشة من التحبُّب، غطَّت وجهي بالقبلات، ثم انحنت بلا اكتراث نحو الأرض لتلتقط كرة من الفراء. كلب! كلب عند جدَّتي! كانت ماماني تعتبر كل ما له أربعة قوائم نجساً، وبالتالي ممنوعاً من الدخول إلى قفصها المذهَّب... وما أن جلس في أحضان صاحبته حتى بدأ يلعق شفتيها. بالكاد استطعت إخفاء تكشيرتي.

- «اتبعيني»، قالت، وأخذت تحجل حتى وصلت إلى غرفة نوم ماماني.

لاحظت أنها كانت تتصرَّف على راحتها أكثر ممَّا لو كانت ضيفةً.

أي لعبة من ألعاب الخفَّة تلك التي جلبت هذه المخلوقة المندفعة إلى هنا؟ عند عبور الصالة، لمحت فناجين الشاي المزيَّنة بزخارف قاجارية، والتي لم تكن الجدَّة تخرجها إلا لضيوفها المميَّزين. الأغطية هي أيضاً أُزيحت عن الأرائك بشكل استثنائي، كاشفة عن رسومات جميلة بالأبيض والأزرق. أمَّا على طاولة القهوة فكانت كعكة الشوكولاته تذوب في حرارة الجو وقد اقتُطعت منها أجزاء كبيرة.

تعثَّرتُ في الممرِّ بعظمة دجاجة. قام "الجرو" الأشعث هو الآخر بترسيم حدوده.

- «دلفين! بيا بشين! تعالي واجلسي!».

نادتني جدَّتي من سريرها وهي ترتدي قميص نومها وجوارب سوداء. كانت عيناها متيقِّظتين، مفتوحتين على اتساعهما، تقبع هناك وهي تمضغ حبَّات الفستق الحلبي دون اكتراث، ثم تمطر بقشوره سجَّادة فارسية. وعلى الكومدينة المجاورة لسريرها بجانب علبة كبيرة من حلويات بالكريمة، وضعت حبوبها المنوِّمة التي لم تكن قد تعاطتها تلك الليلة، وبالقرب منها كوب من الماء. وبالنظر إلى ملامحها المنفرجة، فلم أستبعد أيضاً أن تكون قد ابتلعت حبة كزاناكس.

ما أن ألقت زائرة المساء بكلبها على الأرض، حتى صنعت حفرة على السرير بجانب جدتي بوزنها الذي يساوي ضعفي أو ثلاثة أضعاف وزن ماماني. لم تكن لهاتين المرأتين أية قواسم مشتركة، لا قلباً ولا قالباً، ورغم ذلك بدتا قريبتين جدّاً في مشهد غرفة النوم ذاك.

- «ماري هي صديقة... للعائلة». قالت لي ماماني بلهجة غامضة، «ستمضي الليلة هنا». ماري ليس اسماً إيرانياً، لا شكَّ في أنه كان لقباً لإضفاء إيحاء غربي. لاحظت عند مراقبتها تخرج علبة بودرة كريستيان

ديور مزيَّفة من حقيبة يد فويتون مقلَّدة، أن شرهها المرضي يتجلَّى أيضاً في استخدامها المفرط لمستحضرات التجميل. عدَّلت من زينتها بنشرها سحابة من أحمر الخدود، ثم شاكست الكلب بضربات خفيفة من فرشاتها، ثم هتفت مخاطبة إياي: «اسمعي، بما أنك كثيراً ما تسافرين إلى باريس، فسأوصيك على طلبيتي في المرة القادمة!».

* «اممم، أنا».

قاطعتني جدَّتي على الفور. قفزت من السرير واربدَّ وجهها فجأة.

- «كيف هذا؟ ومساحيق التبرُّج التي أحضرتها لك من رحلتي الأخيرة إلى فرنسا؟ أكانت لأجل سواد عيني كلبك؟» ردت ماماني.

* «كلا، لقد كانت مساحيق من تلك التي تباع في السوبرماركت، بالكاد تصلح لمراهقة!» انتقدت ماري.

- «والأحذية المبرنقة التي ابتعتها لك من شارع رين؟» قالت ماماني متذمرة وكان اضطرابها واضحاً.

* «الأحذية! لقد كانت كبيرة جداً، إلى جانب أنها من الجلد المقلَّد!» ردَّت ماري متذمِّرة.

في إيران، غالباً ما تتجاوز الأهواء حدود المنطق. خصوصاً بين النساء، فكلُّ ما يُقال خلف الأبواب المغلقة، يُقال دون تحفُّظ. إنما هنا كان الأمر أشبه بمزاد! حتى يخال المرء أنه في شجار بين بائعتَي خردة. توقَّفت ماري، أعادت من وضع أحمر الخدود، ثم ابتلعت قطعة من حلوى الإكلير. وتابعت:

* «كان لزوجك، حسين رحمه الله، ذوق أفضل! كان يعرف كيف يرضيني بمجوهراته التقليدية وعطوره النسائية الأصلية».

حسين. أنت يا باباي؟ ما الذي أقحمك بحقِّ السماء في تلك القصَّة؟

خيَّم صمت شق الليل. تغضَّن وجه ماماني. كانت تكفي كلمة، جملة واحدة، كي تتقمَّص ماماني شخصية ميديا[1] الإغريقية، بنظرتها المأساوية وفمها المتشنِّج كإست دجاجة. جلست متسمِّرة إلى كرسيي، كحكم عاجز عن مسايرة إيقاع تلك المبارزة غير اللائقة. توارت ماري في المطبخ فجأة مصحوبة بكلبها، وتكوَّرت جدَّتي عابسة تحت غطائها. لم يكن الانزعاج فحسب ما أمكنت قراءته في طيَّات جبينها، بل أيضاً أمارات الحزن لامرأة تشعر بأنها تركت وحيدة.

- «كان جدُّك محاطاً دائما بالحريم، كان الذنب ذنبه في النهاية. لشدَّة ما كان يحبُّ النساء، اعتلَّ قلبه، قبل أن يتوقَّف للأبد! لقد كلَّفه الأمر حياته!».

جلست على حافَّة سريرها، تقشَّعت لتنظف حلقها، ثم تذمَّرت ببضع كلمات غير مسموعة. كما لو كانت تؤخِّر السؤال الذي لم أجرؤ على طرحه، وتابعت:

- «كانت ماري المفضَّلة لديه... لم أكن قد سمعت بها أبداً... وعندما توفِّي، ظهرت فجأة. كما لو سقطت من السماء! ذكرت وصية باباي اسمها بالخطِّ العريض وجعلها ترث قطعة أرض... وهكذا دخلت حياتي... عندما جاءت مطالبة بميراثها. طريقة غريبة للتعارف، أليست كذلك؟».

إذاً أنت أيضاً، أيها الجد الغامض، أذعنت لإغراء الاتفاق السري لزواج المتعة... كانت ماماني حريصة على تجنُّب نطق الكلمة المحرَّمة:

---

(1) عندما ذهب جيسون للبحث عن الجزة الذهبية وقعت ميديا فى غرامه رغم أنه كان من أعداء وطنها، وساعدته على قتل ابيها وأخيها شرط ان تهرب معه ويتزوجها إذا نجح. ووافق جيسون على ذلك. وأنجبت منه طفلين، لكن مع الأيام بدأ حبه يخبو، وفي أحد الأيام علمت ميديا أن جيسون سيتركها ليتزوج جلاس ابنة كريون ملك كورنت ويأخذ الاطفال منها فجن جنونها، وقررت الانتقام وذبحت امامه طفليها الصغيرين ميرميروس وفيريس حتى تجعله يتألم.

زواج المتعة. لم أكن في حاجة إلى رسم توضيحي لأفهم. لطالما أفردت لك مكانة رفيعة في قلبي، نصَّبتك بطل القضايا الإنسانية الذي لا يُقهر! نصف فيلسوف ونصف شاعر، تسعى دائماً إلى نشر الخير من حولك. إنما في الواقع، لم تكن تختلف كثيراً عن الآخرين. كانت لديك أمور تُخفيها ونقاط ضعف. شعرت وكأنني ابتلعت ثعباناً. ومع ذلك كنت أعرف عن ميلك المبكِّر للنساء، فوفقاً لبعض الذكريات التي رواها والدي، قامت بإرضاعك عدَّة مرضعات حتى سنِّ الخامسة، وكانت تلك آنذاك ممارسة شائعة.

وعندما كنت صغيرة، فاجأتُك عدَّة مرَّات، خلال زيارة لباريس، تقلِّب بشراهة صفحات مجلَّة مليئة بصور نساء عاريات. أمكنت قراءة كلمة "بلاي بوي" على غلافها بأحرف وردية اللون. «إنها ليست لسنِّك!». كنت تقول لي في كل مرة وأنت تُخرجني من غرفتك. وتعود إلى طهران محمّلاً دائماً بحقيبة مليئة بالقمصان التي كانت أمي، كشريك أعمى في فتوحاتك، تذهب لشرائها معتقدة أنها لـطالباتك كما كنت تقول. وفيما بعد، لم يخطئ سحرك الممرِّضات في المستشفى في باريس حيث قضيت أيامك الأخيرة. يحسب لك عند وصولك، أنك قمت بحفظ أسمائهن الأولى جميعاً. كنَّ حبيباتك ونور عينيك. أمَّا أن تعيش حياة مزدوجة ببركة الله، خصوصاً بالنسبة إلى شخص مطَّلع وعلماني مثلك، فهذا بحث آخر...

نظرت إلى ماماني وهي تقشِّر بعصبية حبَّات الفستق الحلبي. كانت نظراتها غارقة في زخارف السجَّادة العجمية عندما تابعت قائلة:

- «ماري، لقد كرهتها على الفور. وجدتها مندفعة جدّاً، وثرثارة للغاية. كنت في حالة حداد، ولم أكن أحتمل أن تقرع بابي دون سابق إنذار كلما احتاجت إلى صورة أو توقيع. ومع ذلك، لم يكن لدي خيار سوى احترام

قرار باباي. وبعدها، ومع مرور الوقت، انتهى بنا الأمر إلى أن نتقارب. في النهاية قلت لنفسي ألا ناقة لها ولا جمل في تلك القصة. المخطئ الحقيقي كان جدك!».

* «ومنذ ذلك الحين أصبحتما تلتقيان؟»

- «تمر لرؤيتي على الأقل مرَّتين في الشهر... وفي بعض الأحيان تبقى وتمضي ليلتها هنا عندما يتأخَّر الوقت... في الواقع، وجودها يؤنسني وينسيني وحدتي. كما أنها تتمتَّع بميزة خفَّة الدم. إلا عندما تتبجح بقائمة الهدايا التي أحضرها لها جدُّك الذي كان بخيلاً جدّاً معي! هنا يصبح الأمر أقوى مني وأخرج عن طوري».

* «منذ متى هما سوياً؟».

- «ليست لدي أدنى فكرة. في الواقع، أفضِّل ألا أعرف... الماضي هو الماضي».

مسكينة ماماني! كم كنت من الغباء لأنني حكمت عليها بهذا التسرُّع! كنت غاضبة لاقتحامها حياتي الخاصة دون سابق إنذار، ولهذا عزفت عن محاولة التفاهم معها. سألتها: «ألم تفاجئك علاقاته؟».

- «تعرفين أنه في زمننا كنا نقبل كل شيء دون نقاش، ونكتفي بادعاء الرضا بما يقدمونه لنا. عليَّ القول إنني كنت ساذجة. عندما زوَّجوني في سنِّ السادسة عشرة، شعرت حتى أنني كنت محظوظة. فأختي الكبرى قد زُفَّت إلى زوجها عندما كان لها من العمر عشرة أعوام فقط. علاوة على ذلك، كان باباي على قدر من الوسامة، أنيق الهندام، وكان يحظى باحترام المجتمع لنيله أطروحة في علم الآثار، ومعرفته لعدَّة لغات. إنني، والحقُّ يُقال، وجدته في البداية جذَّاباً جدّاً».

استطاعت ماماني بزواجها بكَ أن تحقِّق عدة مكاسب، فبمجرَّد أنها

أصبحت زوجتك، حملت لقب دكتر خانم، على الرغم من أن دراستها توقَّفت عند الشهادة الثانوية. في إيران، حيث تتحالف السيرة الذاتية مع اسم العائلة... يكفي الزواج من طالب دكتوراه لنيل لقب "السيِّدة الدكتور" أو من مهندس لحمل لقب "السيِّدة المهندس"!

وكأن لسان حالها يقول: أن تكوني زوجة فلان أفضل من أن تكوني نكرة...

وسرعان ما شعرت المرأة السمراء الجذَّابة، ذات الفساتين الجميلة التي تظهر قسماتها، بالخيبة. عند دعوتهما إلى حفلات العشاء، كانت عينا زوجها تطوفان من صدارٍ إلى صدار. وكثيراً ما يعود إلى البيت في وقت متأخِّر بحجَّة أنه منهمك جدّاً في العمل. وبعدها بعامين، عندما أصبحت حاملاً، وجدت أخيراً نوعاً من الراحة في الأمومة. لكن طفلتها، نسرين، تُوفِّيتْ جرَّاء إصابتها بزحار مميت في سنِّ الثانية. كان شائعاً حدوث أمر كهذا في أواخر الأربعينيات، فالنظافة والظروف الصحِّية لم تكن جيِّدة. أمَّا الملك الشاب محمد رضا شاه، فكانت له اهتمامات أخرى: شراء الطائرات الخاصَّة والتقرُّب من الأميركيين للتألُّق على الساحة الدولية.

وكان يجب انتظار التقدُّم الطبي والعلمي الذي أحرزته الجمهورية الإسلامية الحالية –إنجاز الملالي ولهم أن يفخروا به– قبل رؤية معدَّلات وفيات الرضَّع تنخفض.

- «كثيرا ما بكيت... كنت وحيدة مع حزني... وبعد ذلك رُزقت بوالدك، ثم عمِّك وعمَّتك... وعند هذه النقطة، انتقلت من دور الزوجة إلى دور الأم. بدأنا أنا وحسين بالنوم في غرفتين منفصلتين، وغضضتُ النظر عن حياته الخفية».

كان هذا إذاً سبب تلك المرارة المستمرَّة. بسبب حرمانها من السعادة،

لم تكن تستطيع أن تمنع نفسها من تدمير سعادة الآخرين مقتنعة بعدم وجودها. بالإصغاء إليها، فهمت جروحها وإخفاقاتها، وذكّرتني بحال الكثير من النساء الإيرانيات. لا شك في أن تطبيق الشريعة الإسلامية، منذ عام 1979، لعب دوراً كبيراً، وإليه يمكن أن تُنسب جميع الشرور على وجه الأرض. لكن معاناة النساء كانت سابقة لقيام الثورة، يخنقها تصلُّب التقاليد الأبوية. أيقظني نباح شديد من أفكاري. انفجر الجرو الأشعث مهرولاً مرة أخرى في غرفة ماماني، متقدِّماً ماري، التي دخلت وفي فمها مصّاصة كبيرة، حاملة كعكات ملونة على شكل هامبرغر، ووجهها بشوش كأن شيئاً لم يكن.

- «أتريدين بعضاً من الحلوى؟». هدلت ماري.

كانت ماماني ما تزال حانقة بسبب السخرية التي أطلقتها ماري في غير مكانها. رفعت حاجبيها محذِّرة، لم يسبق أن رأيت عينيها متقدتين بهذا الشكل من قبل. دفعت الغطاء عنها وجلست على السرير، وتأمَّلت منافستها من رأسها إلى أخمص قدميها. ثم قالت وهي تبتسم ابتسامة ماكرة:

- «انظري إلى نفسك مع برميلك الضخم، أنت لا تتوقَّفين عن الأكل، حتى ليظن المرء أنك حامل بثلاثة توائم».

يا لهذا الرد! رمت على إثره زوجتك الثانية مصاصتها ليستولي عليها الكلب مبتهجاً بتلك الجوهرة ذات المذاق الحلو. كنت أرقب مشدوهة لعبة كرة الطاولة تلك التي كانت على وشك أن تنتهي نهاية سيِّئة. ولكن حدث العكس تماماً، إذا ازدردت ماري ريقها وانفجرت في قهقهة مجنونة، كمباراة حُسمت نتيجتها بالتعادل السلبي. استدرت نحو ماماني، كانت تسيطر على جسدها تشنُّجات سرعان ما تحوَّلت إلى صيحات حادة قصيرة، كانت غارقة في الضحك!

- «يا لقوة ردك!». قهقهت مريم.

في الخارج، كان البدر في تمامه. تلاشت ضحكاتهما كلحن ليلي متناغم وهما تقهقهان حتى انهمرت من أعينهما الدموع، وكأنما حملت ضحكاتهما الشفاء لروحيهما...

في الأسابيع التالية، أخذت أعتاد على وجود ماري. بذراعيها المحمَّلتين بالسكاكر، وغيمة عطرها الخانقة التي تعبق بها الأجواء، وكلبها الذي يعدو في إثرها. وفي شقَّة الجدة، كان ينتظرها على الدوام فراش وغطاء. عزَّز مرور الوقت من تواطؤهما، كما لو أن تقاسمهما للرجل نفسه، ربط إحداهما بالأخرى في العسر واليسر.

من موقعي كمراقب، رأيت زوجتيك، المعلنة والسرِّية، تتشاحنان كأختين، ثم تتصالحان على الفور بتأثير سحر دعابة جيِّدة.

ومعاً كانتا تتندَّران بـحيلك القديمة: تقلُّبات مزاجك وقيلولاتك الشهيرة في منتصف وجبات الغداء، تلك التي كنت تدَّعي خلالها أنك غارق في التفكير.

سرعان ما تحوَّلت ماماني، خلافاً للمنطق، إلى مستشارة لماري. فعندما كانت زوجتك الثانية تحتاج إلى مقاول أو بنَّاء لتشييد فيلَّتها على قطعة الأرض التي ورثتها، لم تكن الجدَّة تعدم وسيلةً لتدبُّر رقم هاتف أو اسم عامل بناء. وطيلة الوقت الذي استغرقته أعمال البناء، كانت ماري على علاقة جيِّدة بنا.

ثم بدأت زياراتها تتباعد مع اقتراب انتهاء أعمال البناء، قبل أن تختفي نهائياً بعد ثلاث سنوات، مع كلبها ومصَّاصاتها وحلواها التي على شكل همبرغر، عندما أتمَّت بناء منزلها. لقد كانت، ولا شكَّ، امرأة جريئة للغاية. لم أَلُمْها لمغادرتها حياتنا فجأة كما دخلتها، إلا لأنها كانت تضيف بعض

التوابل إلى يوميات ماماني. في الحقيقة، كنت ممتنَّة لها لكشفها جانباً مظلماً من ماضيك، ولأنها أيضاً حقَّقت المستحيل: جعلتنا أنا والجدَّة أكثر تقارباً.

«سكوت... حركت... سكوت... آكشن... تصوير». أخذت كاميرتنا المثبَّتة في الصخور لقطة قريبة لوجه مغنية عذبة الصوت.

«يا ابنة البحر، ها هو الصباح! استيقظي وافتحي العيون!». دندنت الممثلة الشابة وهي تقلد گوگوش، نجمة البوب الخالدة التي اشتُهرت قبل الثورة، فتردَّد صدى كلماتها في الوادي، وتضيء عيونها التي كعيون المها التلال المزجَّجة باللون الأخضر.

أية مهزلة تلك التي منعت المرأة من الغناء في العلن!

تجمع حول المغنِّية فتية وفتيات يردِّدون اللازمة نفسها: «استيقظي وافتحي العيون!».

في نهاية أيلول/ سبتمبر 2001، عملتُ كمساعدة تصوير للفيلم الوثائقي البلجيكي، "إيران تحت حجاب المظاهر" الذي يلقي الضوء على الشبيبة المتمرِّدة في بلدك. في ذلك اليوم، كنا قد مشينا مدَّة ساعة عند سفح تل لنعثر في نهاية درب مسيرنا على ممثِّلينا الهواة الذين كانوا يقفزون كالماعز الجبلي من صخرة إلى صخرة، وقد امتلأت رئاتهم بالأوكسيجين. أمَّا في الأسفل، فقد توارت طهران خلف حزام سميك من التلوُّث، أشبه بستارة مسرح. يكشف جبل دركه، المتواطئ مع هذه الشبيبة التي لا تلين، أسراره... حجابات جامحة، أحاديث لا رقابة عليها، وحقائب ظهر تحمل كنوزهم المخبَّأة، سجِّلات وقيثارات ودفوف.

تجمَّدت المغنية في مكانها فور سماع الصافرة الأولى. طلبت إلى

أصدقائها أن يصمتوا وهي تمرِّر سبابتها على شفتيها. كان الصفير متقطعاً يقلق خرير الساقية المجاورة، صفيراً دخيلاً وشديداً.

- «من هناك؟». صاحت مستفسرة.

تابعنا التصوير ظناً منا أنه مشهد مرتجل.

- «أوقف الكاميرا!»، فجأة، هتف صوت غير مألوف.

استدرنا. وإذ برجل ملتح ممتلئ الجسم جاحظ العينين وقد خرج لتوه من الحرش. توجه مباشرة نحو مجموعتنا الصغيرة حانقاً. كان في العشرينات من العمر على الأرجح، في عمر الممثِّلين الشباب. جهازه اللاسلكي كان معلَّقاً بحزامه، وقميصه الأسود يتدلَّى فوق بنطال خاكي اللون... كان دون شك من ميليشيا الباسيج الذين بدأت أميِّز أشكالهم منذ صيف عام 1999، أمَّا تلك، فكانت المرَّة الأولى التي احتككتُ فيها مباشرة بواحد منهم.

* «حجاب حجاب!». صاح، وهو يرجم الفتيات بنظراته.

قمنا جميعاً بالحركة نفسها ووضعنا حجاباتنا. ابتلعت المغنية المغمورة صوتها، وتسمَّرت في مكانها، حالها كحال رفاقها. لمحت السؤال نفسه يتكرَّر في العيون الغاضبة: ماذا جاء عنصر الباسيج هذا، يفعل هنا على أرضهم؟ فمن النادر أن يغامر "حراس الفضيلة" بالوصول إلى هذا المكان المرتفع. وعادة ما تقتصر دورياتهم على المقاهي المنتشرة عند سفح طرقات المسير. علاوة على انقضاء موسم مخالفات الحجاب عندما تدفع حرارة الطقس الفتيات للتخفُّف من حجاباتهن.

- «أوراقكم!». قال الملتحي غاضباً.

مرَّت بضع ثوان من الذهول غرقنا بها في صمت تام. لم يكن بين هؤلاء الشباب أي صلة قرابة، وهو ما كان سبباً كافياً لتوقيفهم في حال

طلب العنصر بطاقات هوياتهم. تقدَّم شاب بخطوات بطيئة وحذرة من الدخيل وسلَّمه حقيبة ظهر فارغة.

* «ما الخطأ الذي ارتكبناه؟ هاك، ألقِ نظرة على أغراضي، ليس هناك كحول حتى!» بادره الشاب بضحكة عصبية.

- «هذا ما كان ينقص ليكتمل مشهد الفتيات نصف العاريات أمام الكاميرا! نحن لسنا في أمريكا!». صاح الباسيج.

* «مهلاً، انتبه لكلماتك!». قال الشاب منفعلاً.

- «هات أوراقك أيُّها السكِّير المدلَّل، وأغلق فمك إذا أردت أن تتجنَّب المشاكل!».

* «أتظن أنك أقوى من غيرك؟ إذا لم يعجبك الأمر، فما عليك سوى أن تعود إلى ثكنتك. بسببك أنت وأمثالك تخلَّفت إيران ألف سنة بعد الثورة».

تصلَّب وجه الشاب الملتحي على إثر الجرح الذي تعرَّض له كبرياؤه، ثم نفخ صدره وقوَّم ذقنه وهو يشير بيده إلى تلَّة قريبة قائلاً: «عليكم بإظهار الاحترام! فتحت تراب هذا الجبل يرقد أخوة لنا قضوا في الحرب».

لم أستطع أن أفهم ما الذي كان يرمي إليه، حتى همست إحدى الفتيات في أذني بأنه يقصد دون شكٍّ المقاتلين السابقين في الحرب بين إيران والعراق. حيث قام عناصر الباسيج مؤخَّراً بمبادرة مثيرة للجدل، بدفنهم هنا في قلب الطبيعة، كما لو أنهم يقومون بفرض نفوذهم وترسيم حدودهم.

* «أجل! تلك هي! الحرب! إنها ذريعة جيِّدة، تلك الحرب! كما لو لم يكن هناك من مكان أفضل لدفن الموتى. ممَّ تشكو المقبرة؟ إنه عذر مثالي للتجسُّس علينا والاستيلاء على أحد الأماكن النادرة التي نستطيع التنفُّس فيها بحرِّية». قال الشاب منفعلاً.

- «حرِّية؟ عن أية حرِّية تتكلَّم؟ عن حرِّية التدخين والشرب، كالولايات المتحدة، يا لهذا الانحطاط!». زايد عليه الباسيج وهو يجرِّده من حقيبته.

تصاعدت لهجة الجدال. حتى تلك اللحظة، بقينا نحن، طاقم التلفزيون، على مسافة ممَّا يحصل، ولكن الباسيج تمادى كثيراً، فدسست يدي في حقيبتي لأخرج بطاقتي الصحافية. في النهاية، كنا نملك تصاريح رسمية من وزارة الثقافة لتصوير هؤلاء الشباب في الجبل. فقمت بإبرازها للباسيج.

- «أجنبية؟». سألني بريبة، مدقِّقاً في تصريحي. لم تعنِ له الوثيقة شيئاً، كما لو كان وحده هو الآمر الناهي في هذا الجبل المطل على طهران.

- «أجنبية؟». أصرَّ على سؤاله.

* «نصف أجنبية». أجبته.

- «أنتِ إذاً واحدة من أولئك الإيرانيين الذين كانوا ينعمون بدفء أوروبا عندما كان جنودنا يفجِّرون أنفسهم للدفاع عن البلاد ضدَّ صدام! والآن جئت لتبثِّي الفتنة بين هؤلاء الشباب بقيمك الغربية!». زمجر قائلاً.

وفيما كان يتحدَّث، أخذ ينقل بعصبية حبَّات مسبحة صلاة صغيرة ملفوفة حول يده. أخرجتني غطرسته عن طوري. وحتى ولو لم نكن من الطينة نفسها، فقد كنت في حاجة إلى إيجاد وسيلة لتملُّقه بأي ثمن.

* «آه، كلا، أبداً»، أجبته. «لقد قمت أيضاً بإخراج تحقيق صحفي في مسجد».

- «لكي تُمعني في إذلالنا لاحقاً؟». قال وهو يهدر. كان كلامه يفتقد إلى المنطق، لم يكن مدركاً إلامَ يريد أن يصل.

- «تكفي مشاهدة الـ CNN أو الـ BBC ليرى المرء كيف قام الغرب بشيطنة المسلمين! فمنذ أن صدم الانتحاريون طائراتهم بأبراج نيويورك،

ونحن جميعاً في نظركم إرهابيون وإسلاميون. كم هي قصيرة ذاكرتكم أنتم الغربيون! إيران لم تهاجم بلداً قط، ليس هذا وحسب، بل أن صدَّام حسين عندما قام بغزونا في الثمانينيات، كان مدعوماً من الغرب!».

ذلك كان إذاً سبب غضبه. بدأت أفهم... قبل بضعة أيَّام، عصفت هجمات 11 أيلول/ سبتمبر التي حملت توقيع تنظيم القاعدة، بالمجتمع الدولي. وكان محمَّد خاتمي الذي انتخب في يونيو من عام 2001، واحداً من أوائل رؤساء الدول الذين أدانوا الهجوم على برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك، مظهراً أسفه لارتكاب تلك الجريمة البشعة باسم الإسلام. في طهران، أعرب الناس أيضاً عن تعاطفهم وتضامنهم مع أسر الضحايا. قام المئات من الأشخاص، كل خميس ولعدَّة أسابيع، بإشعال الشموع في ساحة محسني، وهم يهتفون بصوت عال، يسقط الإرهاب! والموت لطالبان!. ولكن في الغرب، كان كل ما يتعلَّق بالإسلام من قريب أو بعيد موضع شبهة وكأنه الطاعون.

- «سيكون الإصلاحيون على ضلال إن اعتقدوا أن الغرب يبتسم لهم، أو أن قادتكم سيتعاملون معهم كنظراء على قدم المساواة. سترين كيف سيستغلُّنا الغرب ليسخر منا لاحقاً. لن تنتهي المسألة على ما يرام».

شعرت بالحيرة. فكرت أنه قد استسهل الإذعان لنظرية المؤامرة، كما هو الحال غالباً في هذا الجزء من العالم. ومن المفارقات أن التطوُّرات ستثبت أنه كان على حق من خلال الاضطرابات التي كانت على وشك أن تعصف بإيران والمنطقة. فستقرِّر أمريكا، في تشرين الأول/ أكتوبر 2001، أن تهاجم أفغانستان لطرد بن لادن، وهو العدوُّ المشترك، وستظهر طهران على إثرها تعاوناً غير مسبوق مع واشنطن من خلال تقديم الدعم الإنساني واللوجستي. وعند سقوط نظام كابُل، ستؤكِّد طهران مجدَّداً دعمها لمساعدة الغرب على تشكيل حكومة انتقالية في أفغانستان.

غير أن الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش، سيقرِّر في 29 كانون الثاني/ يناير 2002، أن يصنف إيران في "محور الشر". وفي وقت لاحق، سيذهب حتى إلى اتهام الجمهورية الإسلامية بالتنسيق مع تنظيم القاعدة. وسيصعب على طهران تقبُّل هذا الموقف، وسيشعر الكثير من الإيرانيين بالخيانة والعار. وهو ما سيكون ذريعة كافية لحزب المحافظين لاتهام الإصلاحيين بالانسياق وراء البيت الأبيض من جهة، ومن جهة أخرى، تغذية أحقاد الباسيج، كهذا الشاب. لنتساءل في وقت لاحق ما إذا كانت الحملة الأمريكية المزعومة ضد الإرهاب ساهمت في تعزيز التعصُّب الإسلامي على حساب الأصوات الأكثر اعتدالاً... أليس من المحتمل أن يؤدِّي الحوار الذي طالما حلم به خاتمي إلى "صراع حضارات"؟

أمَّا في عصر ذلك اليوم، فكان اهتمامنا منصبّاً حول الخروج من هذا المأزق والحفاظ على الفيلم الذي صوَّرناه وحماية أشرطته من أن تنتهي في حاوية القمامة في قسم الشرطة، وقبل كل شيء، ثني هذا الشاب الذي نصَّب نفسه زعيماً على جبل دركه عن استدعاء قواته لاقتيادنا على الفور خلف القضبان، فمن طريقته في التعاطي كان يمكن توقُّع الأسوأ.

صمت الباسيج وبدا كأنه قد تحرَّر من عبء أثقل كاهله بعد أن قذفنا بموعظته حول "الاستكبار العالمي" ووسائل الإعلام الغربية. ثم أمسك قلماً وقال إنه يريد تسجيل أسماء الفتيات والفتيان، وإن هذا فقط من أجل سجلَّاته الخاصَّة، وإنه لن يضر بنا، وإنه يريد فقط التأكُّد من أننا نحترم "الفضيلة الإسلامية" و"قيم الإمام الخميني".

لدى سماعه تلك الكلمات، تنحنح الممثِّل الشاب، وبحركة حازمة أمسك بحقيبته الملقاة على صخرة. لقد طفح به الكيل، ورغب في الرحيل. أمسكه الباسيج على الفور من كمِّه.

- «لن تخرج من هنا بتلك السهولة. هل تعلم بأنني أستطيع أن أمنعك من دخول الجامعة؟ وأنني لن أعدم وسيلة لإرسالك مباشرة إلى الخدمة العسكرية؟».

هرعت المغنية الشابة لتحول بين الاثنين. تراجع الباسيج فوراً، فوفقاً لمعتقداته، لا يجب أن يمس امرأة. لقد استسلم.

- «هيا، انطلقوا بسرعة قبل أن أرسل في طلب رؤسائي. لقد حالفكم الحظ هذه المرة، إلا أنها المرة الأخيرة!».

بالكاد استطعت أن أحول ناظري عن تلك الوجوه الشمعية التي لا تشوبها شائبة. وجوه بابتسامة جامدة، رزينة، أبدية. كلمة "الله" نقشت على عصاباتهم والبنادق على أكتافهم، يحدقون بإجلال في الفراغ، ويخلو محيَّاهم من أدنى تجعيدة أو شعرة في ذقونهم، والأهم من ذلك، من أي أثر للخوف.

بمشاهدة المئات من الصور بالأبيض والأسود التي انتشرت على طول الجدران في معرض عن الحرب بين إيران والعراق، لن يصعب على المرء التصوُّر أن هذا الجيش من الشباب الأمرد قد يُبعث حياً في أية لحظة. كانت أعمارهم تتراوح بين ثلاث أو أربع عشرة سنة، وربَّما أقل. كانوا صغاراً جدَّاً على الذهاب إلى الجبهة. أصغر من أن يقضوا نحبهم.

- «أنت هنا؟».

ارتعدت. أكان ذلك بسبب التأثُّر الذي سبَّبته رؤية صور أولئك الشهداء اليافعين؟ أو ذلك الصوت المألوف بشكل غريب الذي انتزعني من تأمُّلي؟

- «يا لها من مفاجأة أن أجدك هنا!». قال الغريب الذي وقف خلفي.

التفتُّ وأنا أركِّز نظري. في ظلمة قاعة المعرض المؤقَّت تلك، تمكَّنت من تمييز خياله. أكتافه كانت مربَّعة، وملامحه خشنة... مضت بضع ثوان وأنا أفكِّر في أنني قد أكون مخطئة في الشخص. وفي الوقت نفسه، أخذت عيناي تتأقلمان مع درجة الإضاءة. لقد كان هو بذاته: باسيج جبل

دركه! واقفاً هناك، على بعد متر واحد، بدا مندهشاً مثلي من تلك الصدفة المرتجلة بعد أسابيع فقط على حادثة الجبل.

- «ما الذي أتى بك إلى هنا؟». قال وفي صوته مسحة من سخرية.

كنت على وشك أن أسأله السؤال نفسه، فالمعرض مقامٌ في الحي الذي أسكنه، بعيداً عن جبله. دخلته بالصدفة في أثناء عودتي من جولة تسوُّق في المدينة، أغرتني بالدخول الخيمة العملاقة ذات اللون الرملي التي نُصبت مؤقَّتاً في ملعب صغير لكرة القدم.

كانت هناك عند المدخل لافتة معلَّقة على دبَّابة صدئة تحرس المكان وعليها كُتب بالأسود فوق خلفية من الأحمر القاني: "مهرجان الدفاع المقدَّس". أزحت من قبيل الفضول البطَّانية السميكة التي كانت بمثابة باب، ودخلت.

- «جميلون هم، أليسوا كذلك؟». بادر الباسيج بالحديث، مأخوذاً أكثر مني بالصور المعروضة على الجدار.

* «إنهم... يافعون جدَّاً»، أجبته. فقال لي:

- «إن من قُتلوا في سبيل الله هم الأعلون. لقد اصطفاهم الله!».

لمست في صوته مزيجاً مدهشاً من الاحترام والغيرة.

يا لها من طريقة غريبة لاستحضار ذكرى هؤلاء الأطفال-الجنود، ومعسكراتهم المسمَّاة "حشد المتطوِّعين"! - وهو المعنى الأصلي والحرفي لكلمة الباسيج - هم أيضاً من كانوا وقوداً لحرب النظام. مع بداية القتال ضدَّ بغداد عام 1980، تهافت هؤلاء الأطفال بتهوُّر على حقول الألغام العراقية وهم يفكِّرون في أنهم سينتهون في الجنة... بقيت صامتة.

- «هل ترغبين في أن أصحبك في جولة في المكان؟».

* «معذرة؟». سألت متفاجئة.

- «جولة مع مرشد، هل تودّين ذلك؟ أعمل هنا بدوام جزئي، كدليل متطوع». استأنف بصوت هادئ ورصين، يتناقض مع غطرسة اجتماعنا الأوّل.

* «آه، نعم. لمَ لا؟».

تبعته فوق جسر صغير. سمعت لدى عبورنا خشخشة مكبِّر صوت يصدح بغناء لطفل يمجِّد شجاعة المقاتلين: "جيش... الموت!". من رجل واحد، جميعهم متساوون عند الله، وجميعهم على قدم المساواة أمام الموت! ويشبّه الشهداء بالإمام الحسين، ثالث أئمة الشيعة الذي قُطع رأسه في كربلاء في العام 680 على يد جيش الأمويين السني، ما يعتبر أحد العناصر المؤسِّسة للمذهب الشيعي. ثمَّ دخلنا إلى الغرفة الثانية التي عرضت مشاهد لا تُحتمل من مجزرة. واصل الباسيج حديثه بأعصاب هادئة:

- «هؤلاء الشهداء هم شرف بلادنا! لقد ضحَّوا بأنفسهم من أجل إيران والإسلام. بعضهم لم يكن لديه ما يدافع به عن نفسه سوى يديه، ولكنهم أدركوا أن الموت هو طريقهم للطهارة».

أضاءت عيناه عندما تحدَّث عن الحرب، كما لو أنه يتوق إلى أن يكون في مكانهم.

لم يكن أيٌّ من الشباب الذي عرفتهم حتى الآن يشعرون بأن الصراع العنيف، الذي أودى بحياة أكثر من مليون شخص من كلا الطرفين، يعنيهم في شيء. وكانوا، في أحسن الأحوال، يكنُّون له نفوراً واضحاً كما هي حال سپيده. أمَّا بالنسبة إلى دليلي، فكان كل ما يتعلَّق بالباسيج مقدَّساً، وبالحرب هاجساً. روى لي خلال شرحه كيف أن والده المنحدر من ضواحي طهران الشعبية، كان ثورياً حتى العظم، ومقاتلاً سابقاً في الخنادق. لكن عمَّه هو البطل الحقيقي بالنسبة إليه، وقد لقي حتفه خلال

الصراع، وسُجّي في بهشت زهرا، أي مقبرة فردوس الزهراء، ابنة النبي محمَّد، وهي مقبرة ضخمة مجاورة لضريح الإمام الخميني على الطريق المؤدِّي إلى مدينة قُم. هناك تصطفُّ أضرحة الشهداء على مدِّ النظر.

- «نذهب لزيارته مع والديَّ كل يوم جمعة، حاملين الزهور والفواكه والبسكويت.

يوم الجمعة في إيران هو يوم مكرَّس لجميع الموتى. يُنظَّف القبر، يُرشُّ بماء الزهر وتُقام النزهات الخلوية في المقابر، حيث تلتقي العائلات وتتبادل الأحاديث. كما يُتلى القرآن وتقام الأدعية. ونحيي ذكرى الإمام الخميني والثورة. ونستعيد مآثر أبطالنا، أولئك الذين أنعم الله عليهم بالشجاعة لتحدِّي جيش صدام حسين القوي. إنها لحظة مؤثِّرة من اللقاء والتآخي، والخير».

كم هو غريب هذا الشاب! موعظته كانت تروِّج للإيديولوجيا نفسها التي دفعت الكثير من المراهقين إلى الانخراط في الحرب. كانوا يتسابقون إلى الموت كما لو كان هدية من السماء، وهم الذين شربوا دعاية النظام مع حليب أمَّهاتهم. يحتفي بهم أقاربهم بكل فخر واعتزاز، ويُخصِّص لهم التلفزيون كليبات مصوَّرة بإتقان من الصباح حتى المساء. كما تحمل الشوارع الرئيسة أسماءهم في طهران. وعند كل تقاطع كانت وجوههم تغطِّي جدران المباني. حتى أن الكتب المدرسية تغصُّ بقصص تروي انتصارات جنود الله البواسل على طريقة الملاحم العظيمة لبلاد فارس القديمة...

كم يختلف الأمر هنا عمَّا تعلَّمناه في فرنسا حول ذكرى المحاربين القدامى من الحربين العالميتين! كان ما تلقنَّاه أكثر تواضعاً، وأكثر فرديةً، وأقلَّ استعراضية من ذلك بكثير. تذكَّرت عند إصغائي للباسيج الشاب، جدِّي الفرنسي جان هوبير، الذي قاتل إلى جانب المقاومة خلال الحرب

العالمية الثانية وبقي أسيراً لدى الألمان لأربع سنوات خسر خلالها رئته. وما أن انتهت الحرب حتى سارع إلى خلع الزي العسكري، والحرص على شطب تلك السنوات المظلمة من حياته. لم ألتقِ بجدِّي لأنه تُوفِّي قبل ولادتي، ولكن عندما تتحدَّث جدَّتي عنه، كانت تذكر في المقام الأول كيف طلب يدها للزواج عند عودته إلى باريس. «كان يريد تأسيس عائلة، وإنجاب أطفال، كانت تلك طريقته في نبذ الموت واستعادة طعم الحياة». رُزقا بستَّة أبناء، ثلاث إناث وثلاثة ذكور. ولم يُبدِ أيٌّ من أخوالي اهتماماً بالمسائل العسكرية.

انتشلني من أفكاري صوت المكبِّرات الذي لا ينقطع. جيش واحد، رجل واحد، جميعهم متساوون أمام الله. وهو ينفث الأغاني الوطنية التي لاحقتنا من غرفة إلى أخرى، لم ينتبه الباسيج إلى حيرتي. بل واصل بكل فخر واعتزاز روايته لمآثر البعض، وشجاعة البعض الآخر. كان يحفظ عن ظهر قلب القصص التي تختبئ وراء كل صورة. باقترابنا من المخرج سلَّمني كتاباً. نظرت إلى غلافه المزيَّن بالزنابق الحمراء، رمز الشهادة. كان جامعاً لكل كليشيهات الحرب.

- «اقبليها كهدية متواضعة».

* «شكراً لك». أجبته بطريقة خرقاء.

- «شكراً لإصغائك».

ثم بعد القليل من التردُّد، استأنف: «بالمناسبة، اسمي محمود».

* «محمود... تشرَّفنا».

احمرَّ محمود خجلاً، وبدأ يفتِّش في جيبه ليخرج صورة أخرى. صورة لامرأة شابة بعيون رمادية تحدِّق في الكاميرا. تقريباً في الثامنة عشرة من العمر. ربَّما فتاة شهيدة.

- «إنها... إنها زوجتي»، قال وهو يمعن في الاحمرار خجلاً، «اسمها فاطمة».

* «آه... مبارك! تهانينا!» قلت متفاجئة بالنافذة الصغيرة التي فتحها على حياته الخاصَّة.

- «لقد تزوَّجنا منذ مدَّة قصيرة». قال وهو يخفض رأسه.

* «إنها جميلة جدّاً». قلت بأدب، حتى وإن كان من الصعب تقييم جمالها من خلال سماكة براقعها.

- «أرغب في أن أعرفك عليها... هلَّا شَّرفتِنا بالحضور لتناول العشاء معنا في إحدى الأمسيات؟».

باغتتني دعوته، الباسيج الذي روَّع الشباب في جبل دركه، يدعوني الآن لمشاركته عشاءه!

* «إنني... لا أريد أن أكلِّفك عناء الدعوة»، جاء ردِّي كما تنصُّ عليه آداب التعارف، فن المجاملات الإيراني الذي يقضي برفض الدعوة في البداية.

كنت بصراحة ممزَّقة بين الخوف من تجاوز حدود تلك الإيران المخيفة، والرغبة المجنونة بولوج العوالم المبهمة لقوى الظلام تلك.

- «بالطبع لا، ستكون فاطمة سعيدة!». أصر.

في تلك اللحظة، لم تكن لدينا أدنى فكرة أن أقدارنا ستقودنا لأن نلتقي باستمرار.

عندما فتحت فاطمة الباب، لم أستطع منع نفسي من التحديق في شعرها الناعم الطويل الذي يبرز جمال عينيها الرماديتين. كانت في الحقيقة أكثر جمالاً من الصورة ومن خلف البراقع! وإذا كانت خصوصية منزلها تبيح لها عدم ارتداء الحجاب في حضرة الضيوف من النساء، فالأمر لم يكن ينطبق عليَّ.

- «أهلاً وسهلاً». رحَّبت بي بصوت خافت وهي تشير إليَّ بالدخول.

لم أعانِ من صعوبة في العثور على عنوانهما. يسكن الزوجان الشابان في شقَّة متواضعة في الطابق الأرضي من أحد أزقَّة جبل دركه، عند سفح درب المسير الشهير حيث قام محمود بتوقيفنا.

أشارت فاطمة أن أتبعها إلى غرفة المعيشة التي زُيِّنت جدرانها بآياتٍ من القرآن الكريم. على الأرض فرشت بضع وسائد لتكون بمثابة أريكة أحاطت بمفرش تقليدي مدَّت عليه المرأة الشابة سفرة العشاء.

- «ذهب محمود إلى المسجد للصلاة، وسيوافينا خلال دقائق». همست بخجل وهي تعبث بأكمام قميصها. كنت أتساءل وأنا أتبعها، من منا كانت تشعر بالحرج أكثر؟ كسراً للجليد، قمت بتهنئتها بمناسبة زفافها متمنية لها إنجاب البنين والخلف الصالح. إن شاء الله. رسمت ابتسامة على محيَّاها. ثم أوضحت أن الزواج قد تم في الشهر الماضي. زواج تقليدي، حسبما تقتضي الأعراف. دفعني الفضول لكي أعرف كيف التقيا، فقالت:

- «يعرف الأهل بعضهم البعض منذ فترة طويلة. استشهد أحد أعمامي خلال الحرب. فبقيت في ذهن والدة محمود التي رأتني خلال مراسم إحياء ذكراه، وكانت تبحث عن زوجة صالحة لابنها. وفي يوم من الأيام جاءت مع العائلة لزيارتنا. أعددت الشاي، وقدَّمت البسكويت. ثم، بعد بضع دقائق، تُركنا لوحدنا، محمود وأنا. يداي كانتا ترتجفان تحت برقعي، وكانت تلك المرَّة الأولى التي أنظر فيها إلى رجل في عينيه مباشرة... وقد أعجبني!»

* «هل يعني هذا أنك وقعت في حبِّه من النظرة الأولى؟».

- «لم يكن يبتسم كثيراً، ولكنه بدا لطيفاً. خلال أحاديثنا الخاصة وجدنا الكثير من القواسم المشتركة بيننا، كالمسير في الجبل والأعياد الدينية والكراهية لأمريكا. وهذا هو أكثر ما يهم! الحمد لله، كان عريساً جيِّداً! لذا قرَّرنا أن نتزوَّج».

كان الحب بالنسبة إليها بتلك البساطة إذاً! كوب من الشاي، وبعض البسكويت ومجلس عزاء، ثم هوب! خاتم في البنصر! حتى دون مصافحة بسيطة. ألم تشعر في حياتها بانجذاب نحو رجل ما؟ ألم تتخيَّل نفسها قط كأميرة من أميرات ألف ليلة وليلة؟ ألم يحدث أنها حلمت في سن المراهقة بأمير يخطفها على حصانه الأبيض؟

- «بالنسبة إليَّ، فالحب قبل الزواج هو مدخل لجميع الموبقات». تابعت، كما لو أنها خمَّنت أسئلتي. «انظري إلى تلك الفتيات اللواتي يهربن من منازل ذويهن. دائماً ما يكون السبب هو قصة حب. وفي الليل، يجدن أنفسهن نائمات في الحدائق العامة. ثم ينتهين عاملات بالدعارة من أجل البقاء على قيد الحياة... وحتى أن بعضهن يبدأن بتعاطي المخدرات! يجب القول إنني محظوظة جدّاً».

أنَّت مفاصل باب الشقة، فتوقَّفت عن الكلام. كان ذلك محمود وقد عاد.

- «عذراً للتأخير... أرى أنكما قد انسجمتما سويةً!». هتف وهو يعلِّق سترته على المشجب.

فور جلوس محمود القرفصاء قبالة السفرة، سارعت فاطمة تملأ أطباقنا بخورشت البادمجان[1] والفسنجان سبزى قورمه[2]. تكفي نظرة واحدة على تلك الأطباق اللذيذة التي تزيِّن السفرة لتخمين الجهد الجبار الذي بذلته مضيفتنا لإرضاء زوجها الذي لم يكن ليبالي بشيء أكثر من التحضير لاحتفالات عاشوراء، الأمر الذي كان يشغل كل أمسياته. فخلال بضعة أيَّام، تستعدُّ إيران للدخول في حداد تخليداً لذكرى مرور أربعين يوماً على وفاة الإمام الحسين، الذين اغتيل قبل أكثر من 1300 سنة.

- «حدث رائع! أترقب هذه المناسبة في كل عام بفارغ الصبر. وأحرص دائماً، أنا وأصدقائي الباسيج، على ترؤُّس المواكب، حيث نضرب صدورنا بسياط من المعدن. إنها لحظة خاصَّة جدًّا، لحظة من الانفعال الجماعي، تدخلنا في غيبوبة تقريباً، نتعلَّم فيها التغلب على الألم، ونفكِّر في كل هؤلاء المقاتلين الذين كانت لديهم الشجاعة، كالحسين، لمواجهة الموت...».

توقَّف محمود ليقدم لي كوباً من الدوغ، وهو مشروب بارد كلبن العيران مضافٌ إليه النعناع اليابس. انتهزت فرصة الصمت الذي سبَّبه استحضار مسألة الألم لأسأله السؤال الذي أرَّقني منذ لقائنا الأول، طالما أنه كان إلى ذلك الحد، مفتوناً بالحرب، فلمَ لم يذهب للقتال على الجبهة؟

---

(1) طبق إيراني شبيه بمسقعة الباذنجان.

(2) طبق إيراني شبيه بالملوخية، يتألف من نباتات حشائشية متنوعة مع كرات من الكوفته.

خيَّم الصمت على السفرة. نحى محمود الإبريق جانباً. وتنهَّد بعمق وظلَّل الحزن وجهه وهو يشبك ذراعيه إلى صدره قائلاً.

- «لو أنني فقط استطعت الذهاب. آه لو أنني»، وتابع منغمساً في ذكرياته: «كنت طفلاً متهوراً لا يهدأ، لم أكن أخشى شيئاً. وعندما احتفلت ببلوغي عامي العاشر عام 1988، قبل بضعة أشهر من انتهاء النزاع، كان والدي في إجازة في طهران. توسَّلت إليه أن يسمح لي بالذهاب إلى المعركة معه. رفض متعلِّلاً بأنني كنت صغيراً. لذلك قمت بحيلة، زوَّرت بطاقة شخصية وغيَّرت تاريخ ميلادي وسجَّلت نفسي كباسيج. عرف والدي بالأمر، وقام بتأنيبي ساخطاً ومنعني من المغادرة، لقد حكم عليَّ أن أبقى في طهران. ولم يفرج عني مطلقاً...».

انبرى محمود، وهو المهووس بالشهادة، لمحاربة العدو الداخلي، وذلك للتعويض عن حرمانه من خوض المعركة ضد العدو الخارجي: الشباب المتنزِّهون في جبل دركه، الأبناء المدلَّلون الذين يستمعون إلى موسيقى البانك-روك سِرَّاً، والفتيات ذوات الحجاب غير المحكم، وأولاد المعارضين... كان يجمع في أوقات فراغه كل ما له علاقة بالحرب. يذهب مرَّة في الأسبوع إلى مركز مهستان التجاري، قِبلة الباسيج الشباب في الجنوب من طهران، حيث تقوم بعض المحلات التجارية ببيع تذكارات المقاتلين السابقين.

* «وأين تحتفظ بكل تلك الأشياء؟». سألته وأنا أنقل النظر في غرفة معيشتهم شبه الفارغة.

- «في غرفة النوم!» أجابني كما لو كان أمراً لا لبس فيه. «تعالي، سأريك!».

تبعته وأنا مشدوهة. فوق سرير مزدوج، تتربع صورتان عملاقتان لرجلين

معمَّمين، مطبوعتان على ألواح من الخزف: إلى اليمين كان الخميني وإلى اليسار خامنئي. هل قضى الزوجان الشابان ليلة زفافهما تحت أنظار رمزي الجمهورية الإسلامية التي ما فتئت تفقد بريقها؟ قد تبدو فكرة سخيفة، ولكن هذا ما كان عليه الحال بالتأكيد. بعدها، قام محمود بحركة مهيبة عند فتح باب الخزانة. اصطفت على الرف أغراض صغيرة أزيل عنها الغبار بعناية كبيرة. كانت هناك أربطة أحذية، مفاتيح الجنة البلاستيكية، لوحات تعريف معدنية، أغلفة رصاصات، قصاصات من الصحف اصفرَّت بفعل الزمن... متحف مصغر حقيقي! على الرفِّ السفلي كانت هناك مجموعة أفلام مرتضى آويني، وهو صحافي حرب سابق، استُشهد في انفجار لغم عند خط المواجهة القديم. وكان نجم محمود المفضل.

- «إذا حدث وشنَّت إيران الحرب على بلد آخر، سأكون بين أوَّل المتقدِّمين للشهادة»، هتف محمود.

في الواقع، كان محمود شهيداً حياً، أو بالأحرى نصف شهيد. كان الموت سبباً لوجوده، ومقصداً إلهياً وملجأ يحتمي فيه، كان يأكل وينام ويحلم به. ومنذ انتهاء النزاع، ابتسمت الحياة للباسيج. وفَّرت لهم الدولة العديد من الامتيازات، وحرصت على الاهتمام بأوضاعهم حتى يكونوا على أهبة الاستعداد عندما تحتاجهم. خصَّصت لهم تعاونيات بأسعار تشجيعية، واستفادوا من قروض مصرفية ميسَّرة، وحجزت لهم مقاعد في الجامعة. في نهاية الحرب، تمَّت ترقية والد فاطمة لقائد فرقة في إحدى ضواحي طهران. والتحق والد محمود بشركة تابعة جزئياً للقطاع العام، حيث كان يعمل بنصف دوام. كان للباسيج مخيَّمات خاصة بهم لقضاء العطلات، وشبكة علاقات في المساجد والمراكز الخيرية، ومكانة اجتماعية مرموقة.

- «هنا في الحي، الجميع يحترمون محمود». قالت فاطمة بفخر، وكانت قد تبعتنا إلى الغرفة، «وإذا ترشَّح للانتخابات، فالكل سيصوِّت له!».

لكن من الواضح بالنسبة إلى محمود أن هذا ليس كافياً. فهو ما يزال مسكوناً بإحباط مزدوج، أن يعيش في زمن السلم، وأن يشعر بأنه مختلف كلياً عن مجتمعه. كان يفكر أنه هو الضحية، لا الليبراليون.

- «ينعتنا الشباب بنعوت شتَّى، ويطلقون علينا ألقاباً. يضحكون بصوت عال ويسمعون الموسيقى الدارجة دون أي احترام للتقاليد، ولا لآبائهم الذين دافعوا عن بلادهم. هذا ليس عدلاً».

أرادت فاطمة أن تقاطعه. هي أيضاً كانت ترغب في أن تريني شيئاً. شاهدت رأسها يغوص في درج من الأدراج يحوي قلمين من أحمر الشفاه احتفظت بهما من أجل محمود بلا شك، لتخرج وثيقة مجلَّدة.

- «هذه شهادتي في التمريض!».

* «التمريض؟».

- «نعم، أشارك كل عام مع بنات الباسيج في حملات التطعيم. في الخارج، دائماً ما يصوِّروننا كميليشيا تروع الناس. لكن العنف هو سلاح نستعمله فقط عندما يكون أمننا القومي مهدَّداً. أصبحنا منذ ولاية خاتمي نقوم بخدمات اجتماعية أكثر من السابق. ففي حال حدوث زلزال، نحن على أهبة الاستعداد لمساعدة الضحايا. وفي العطلات، نأخذ الأطفال المحرومين إلى الريف. وخلال المناسبات الدينية، نوزِّع وجبات مجانية».

كنت أجهل هذا الوجه من وجوه الباسيج. أدركت بالإصغاء إلى فاطمة أن هذه الطائفة من الناس كانت أكثر تعقيداً مما تبدو. بينما كان محمود المنغمس في أحلامه الاستشهادية غارقاً في خزانة الخردوات، اغتنمت فاطمة الفرصة لتنفرد بي وتدعوني إلى غرفة المعيشة، قائلة لي:

- «أعتقد أن محمود قد بالغ قليلاً في ذلك اليوم في الجبل، اعذريه. من فضلك، لا تسردي الأكاذيب في مقالاتك. كما ترين، نحن الإيرانيون مثل الآخرين، نستحقُّ فقط أن نُفهم بشكل أفضل، تفضَّلي، هذا هو رقم هاتفي المحمول، اتصلي بي متى شئت، يمكن أن نذهب للتسوُّق معاً، أعرف محلَّات جيِّدة».

تلك المرأة الشابة كانت حريصة ربَّما على الصورة التي ترسمها. وهي كادت أن تكون مؤثِّرة، عندما أخذت تقنعني بأن الباسيج هم أناس طيِّبو المعشر.

على الرغم من موقفهما من الغرب، فتح محمود وفاطمة لي بابهما. واستقبلاني على مائدتهما العامرة، عهدا إليَّ بأحلامهما ومرارتهما. ولكن هل كنت في الحقيقة جديرة بكرم ضيافتهما؟

في طريق العودة، بدأ الشكُّ يتسلَّل إلى أفكاري. هل كان كميناً؟ هل تسلَّم طائرا الحب الشابَّان هذان أوامر باستدراجي ومحاولة التقرُّب مني للتجسُّس على يومياتي؟ أم أنهما كانا ببساطة مدفوعين بالفضول نفسه الذي شدَّني إليهما؟

لم أعرفها في البداية. كانت ترتدي بلوزة مقلَّمة بخطوط رمادية رفيعة. ووجهها كان له لون الخزف الأبيض. تاهت نظراتها الفارغة في حشد من ضيوف ذلك العشاء الرسمي في نهاية شباط/ فبراير عام 2002. في واحدة من تلك الأمسيات التي تلتقي فيها الطبقة المثقَّفة القديمة في إيران، كالتي كنتَ ترتادها يا باباي. حيث يتناقش الحاضرون حول كل شيء تقريباً حتى بزوغ الفجر وهم يحتسون الويسكي في كؤوس من الكريستال. بدأت لدى وصولي بالتجوُّل بين الطاولات، مثنية على أناقة السيِّدات اللاتي يرفلن بأثواب من ستينيات القرن الماضي، متبادلة أطراف الحديث مع بعض السادة حول آخر المستجدات.

بدت متمايزة عن الحشد لكونها الأصغر سناً. غير أن عينيها الحانيتين والجامدتين في آن معاً هما ما لفتتا انتباهي إليها في المقام الأوَّل، كانتا كما لو أن نسائم طهران الباردة في تلك الليلة قد هبت عليهما. في البداية، ساد صمت، تلته ابتسامة.

- «دلفين؟». تمتمت المرأة الملفتة ذات البلوزة المقلمة.

* «نيلوفر!». أجبتها على الفور. عزيزتي نيلوفر! مرَّت سنتان على اليوم الذي طرقت فيه بابها حتى تعبت قبضتي بعد استجوابي لدى المخابرات. سنتان تخيَّلت فيهما الأسوأ، بما في ذلك اختفاءها نهائياً. كانت هناك، واقفة أمامي في الجسد. ولكنها بدت مختلفة للغاية! شعرها البني، الغزير والحريري تحول تماماً إلى الرمادي. وجهها كان متعباً. وخددت الجيوب

محيط عينيها وفقدت ما لا يقل عن عشرة كيلوغرامات من وزنها. «اشتقنا لك». قلت على نحو أخرق، محرجة من فكرة أن أسألها أين كانت طيلة تلك الأشهر.

تلفَّتت حولها يمنة ويسرة كما لو كانت تتأكَّد من عدم وجود آذان تتنصَّت على حديثنا.

- «اعتقلوني على خلفية أحداث تموز/ يوليو 1999». همست لي بجملة واحدة.

ما إن لفظت كلمة اعتقلوني حتى دارت في مخيَّلتي صورة المحقِّق ذي الأصابع الناقصة. لا يمكن أن يكون من اعتقلوني سوى جهاز المخابرات. أو الباسيج من رفاق محمود وفاطمة.

* «وبعد ذلك؟» سألتها من بين أسناني.

- «ألقوا بي في السجن وحُكم عليَّ بخمس سنوات».

* «خمس سنوات!».

- «ولكن كما ترين، كنت محظوظة. خرجت في النهاية بعد عامين». أردفت بلهجتها الساخرة التي لم تفقدها. عادت نيلوفر من وراء الشمس. لاحظت كيف كانت تحاول طمأنتي. أردت أن أقول لها كم كنت قلقة، وأروي لها عن الفراغ الذي سببه غيابها الطويل. غير أن دعوة سيِّدة المكان إلى المائدة دفعتنا إلى تغيير الموضوع إلى شؤون أكثر دنيوية.

- «لا بدَّ لي من أروي لك». همست نيلوفر، «إنها قصة طويلة، لكنني أفضِّل عدم التحدُّث عنها طالما أنا في إيران. فللجدران آذان».

في نيس، بعد شهرين تقريباً، وعلى بعد أربعة آلاف كيلومتر. كانت السماء التي اكتسبت لوناً وردياً عند الغروب تداعب كورنيش "بروميناد ديزانغليه"، وإلى طاولة في مقهىً صغير على شاطئ البحر، جلست نيلوفر تصنع حلقات من دخان سيجارتها. لقد اختارت شمس الجنوب لتداوي جراحها. وكانت في فترة نقاهتها تفترش كنبة في مكتب محامٍ من معارفها من إيرانيي الشتات المنتشرين في أصقاع الأرض بعد ثورة عام 1979. ذهبت خلال وجودي في باريس في أثناء زيارتي لوالديَّ لرؤيتها في نهاية الأسبوع. عندما لمحتني قادمة إلى المقهى، رسمت على ثغرها ابتسامة، واختفت التجاعيد التي كانت تحيط بعينيها اللوزيتين. لقد استعادت ضحكتها المعهودة واكتسبت صحَّة. أخذت نفساً عميقاً بعدما أشعلت كعادتها لفافة مالبورو، قبل أن تغوص في هاوية الذكريات:

- «حدث كل شيء بسرعة فائقة. كنت ألتقط صوراً في ساحة ولي عصر، في اليوم الرابع لبدء الاحتجاجات. قرَّرت الانضمام إلى الحركة تضامناً مع الطلاب. هل تتذكَّرين فروهر الذي لطالما حدثتك عنه؟ بعد وفاته، اعتراني اليأس؟ مكثت في المنزل مستسلمة، لم أعد أتَّصل بأحد، لكن مع أحداث حرق الحرم الجامعي، لمعت بارقة أمل. لقد قتلوا المفكِّرين، لكنهم لم يستطيعوا قتل أفكارهم. لذلك قرَّرت أن أنضمَّ إلى المحتجِّين.

عند رؤيته للكاميرا، صرخ في وجهي رجل من رجال الشرطة بلباس مدني، وسألني إن كنت صحفية. ودون أن تتاح لي الفرصة للرد، شعرت

بأيادٍ تقبض عليَّ بعنف. حاولت مقاومتها، دون جدوى. كانت العصي وضربات السكاكين تنهال من حولي على الشبَّان، والدماء تتفجَّر وتسيل في كل الاتجاهات».

أصغيت إلى نيلوفر باهتمام كبير. فهمت أخيراً، عند وصفها لظروف اعتقالها، لمَ أبدى عنصر المخابرات الذي حقَّق معي اهتماماً خاصّاً بموضوعها. لقد ارتكبت بالنسبة إلى النظام، جناية كبرى بتوثيقها أعمال شغب غير مسبوقة بعدستها، وتدنيس اسم المرشد الأعلى للمرَّة الأولى. من الواضح أنهم سعوا إلى إسكاتها وطمس شهادتها.

* «وبعدها، إلى أين أخذوك؟». سألتها.

- «اقتادوني كالمسرنمة برفقة متظاهرين آخرين إلى "عش الجواسيس". وهو اللقب الرسمي لسفارة الولايات المتحدة سابقاً، وقد تحوَّلت إلى مركز للاعتقال. في اليوم التالي عصبوا عينيَّ وانهالوا علي بالأسئلة عن الدين والسياسة وعن أفكاري. لم تكن لديَّ أي فكرة عمَّا ينتظرني. ثم قالوا لي بعد حين إنهم سيرحِّلونني إلى مكان آخر. ليس لإخلاء سبيلي، وإنما إلى ما أدركت لاحقاً أنه سجن التوحيد».

توقَّفت نيلوفر فجأة. خفضت رأسها، ومرَّت بيدها على عينيها، ثمَّ فمها وجبينها. ثم ألقت بعصبية نظرة خلف كتفها قبل أن نتذكَّر أنها في فرنسا، وأن احتمال أن تكون مراقبة هو احتمال ضئيل.

- «كان سجن التوحيد أشبه بكابوس، أُلقي بي هناك في زنزانة انفرادية ضيِّقة لا تتجاوز مساحتها مترين في متر ونصف. لا نافذة أطل منها. الجدران سميكة، والفراغ من حولي. عزلة تدفع إلى الجنون. من السقف، يتدلَّى مباشرة فوق رأسي مصباح نيون، يضيء ليل نهار. كان الضوء ساطعاً يؤذي العيون. هو أسلوب شائع لانتزاع الاعترافات قسراً من المعتقلين،

ويدعى "التعذيب الأبيض". وسرعان ما فقدت الإحساس بتعاقب الزمن. كان مكاناً خانقاً، مكاناً مسكوناً من الجن».

* «الجن؟». سألت، للتأكد من أنها تقصد تلك الأرواح التي تمتلئ بها أساطير الشرق الأوسط.

- «نعم، كانوا في كل مكان. عندما أكون غارقة في نوم عميق، يحدث أن أسمع أصوات موتى، فروهر، والدتي، كانوا يجتاحون أحلامي. يتحدَّثون بصوت عال جدَّاً، ثم أصبحوا يسكنون زنزانتي. كانوا يعيشون معي. وأحياناً كانوا من الأحياء، وكانوا يأتون للتحدُّث إليَّ. في إحدى المرَّات، جاء الرئيس خاتمي لزيارتي. نعم، نعم، وقال إنه حضر لمساعدتي وحاول تهدئتي وطمأنتي، غير أن الحرَّاس منعوه. وشرعوا في ضربه وانهالوا عليه باللكمات ثم طرحوه أرضاً، وانتهى به المطاف ملقىً على الأرض. كان أمراً مروعاً! لم أستطع تحمُّل منظره. بدا وكأنه لا يستطيع النهوض وسحب جسده المنهك إلى الحمَّام. رشُّوا وجهه برشقات من الماء، وحوله، كانت النساء يضحكن. خجلت، شعرت بالخزي، وبالضيق. كنت أصرخ بالجميع أن يتوقَّفوا! كفى! كفى! صرخت بهم».

كان وجه نيلوفر متوتِّراً من الخوف. وكلماتها غير مترابطة. ترتعد شفتاها، وتتيه نظراتها وتتشوَّش. أمسكت بيدها محاولة تهدئتها. هاجمتها صور من سجنها بين الخيال والواقع. هل كانوا يدسُّون لهم حبوب الهلوسة في طعامهم؟ أم كانوا يبثُّون في زنزانتها تسجيلات من مكالمات هاتفية أجرتها، وهي تقنية معروفة يستعملها المحقِّقون في سعيهم لانتزاع المعلومات من ضحاياهم؟ أم أن العزلة واليأس وقلة النوم وراء هلوساتها في أثناء احتجازها؟ حتى أنها تعتقد بأن العين الشريرة تلاحقها حتى فرنسا. كانت الأشهر الأربعة الأولى في السجن هي الأصعب، كان

الجلَّادون يوقظونها في فترات غير منتظمة، ويسوقونها معصوبة العينين عبر درج يؤدِّي إلى غرفة التحقيق. كم واحداً كانوا هناك؟ اثنان، ثلاثة، أربعة. من الصعب أن تتذكَّر لأنها لم ترَ وجوههم. استمرَّ التعذيب أحياناً لخمس ساعات. خمس ساعات يثبِّتون خلالها وجهها مواجه الجدار وينهالون عليها بالأسئلة: أين ولدت؟ ما هي مهنة والديك؟ أين أخوتك، أخواتك، أبناء عمومتك، أصدقاؤك؟ لماذا ذكرت في أطروحتك أن المرأة هنا لا تساوي إلا نصف رجل؟ لمَ خرجت في المظاهرات؟ ما هي العلاقة التي تربطك بفروهر؟ كيف تعرَّفت عليه؟ هل كنت تلتقينه بمفرده أم بحضور زوجته؟ من الواضح أنهم عندما لم يجدوا دليلاً ملموساً على موقفها المعارض للنظام، حاولوا تشويه سمعتها باتهامها بممارسة الجنس خارج نطاق الزواج، ما يعتبر جريمة يعاقب عليها بالرجم حتى الموت، وعندما ترفض الإجابة، كانوا يمطرونها بوابل من الشتائم. عاملوها وكأنها جاسوسة في خدمة فرنسا، ألمانيا، أمريكا. كانت خائنة، اتهموها بمحاولة قلب نظام الحكم. كانت تقول لنفسها: لو أنهم فقط يفهمون أن المعارضة أضعف من أن تطيح بالمرشد الأعلى. كان صمتها يثير حنقهم أكثر. وعندما ترفض أن تتجاوب معهم، كانوا يلجؤون إلى العنف.

- «كانوا يمدِّدونني على سرير ويكبِّلون معصمي وكاحلي، ثم يضربون أقدامي بالكابلات، وكلَّما صرخت، شعرت بالاختناق أكثر. كنت أتصبَّب عرقاً تحت برقعي. وإمعاناً في خنقي، كانوا يلفُّونني ببطَّانية صوفية في حرِّ الصيف! كنت أحاول نزع البطَّانية بأسناني في أثناء استجوابي لكي أتنفَّس قليلاً، ومع تكرار جلسات الاستجواب، كنت أفقد رشدي جزئياً. وكان من الممكن أن يتسبَّب هذا في موتي».

في صباح أحد الأيام، قال لها سجانوها إنهم سيحوِّلونها إلى المحكمة الثورية. أخيراً ستكون على موعد مع العدالة! حدَّثت نفسها بأن الأحكام

العرفية التي تفقد المرء رشده قد شارفت على الانتهاء. لحسن الحظ، استطاعت أسرتها معرفة موعد المحاكمة، غير أن الجلسة كانت مغلقة، دون مستشارين أو شهود. وبعد خمس دقائق من جلسة الاستماع، حكم عليها القاضي بخمس سنوات في السجن، سنتين مع النفاذ وثلاث مع وقف التنفيذ. والتهمة: التقاط الصور في أثناء الاحتجاجات، إهانة المرشد الأعلى، الإساءة إلى آيات القرآن الكريم. الخبر الوحيد المطمئن نسبياً هو أن تهمة التجسُّس تم سحبها.

التقت بصهرها وجهاً لوجه لدى مغادرتها المحكمة، ما كان دليلاً أنها على قيد الحياة! «لقد بحثنا عنك في كل مكان. حتى أننا ذهبنا إلى المشرحة». ولكنه بُهت عندما سمع بالحكم. «عليك أن تستأنفي!». قالها بانزعاجٍ وهو ذاهل. نيلوفر المسكينة كانت منهكةً لدرجة أنها قد فضَّلت أن توقِّع على الحكم دون اعتراض، وأن تقبل جميع التهم المنسوبة إليها خوفاً من أن يوقع بها القاضي أحكاماً أشد قسوة. كانت لهذا الحكم ميزة وحيدة: تحويلها إلى سجن إيفين الكبير إلى الشمال من طهران، غير بعيد عن جبل دركه حيث يعيش الزوجان الشابان من الباسيج. سُمح لها بعشر دقائق للزيارة كل أسبوعين، وكانت عمَّتها أولى الزائرات، وهي من روى لها كيف أنها بعد أيام من اختفائها، ذهبت إلى بيتها، لتجد أن المخبرين قد قاموا بتفتيش المنزل وقلبوه رأساً على عقب: سُحبت الأدراج من الخزائن، تضرَّر الأثاث واللوحات واختفت كتب نيلوفر من على الرفوف بما فيها أطروحة الدكتوراه عن المرأة الإيرانية. بدا المكان وكأنه تعرَّض لغزو البرابرة. احتاجت العمَّة إلى أسبوع لتعيد ترتيب الغرف كما كانت.

عندما أصبحت في إيفين، استعادت نيلوفر مظاهر الحياة الطبيعية. انتهى الاستجواب المتكرِّر وانتهى معه التعذيب والتهديد. ووجدت نفسها في سجن للنساء، تتقاسم العنبر مع نصف دزينة من السجينات

الأخريات. وسرعان ما أدركت أن عالم السجن أيضاً لم يسلم من التناقضات الإيرانية.

- «كانت زنزانتي تطلُّ على ممر يحوي ستَّ زنزانات أخرى، ومن الممكن في بعض الأحيان أن يصل العدد إلى أربعين امرأة في الزنزانة الواحدة. خلال النهار، تكون الأبواب مفتوحة، ويمكننا التحرُّك بحرية بين الزنزانات. حتى أنه كان لدينا الحق في نزع البرقع والتجوُّل بالبيجامات. في الصباح كانت هناك حصَّة للتمارين الرياضية على أنغام موسيقى أمريكية! وأمكننا مشاهدة التلفاز وأخذ دروس في الخياطة واللغات والأدب.

في المكتبة، من الممكن الحصول على الصحف اليومية: إيران، همشري، كيهان. وحتى أنني تمكَّنت في نهاية فترة محكوميتي من قراءة الكتب التي تحضرها عائلتي.

وهكذا قرأت "في الثورة" و"أصول الشمولية" لحنة آرندت. كانت لدينا أيضاً حديقة صغيرة، على الرغم من أن وقت التنفُّس كان سريعاً ما ينقضي، تخيَّلي: ثلاثمئة امرأة حُشرنَ في خمسة وعشرين متراً مربَّعاً. وسرعان ما أوضحت لي السجينات القديمات القواعد: إذا كنت تملكين المال، يمكنك الحصول على كل ما هو وراء القضبان، كالسندويشات، والشوكولا والسجائر والكحول والمخدرات! كانت هناك بيننا من تعودن على دفع الرشى. ببقشيش صغير، يمكنك شراء خدمات الحرَّاس-المهرِّبين. ويتحدَّثون عن الأخلاق الإسلامية! يا له من نفاق!».

كانت نيلوفر من سجناء الرأي. ولكن العمل السياسي في إيران جرم كأي جرم آخر، ولهذا كانت محتجزة في القسم نفسه مع السجينات الأخريات كالمجرمات والداعرات ومدمنات ومهرِّبات المخدِّرات، مع عدد قليل من السجينات السياسيات الأخريات من أعضاء حركة مجاهدي خلق، وهي جماعة مسلحة معارضة للنظام الإيراني.

- «كانت الحارسات يسمِّينهنَّ الإرهابيات أو الفوضويات» تقول نيلوفر. «وقد ألقي القبض عليهن قبل قيامهن بتنفيذ هجوم على مبان حكومية للجمهورية الإسلامية. بعضهن كن يقضين أحكاماً بالسجن لثلاثين عاماً، وبعضهن الآخر مدى الحياة».

في ليلة رأس السنة. شهدت نيلوفر وصول مجموعة من الفتيات المتبرِّجات، بكعوبهن المستدقَّة وبودرة الخدود، وقد أحبطت شرطة الأخلاق الإسلامية سهرتهن قبل أن تبدأ. ولكن أصعب اللحظات التي بقيت محفورة في ذاكرة نيلوفر كانت إعدام جاراتها في المهجع...

- «خلال عامين، حُكم على سبع من زميلاتي في السجن بالإعدام. ناهيك عن الرجال الذين أُعدموا في السجون الأخرى وأحدهم يدعى محمد رضا بدرام. كان ضابطاً سابقاً في سلاح الجو. لجأ إلى الولايات المتحدة، ثم عاد إلى البلاد عام 1996. ألقي القبض عليه بعد بضع سنوات بتهمة التجسس لصالح وكالة الاستخبارات المركزية. حُكم عليه بالإعدام، وقضى عشر سنوات في السجن قبل أن يتم تنفيذ حكم الإعدام به في أيار/ مايو من 2001. لماذا إذاً جعلوه ينتظر طويلاً إذا أرادوا قتله؟ لِمَ جعلوه يعتقد بأنه على وشك الحصول على الإفراج؟».

صمتت نيلوفر مرة أخرى وأطرقت رأسها. فركت عينها بيد متعبة وبالأخرى عبثت بعصبية بأعقاب السجائر التي كانت مكدَّسة في المنفضة.

- «في إيفين، كان الترقُّب ينهشنا. كلَّما صدر حكم بالإدانة، يمسك الموت بتلابيبنا. كانت السجينات يتساءلن: على من الدور في المرَّة القادمة؟ كانت الأيّام التي تمرُّ في انتظار تنفيذ حكم الإعدام لا تطاق. كنا نضيء الشموع ونصلِّي معاً جنباً إلى جنب من أجل المتوفَّاة، ونبقى في حدادٍ لأكثر من أسبوع.

إلى جانب ذلك كانت هناك حالات انتحار. رأيت بأم عيني فتيات يحاولن وضع حدٍّ لحياتهن عن طريق تناول بعض العقاقير، أو قطع الأوردة بواسطة قطع مكسورة من أكواب الشاي. وفي إحدى المرَّات حاولت إحداهن شنق نفسها بواسطة برقعها. امرأة تتدلَّى من برقعها! ما هي درجة اليأس التي توصل المرء إلى هذا الدرك؟ لم أتمكَّن من نزع تلك الصورة من مخيلتي».

تجربتي مع المخابرات الإيرانية كانت مجرد نكتة مقارنة بما قاسته نيلوفر وأولئك النسوة في الظلال والصمت.

* «والآن وقد أصبحت حرَّة من جديد، ماذا تنوين أن تفعلي؟». سألتها.

أدهشتني وهي تجيب دون تردُّد: «أعرف أن يديَّ مقيدتان في إيران. لقد جعلوني أوقِّع على وثيقة أتخلَّى بموجبها عن ممارسة أي نشاط سياسي عند إطلاق سراحي من السجن. ومع ذلك، أخطِّط للعودة في أقرب وقت ممكن. مكاني هو هناك. أريد أن أكون مع ناسي، أن أشم تراب بلدي، أن أذهب لزيارة قبر والديّ».

* «حقّاً؟ بعد كل ما عانيته؟».

- «طبعاً!».

* «ولكن لديك الكثير من الأصدقاء هنا في فرنسا، وبطاقة إقامة وشهادة تمكنك من التدريس في الجامعة. كما أنك عازبة، ولا يزال هناك متسع من الوقت لإعادة ترتيب حياتك هنا».

- «أعلم. ولكنني أشتاق إلى إيران، وأتوق إلى العودة».

يصعب الشرح ولكن الأمر كذلك.

لقد حسمت خيارها إذاً! انتهت عطلتها الفرنسية، وهي تريد العودة إلى

البلاد بأسرع ما يمكن! قد يفضِّل البعض المنفى على تلك الحرب اليومية ضدَّ نظام يستنزفك حتى النخاع. ولكن ما من شيء يوقف نيلوفر. كانت بالرغم من معاناتها مدمنة على هذا البلد الذي غفرت له كل شيء، كما تغفر بعض النسوة اللاتي تعرَّضن للضرب إساءة أزواجهن.

- «في السجن، أحسست بمشاعر تجاه إيران لم أختبرها من قبل. خلال كل تلك الأيام التي كنت فيها بمفردي، كنت أفكِّر. أكره الذين عذَّبوني، ولن أغفر لهم أبداً، غير أن الانتقام لا طائل منه! سجوننا مليئة بالأبرياء، ومفكِّرونا تمَّت تصفيتهم، ولكن هذا قد يكون الثمن الذي علينا أن ندفعه من أجل مستقبل أفضل. نحن لا نريد ثورة ثانية. نحن نناضل فقط من أجل الديمقراطية، إنما ليست الديمقراطية الغربية، كتلك التي يريد الأمريكيون فرضها على الشرق الأوسط.

أعتقد أنه يمكن أن يكون هناك حل وسط إن فصلنا الدين عن الدولة، دون أن نلغي رجال الدين. بالنسبة إليَّ، هناك أناس جيِّدون في هذه الحكومة، كأعضاء البرلمان من النساء، على سبيل المثال. فلْنعطِهم فرصة. قد تشهد إيران تطوُّراً على أيديهم وأيدي أمثالهم.

* «إذاً ما زلت متفائلة؟».

- «وهل أملك أي خيار آخر؟ هذا بلدي».

مع نطقها بتلك الكلمات، أخذ صوتها يرتجف، واحتقنت عيناها بالدموع ثم أُجهشت بالبكاء.

- «هل تعلمين؟ عندما قال داريوش فروهر إنه مستعد للتضحية بنفسه في سبيل إيران، كان من الصعب بالنسبة إليَّ أن أفهمه. لقد قال دائماً إنه سيموت واقفاً ورأسه مرفوع. عندما أفكِّر كيف علَّمني وزوجته أن أحب بلدي مع كل عيوبها. نعم، أنا أُحبُّ بلدي، ومتعلِّقة به إلى أبعد الحدود».

يا له من تفانٍ! نظرت إليها وهي تمسح عيونها وترفع رأسها.

- «تعلمين؟ سأفعل ما في وسعي من أجل بلدي».

كنت قد سمعت تلك العبارة في مكان ما. اختلطت كلماتها بشكل غريب مع كلمات محمود، الباسيج. ليس لديهما أي قاسم مشترك في المظهر، هي ذات المظهر الغربي، المعتنى به جيِّداً، التي تجيد عدَّة لغات. وهو الإسلامي ذو السراويل البشعة الذي لا يتكلَّم سوى الفارسية ويحلم بأن يصبح شهيداً. قد يكرهان بعضهما البعض إن اجتمعا. لكن ثمة رابطاً عميقاً وغير مرئي يوحِّدهما ضد كل شيء: الحب غير المشروط لبلادهما، تلك الوطنية الحسِّية تقريباً. التي تشكِّل الأساس الأكثر صلابة للهوية الإيرانية، تلك الوطنية التي أورثتَني إيَّاها، باباي، والتي سيكون من شأنها، بمرور السنين، أن تسكنني هي الأخرى في نهاية المطاف.

في 14 من آب/ أغسطس عام 2002، تصدَّر بلدك من جديد عناوين جميع الصحف. كشفت مجموعة مجاهدي خلق المعارضة من منفاها الفرنسي، عن وجود موقعين نوويين سِرِّيَّين، ودعَّمت الخبر بالصور: مركز لتخصيب اليورانيوم في نطنز، ومصنع للماء الثقيل في أراك. وسرعان ما عادت الجمهورية الإسلامية إلى دائرة الضوء. توقَّفت التقارير والريبورتاجات حول المجتمع المدني والشباب الإيراني، ومستقبل الإصلاحات. وغدا كل ما له علاقة بالمجتمع والسياسة في خبر كان.

سؤال واحد كان يشغل رؤساء التحرير في باريس: هل تريد إيران القنبلة؟ في اليوم التالي، احتل أسطول من الخبراء المتخصِّصين المنصَّات المتلفزة للقنوات الغربية على وجه السرعة، وأخذوا يُضجِرون المتفرِّجين بمصطلحات عسيرة على الهضم كالكعكة الصفراء واليورانيوم والبلوتونيوم وأجهزة الطرد المركزي، والنظائر المشعَّة. شرع بعضهم بقرع ناقوس الخطر، محذِّرين من خطر وشيك على كوكب الأرض. على العكس من ذلك، تساءل البعض الآخر عن سبب تأخّر نشر تلك المعلومات التي كانت معروفة بالفعل من قبل أجهزة الاستخبارات الغربية. في النهاية، يرجع برنامج إيران النووي الذي توقَّف مؤقَّتاً بعد الثورة إلى زمن الشاه. ولكنها كانت، في صيف عام 2002، صدفة ذهبية لبعض المحافظين الجدد في واشنطن لتعزيز فرضية "محور الشر" الشهيرة التي نادى بها جورج دبليو بوش.

كان رد فعل السلطات الإيرانية على الفور: الطاقة النووية لغايات

سلمية هي حقُّنا الثابت. بدأ علي خامنئي يحاجج بكل الوسائل مكرراً أن القنبلة النووية "حرام" ما يعني أنها "مخالفة للشريعة". لماذا هم وليس نحن؟ زايدت الحشود، في إشارة إلى بلدان نووية أخرى كإسرائيل والهند وباكستان. التي لا تلقى الاعتراضات نفسها كإيران. ثم أعلنت طهران، بصفتها دولة موقِّعة على معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية التابعة للوكالة الدولية للطاقة الذرية منذ عام 1986، أنها ليست ملزمة بالإعلان الدوري عن نشاطها.

من علينا أن نصدِّق في خضم هذا الطوفان من المعلومات المتناقضة التي لا سبيل للتحقُّق منها؟ بمن علينا أن نثق؟ ما هو الدليل الموضوعي الذي علينا أن ننشده؟ مرَّة أخرى، شعرت بأثر غيابك. كانت معرفتك لتكون عونا كبيراً بالنسبة إليَّ. في خضم هذا السباق المحموم إلى المعلومات، لم يكن هناك، لسوء الحظ مجال للتفكير ولا للتحقُّق. انهمرت الطلبات والأوامر من باريس. كان عليَّ في ظرف أربع وعشرين ساعة أن أبرهن بالدليل القاطع، أن آيات الله الأشرار في طهران يريدون القنبلة... وبتلك السرعة، كان من المستحيل إيجاد أي خبير لمحاولة فكِّ هذه الشيفرة. كانت لدي صديقة تعمل كمهندسة نووية، ولكنها لم تجب على اتصالاتي. في حصَّة اليوغا التي تعارفنا خلالها، كان مكانها خالياً، كما لو تبخَّرت!

علمت فيما بعد، أن العاملين في منظمة الطاقة الذرية الإيرانية، أُوعز إليهم بالابتعاد عن الصحافة الأجنبية، تحت طائلة المسؤولية الجسيمة.

إلى أي قدِّيس عليَّ أن أتضرَّع؟ إلى أيِّ إمام؟ هل عليَّ أن أكون كغيري من الصحافيين الذين يحابون طهران؟ وهل هذا يعني أن أمالئ وزارة الثقافة، علِّي أكون واحدة ممن سيختارونهم للقيام بجولة تعريفية تحت حراسة مشدَّدة لواحد من المواقع النووية.

تمكَّن أكثر الصحافيين حظاً من الحصول على تصاريح دخول مع إجراءات أمنية مشدَّدة لنطنز أو آراك. أمَّا أنا، فسوف أحصل بعد سنوات على جائزة الترضية: بوشهر! الميناء الجنوبي الذي يأوي الموقع الذي بُني بإشراف شركة سيمنس الألمانية، وعلِّقت أعمال الإنشاء فيه بعد الثورة عام 1979 قبل أن يستأنف الروس المسيرة عام 1995. ولكن ما الذي قد نتوقَّعه من جولة خاطفة من خلف زجاج الحافلة التي تقلُّنا من منشأة إلى أخرى كدببة في قفص تحت رقابة العين الساهرة لمجموعة من حرَّاس اليورانيوم؟ كنت لأفضِّل إضاعة الوقت في تناول السمك المشوي والقريدس المنكَّه بالتوابل بدلاً من ذلك، إحياءً لذكرى زيارتي الأولى لشواطئ الخليج الفارسي.

لم يكن ما رأيته من كل هذا العرض الكبير بالشيء المهم، اللهم إلا منصَّات إطلاق الصواريخ المنتشرة على طول الطريق المؤدِّي إلى الموقع، أولى أمارات الاستعداد ضد التهديدات الخارجية.

والأهم، نعم الأهم. كانت رؤية الآلاف من الخبراء الروس الشهيرين، بشعرهم الأشقر وبشراتهم المحمرة من الشمس، يتعرَّقون على دراجاتهم وهم ينتقلون يومياً في حرارة هذا الأتون الخانق، بين المنشآت النووية ومساكنهم. وبمجرَّد الدخول إلى هذا المجمع الضخم الذي كان أشبه بمدينة داخل مدينة، يصبح كل شيء متاحاً: سوبر ماركت خاص، بيرة بالتيكا بدون كحول، مدرسة خاصَّة لأبنائهم. بعيداً عن الأنظار، حتى أن زوجاتهم لم يكن يرتدين الحجاب. تختلط الحقيقة بالخيال مرَّة أخرى!

كنت متعبة من الدوران في تلك الحلقات المفرغة. تريد إيران تطوير ترسانة نووية ولا شك. ولكن في الوقت الذي كان فيه الإيرانيون متوتِّرين

بقدر ما كان العالم يسعى إلى تقديم تنبؤات مستحيلة لإحصاء السنوات التي تفصل إيران عن امتلاك القنبلة المزعومة، كان هناك سؤال آخر يؤرِّقني: لمَ؟ نعم، لمَ كانت الجمهورية الإسلامية مهووسة بهذا السباق النووي؟

عند سفح جبل زاغروس، على بعد عشرة كيلومترات من الحدود العراقية، سأجد في نهاية المطاف نوعاً من الإجابة، بعد بضعة أشهر. في وسط اللامكان. بعيداً، بعيداً عن عدسات الكاميرات الغربية. في بقعة صغيرة نسيتها الخرائط وحفظتها ذاكرة الإيرانيين كوصمة عار لا تُمحى. سردشت، الضائعة في عمق جبال أذربيجان الغربية، كانت أول مدينة ذهبت ضحية أسلحة صدَّام حسين الكيماوية خلال الحرب بين إيران والعراق، وبصمت دولي مطبق. وسيكون لهذا الهجوم في 28 حزيران/يونيو 1987 نتائج قاتلة على مستقبل إيران، وسبباً في ردٍّ فعل طهران القومي، وتصميمها على الدفاع عن نفسها مهما كلَّف الأمر.

جلست في كرسي من الجلد الأسود قدَّمه لي مصطفى أصاغ زاده، رجل ضخم بشارب كث ولكنة كردية وعينين بلون خشب الأبنوس. من نافذة منزله في سفح التلة، يلوح في الأفق مشهد مرسوم ذو جمال فريد. أحزمة من أحراش الصنوبر تطوق الجبال. أشجار الرمَّان تنوء بثمارها الناضجة، تداعبها نسائم الصباح. ينشغل في وسط الحقول فلاحون بشراويلهم الفضفاضة التقليدية بقطاف التفاح. وتستقر رزمة من الخبز الكردي على غطاء رأس فلاحة ترتدي ثوباً منمَّقاً بالشذرات البرَّاقة الملوَّنة وهي تسير بخفَّة. لمحت قوس قزح يرتسم على الشلَّالات ويتوارى بين الصخور. منظر خلاب أشبه بالمناظر المرسومة على البطاقات البريدية! ولكن الصورة المثالية جمدت فجأة عندما بدأ مضيفي يستعيد الماضي فيما كنا نحدِّق من النافذة.

- «في الماضي، كانوا يلقبون سردشت بـالجنة». همس مصطفى أصاغ زاده.

بعيون مطفأة، تناول مصطفى ألبوم صور صغير من على الطاولة. وناولني إياه بحركة بطيئة وخرقاء.

في صورة جماعية مصفرة بفعل الزمن، تظهر أسرته بكامل أفرادها. تعلو البهجة وجوه النسوة وعلى رؤوسهن استقرَّت أوشحة ملوَّنة، يحمل الرجال أطفالاً على أذرعهم وتوحي ابتساماتهم أنهم كانوا أشخاصاً سعداء.

- «إنه كل ما تبقَّى لي من عائلتي، هذا كل ما تمكَّنت من إنقاذه».

* «ما الذي حدث بالضبط؟»، سألته.

أخذ نفساً عميقاً قبل أن يفتح قلبه الجريح:

- «كانت الساعة نحو الرابعة من بعد الظهر يوم 28 من حزيران/ يونيو عام 1987

كنت أبلغ من العمر آنذاك 18 عاماً، وأؤدِّي خدمتي الإلزامية في طهران. أمَّا والداي فقد بقيا في سردشت. في ذلك اليوم، اتصل بي صديق من تبريز: لقد هاجموا سردشت! هاجموا سردشت! كان يصرخ مذعوراً. في البداية لم أُعِر الأمر اهتماماً، فمنذ بداية الحرب وقوَّات صدَّام لا تنفك تهاجم بانتظام قواعد الجيش الإيراني والمتمرِّدين الأكراد في ضواحي المدينة، وكان الناس معتادين على الاحتماء في الملاجئ. ولكن صديقي أصر: سقطت إحدى القنابل قرب منزل ذويك. وتم نقلهم إلى المستشفى.

إلى المستشفى!

لم أصدِّق أذنيَّ. استُهدف مركز المدينة هذه المرة! منطقة سكنية! عليَّ أن أعود إلى المنزل بأقصى سرعة. قدت عائداً إلى سردشت مذعوراً،

وعند وصولي إلى المستشفى، أدركت حجم الكارثة: كان عدد المصابين من الكثرة بحيث أنهم مُدِّدوا أرضاً حتى الباحة. كان هناك على الأقل سبعمئة شخص يتكدَّسون تحت الشمس الحارقة!

وممَّا يثير الدهشة، أن لا آثار لخدوش أو كسور تظهر على المصابين. غير أن إصاباتهم لم تكن عادية: احمرار في العيون وطفح جلدي وضيق في التنفُّس كالصفير. نظرت إلى أسفل فوجدت بجانبي امرأة تختنق وتتقيَّأ دماً، ورجلاً يتوسَّل الممرِّضين من أجل أن يحقنوه بالمورفين لتسكين الحكَّة. على مسافة قريبة كانت هناك جثة لطفل ممدَّدة على الأرض، بعجز تلمست طريقي. سردشت، يا جنتيَ الصغيرة، ماذا فعلوا بك؟ وعائلتي؟ أين هي؟ بحثت بيأس عن والديَّ في وسط تلك الفوضى، دون جدوى. ثم اقترب مني طبيب وقال: آسف، حقَّاً أنا آسف. في البداية لم أفهم. أجبته: نحن جميعاً آسفون، أجبته. لا، أنا آسف من أجلك. لقد وصلت بعد فوات الأوان. تُوفِّي والدك. ووالدتك أيضاً، أضاف.

والداي! وقعت منهاراً على ركبتيّ...».

أطرق مصطفى وهو يتنفَّس بصعوبة. كان وجهه شاحباً وبدا على حافَّة الإغماء. أدهشتني دقَّة وصفه والطريقة التي كان يتحدَّث فيه عن الماضي في الحاضر. كنت أريد أن أسمع البقية، على الرغم من أنني كنت قد خمنت نهاية قصَّته المأساوية.

- «تبعت الطبيب الذي أشار إليَّ بذلك، وأنا ما أزال تحت تأثير الصدمة. اجتزنا ممراً طويلاً كمن يعبر الجحيم. كان المصابون يستندون إلى الجدران وتتردَّد صرخاتهم إلى اللانهاية. كانت الممرِّضات الشاحبات من الإعياء يلوِّحن بشفرات الحلاقة قائلات إنه يجب أن تُفصد البثور. ينفجر طبيب مقيم في البكاء رافعاً ذراعيه نحو السماء، مناشداً الله من

أجل مساعدته على فهم هذا الوباء الغريب الذي حلَّ بسردشت. ويصرخ قائلاً إن ثماني قنابل فقط سقطت على المدينة. ثماني قنابل لا ينبغي أن تسبِّب هذا القدر من الضرر! ثماني قنابل. عندما حاولت أن أعرف المزيد، قيل لي أن رائحة غريبة كرائحة الثوم والتفاح كانت تطفو في الهواء، وأن سحابة من البودرة اجتاحت المدينة. ظاهرة غريبة، لا يمكن تفسيرها. أخذني الطبيب من يدي، وفتح باباً. كان هناك شاب يرقد على سرير وهو يختنق ويسعل، ويخترق أنبوبٌ حلقه. كان هذا هادي، أخي الأصغر البالغ من العمر 14 عاماً! بالكاد تعرَّفت عليه. تمتم بكلمات غير مفهومة كمواء القطط. لم يعد في إمكاني أن أكبح دموعي. وعدته وأنا أمسك بكتفه أن أعثر على أفراد الأسرة الآخرين أحياء. ولكن بعد ساعات، عثر على جثة أخي علي في المشرحة. بين المستوصف والمستشفى، علمت أخيراً أن جميع إخوتي وأخواتي الأخرين قد لقوا حتفهم. وجداي أيضاً! وبعد أربعة أشهر رحل هادي هو أيضاً، آخر من بقي لي من عائلتي وسبب وجودي. أصبت بالجنون!».

نهض مصطفى، أغلق الألبوم وألصق وجهه بالنافذة. شتَّان ما بين ذاك المنظر الوادع، وبين ذكرياته المريرة. خيَّم صمت طويل على الغرفة وبقيت ملتصقة في كرسي خوفاً من كسره.

بعد دقائق، استدار نحوي أخيراً قبل أن يهمس وقد ادلهمَّ وجهه:

- «تعلَّمت مع مرور الوقت أن أتقبل هذه اللعنة، وأن أدجِّنها، ولو أن الشر لا يُمحى».

أشار إليَّ مصطفى أن أتبعه لكي يدلَّني بيد ترتجف على حجرة من حجرات منزله تم تجديدها مؤخَّراً.

- «هل ترين هذا الجدار؟ إنه لا يزال موبوءاً. قبل بضعة أشهر، عندما

قام العمال بصنفرته قبل الطلاء، بدأت عيونهم تنتفخ وتحمر. وقد لوَّث الغاز البشر والمنازل والأرض، والهواء، وربَّما المياه. إنه فيروس غير قابل للشفاء».

إن قصصاً كهذه في سردشت لا يخلو منها منزل. فوراء كل باب تختبئ قصَّة جديدة أشدُّ إيلاماً. التقيت في اليوم نفسه حسين محمديان. يدير هذا المزارع الكردي ذو الأربع والأربعين عاماً جمعية محلية لمساعدة الأشخاص كمصطفى. هو موسوعة حقيقية متنقِّلة، يعرف أدق التفاصيل عن تلك المأساة لكونه أيضاً أحد ضحاياها، وقد نجا منها بأعجوبة. في يوم الهجوم، كان في طريقه الى دكَّان البقالة في الحي الذي يسكنه. التصق بالأرض تحت تأثير الانفجار، وزحف حتى منزله، ثم قام بنقل زوجته وثلاثة أبناء صغار في سيارة لاند روفر قديمة وفرُّوا من المدينة بأسرع ما يمكن. لم يمضِ أكثر من ستٍّ ساعات حتى بدأ يشعر بضيق مقلق. وما يزال يذكر كل تفاصيل هذا النزول إلى الجحيم:

- «لقد فقدت بصري فجأة! إلا أنني لم أكن مصاباً بأذى. وبعد ذلك أخذ صوتي يتلاشى، وبدأ جلدي يحكُّني بشكل لا يطاق. وفي مستوصف قرية مجاورة، أدركت أنني لم أكن الوحيد. فوفقاً للأطباء، كان ثلث سكَّان سردشت على الأقل، البالغ عددهم نحو عشرين ألف نسمة، يعانون من الأعراض نفسها. وتوفي المئات كوالدَي مصطفى. بُهت الأطباء الذين كانوا عاجزين عن وضع أي تشخيص. ثم تم إجلاؤنا إلى طهران واحداً تلو الآخر. وبعد أسبوع واحد فقط، نُقلتُ إلى إسبانيا، حيث انتهى الخبراء في أحد المستشفيات المتخصِّصة إلى تشخيص حالة تسمُّم بغاز الخردل».

لقد استخدم صدَّام حسين الغاز الكيماوي! بالرغم من أن العراق قد وقَع عام 1925 على ميثاق جنيف لحظر استخدام هذه الأسلحة. كيف يمكن تبرير جريمة استهدفت المدنيين عمداً كتلك؟ طالت الحرب

لسنوات حتى بدت وكأنها بلا نهاية، وحملت معها كل يوم دفعة جديدة من الشهداء. لسنوات، هدد الرئيس في بغداد أعداءه الإيرانيين بالأسوأ، ولكن أحداً لم يجرؤ قط أن يتخيَّل شعباً بأكمله يدفع الثمن. هل سعى الرئيس العراقي المنهك من قوة المقاومة الإيرانية، إلى وضع حد جذري للصراع؟ أم أنه أراد أن يعرقل اجتماعاً سرياً علم بترتيبه بين المعارضين الأكراد والمسؤولين الإيرانيين؟

- «للأسف، بقيت كل تلك الأسئلة، إلى اليوم، دون إجابة». قال حسين محمديان.

* «ولكن كيف ذلك؟ بالتأكيد أجريت تحقيقات دولية، وعكف المختصون دون شك على دراسة تلك المسألة...».

- «كلا، أقسم لك... أنت تعلمين أن التحقيق في استخدام الأسلحة الكيماوية سيتطرق دون شك إلى المورِّدين الذين باعوا الأسلحة الكيماوية لصدام: شركات أوروبية وأمريكية كبيرة... وبالتالي، لا مصلحة للغرب في إثارة هذه القصَّة. وعلاوة على ذلك، فإن أحداً لم يحرِّك ساكناً بعد الهجوم، ووقف الغرب صامتاً متفرجاً، فكانت تلك هي القنبلة الثانية التي أصابت سكَّان سردشت. قنبلة آثارها أقل وضوحاً ولكنها أكثر غدراً!».

وفقا لحسين محمديان، لم يشجع الصمت الدولي صدام حسين على مهاجمة حلبجة في كردستان العراق بعد بضعة أشهر في هجوم كيماوي راح ضحيته خمسة آلاف شخص فحسب، بل أيضاً على مواصلة الهجمات الكيميائية ضد إيران. حيث استهدفت ما مجموعه ثلاثمئة وستون قنبلة كيماوية الجيش الإيراني وأهداف مدنية.

كانت الأمم المتحدة المنظمة الوحيدة التي قامت آنذاك بما يشبه التحقيق. أرسلت سبع بعثات تقييم طوال فترة الحرب. ولكن قراري

مجلس الأمن لم ينصفا سكان سردشت. كان أولهما في 9 أيار/ مايو 1988 حيث أطلق المجلس تحذيراً مبهماً للبلدين للكف عن استخدام القنابل الكيماوية. والثاني في آب/ أغسطس عام 1988، وجاء فيه أن الغاز الكيماوي استخدم ضد إيران دون ذكر مصدره: العراق.

- «حتى الأمم المتحدة خذلتنا... حتى الأمم المتحدة!». أردف حسين محمديان.

ثم صمت. وقد تهدج صوته واحمرَّت عيناه. تسارعت أنفاسه، فمدَّ يده إلى جيبه بحركة بطيئة باحثاً عن بخاخ الفينتولين، العلاج الوحيد لمرض الربو الكيماوي. عندما سكن سعاله، أوضح لي أن هناك ثلاثة آلاف مصاب -من أصل خمسة وأربعين ألفاً في كل البلاد- يتلقون رعاية خاصة. ذهبنا معه للاجتماع بالضحايا الآخرين الذين لم تتبقَّ لهم سوى الكلمة للتنفيس عن آلامهم.

أتذكر هذا الرجل العجوز ملقياً على وسائد، تغطي صدره تحت قميصه علامات حروق غريبة.

- «هل كنا نستحقُّ ذلك حقاً؟ لم تهاجم إيران بلداً قط! هذا ليس عدلاً!». قال محتجاً.

أسرَّت إليَّ امرأة أخرى قابلتها في شقته المتواضعة، بصوت منخفض، عن معاناتها لعدم تمكُّنها من الحمل والولادة. كان العقم أحد الآثار الجانبية الكثيرة التي تُعزى إلى الغاز. «مفعول غاز الخردل بطيء. وهو يتغلغل في الأنسجة، ويؤثر في الحمض النووي ويمكن أن يظهر بعد سنوات عديدة». قال لي الطبيب. فكَّرت مرة أخرى في والد سپيده، الطالبة الشابة. لم تظهر عليه الأعراض إلا بعد عشر سنوات من تعرُّضه للغاز الكيماوي على جبهة الحرب. كان واحداً من آلاف الضحايا!

وعند مغادرتي، أصر حسين أن نتناول معاً كأساً أخيراً من الشاي عند الشلال الجميل الذي ظل مركز جذب تلك المدينة المصابة، تأملنا صامتين هذا السيل من المياه الذي ينساب على الصخر. ثم أضاف بلهجة يشوبها الحنين:

- «بالرغم من هذا المنظر الريفي الوادع، لن تعود سردشت، جنتنا الصغيرة كما كانت من قبل».

فكَّرت منذ وقت طويل في تلك القصص. كانت أفضل تفسير عن ميل أبناء بلدك للشعور بأنهم ضحايا، وهوسهم المتفاقم بالحماية خصوصاً عندما يتعلق الأمر بالقوى الكبرى. وهو ما يدفع للتساؤل عما إذا كان البرنامج النووي، إلى حد ما، هو نتيجة للضربات الكيماوية التي نفَّذها العراق في ظل أكبر لا مبالاة دولية.

في نهاية الحرب، عام 1988، استخلصت الجمهورية الإسلامية من مأساة سردشت درسين: أوَّلهما أن تتجنَّب الوقوف في موقف الضعيف ثانيةً، وثانيهما ألا تثق أبداً بالاتفاقيات والمعاهدات الدولية.

بدافع شعورها بالارتياب، أرادت السلطات امتلاك الوسائل التي تسمح لها بدرء أي خطر مستقبلي بأي ثمن.

إذا كان استخدام الأسلحة البيولوجية غير إنساني، فيجب علينا الاستمرار في تطويرها للدفاع عن أنفسنا، أعلن آنذاك علي أكبر هاشمي رفسنجاني، ثم أضاف رئيس مجلس النواب: علَّمتنا الحرب أن القوانين الدولية هي مجرَّد حبر على ورق. لطالما نظر الغرب إلى الجمهورية الإسلامية كقوَّة مهدِّدة، مستعدة لتصدير الثورة الإسلامية ودعم الإرهاب، وضرب إسرائيل بالصواريخ وتصنيع قنبلتها. ولكن بعد سنوات قضيتها في بلدك، أصبحت على وعي متزايد أن تاريخ إيران المعاصر من

وجهة نظر الإيرانيين وخلافاً للمعتقد السائد، هو عبارة عن سلسلة من المؤامرات، غالباً ما يحيكها الغرب. في عام 1906، عندما سحق الملك الثورة الدستورية، كان ذلك برعاية من البريطانيين والروس، الذين أرادوا وضع حد لتلك التجربة الديمقراطية الجديدة في الشرق الأوسط. وفي عام 1953، لم يكن الانقلاب ضد رئيس الوزراء مصدق، بطل تأميم النفط واستقلال البلاد ليحدث، لولا تدخل الأمريكيين. وكان أحد أسباب التفاف الجماهير حول ثورة 1979، هو وعدها بتحرير البلاد من السيطرة الأجنبية.

وبعد أعوام، في عام 2005، قام الرئيس محمود أحمدي نجاد بتوظيف شبح المؤامرة الخارجية لخدمة أغراضه السياسية. فباسم العدو الخارجي، واللعب على الوتر القومي الإيراني، نجح نجاد في إحكام قبضته على المجتمع وتسريع البرنامج النووي، الذي عُلِّق خلال المفاوضات التي بدأها خاتمي في عام 2003 مع الغرب. ولكن هذا ليس بيت القصيد.

في شتاء 2002، توجهت الولايات المتحدة إلى العراق -بعد فوات الأوان!- باتهامات لحيازتها أسلحة دمار شامل. الأسلحة التي، ويا للمفارقة، لم يعد لها وجود بعد خمسة عشر عاماً على الهجوم ضد سردشت...

بدأت السلطة في طهران ترتعد خوفاً، لأنها كانت على قائمة حملة جورج بوش الصليبية لمكافحة الإرهاب، فبعد استهدافه لأفغانستان جاء دور العراق، بلد آخر مجاور لإيران. متى سيأتي دورنا؟ كان الإيرانيون يتساءلون. في وقتٍ كان فيه وَقْع الأحذية العسكرية يسمع في بغداد، بدأت إيران بالانكفاء قليلاً على نفسها. وقررت السلطات في طهران مهاجمة الهدف الأول الذي كان في متناول اليد كرد فعل وقائي جديد:

وسائل الإعلام الغربية. ففي اليوم الأول من العام الجديد 2003، رن جرس الهاتف. كانت مكالمة من وزارة الثقافة أبلغوني فيها دون سابق إنذار بسحب بطاقتي الصحافية. وبهذا أصبحتُ عشية الغزو الأميركي للعراق، شخصاً غير مرغوب فيه في بلدك.

فُتح الباب. رجلان، عرفتهما على الفور، ملامح مجهدة، أكتاف مربعة. ألصقا ظهريهما بكرسييهما. وفيما عدا بعض الشيب في الشعر، لا شيء فيهما قد تغيَّر.

- «خانوم مينوي! مرَّ وقت طويل». استهل المحقق ذو الأصابع الناقصة.

أربع سنوات بالفعل. مرَّت أربعة أعوام على استدعائي. إلى جانب رئيس المحققين، كان المساعد نفسه وقد تكوَّم في كرسيه يراقبني بصمت. بعد أن استجوباني في المرة السابقة في "مكتب الأجانب" فضَّلا اليوم استدعائي إلى مكان أكثر غرابة: غرفة فندق من الفنادق الكبيرة في العاصمة. حضرت وأنا أجرجر قدميَّ. بعد أيَّام من سحب رخصتي، اتصل بي "الرئيس" وأبلغني بإيجاز وبدون إبداء سبب معين أنه يريد أن يراني.

* «مرحباً». قلت وأنا أدخل الغرفة.

- «اجلسي!».

ارتعدت عندما أغلق الباب خلفي تلقائياً. جلست في الكرسي الفارغ استجابة لأوامره. وبيننا طاولة القهوة. للحظة تساءلت إن كنت سأستجوب مرة أخرى بسبب نيلوفر التي أقدمت على خيار محفوف بالمخاطر بالعودة إلى إيران. ففضلنا كإجراء وقائي ألا نرى بعضنا البعض. ولكن للمفاجأة، لم يكن هذا هو السبب، لقد كنت أنا من يسعيان وراءها.

- «حسناً، يبدو أن بطاقتك الصحافية قد سحبت منك»، قال مستبقاً. ومن عينيه أطلت نظرة مملوءة بالسخرية.

ثم أضاف: «ليس لطيفاً ما حصل... أتعلمين لماذا قاموا بذلك؟».

* «مم، كلا»، أجبته.

- «هناك سبب. فكري قليلاً...».

خيَّم صمت متوتر. لم أكن أعرف ما إذا كان ذلك بسبب مقال أو مقابلة على وجه التعيين. في الأشهر الأخيرة، كانت تقاريرنا تُدقَّق في مكتب الرقابة التابع لوزارة الثقافة، حتى شاع أن لكل صحافي رقيبه الخاص، وكانت مهمته تشريح المقال وترجمته ووضع خطوط عريضة تحت المقاطع التي يراها إشكالية وتتجاوز الخطوط الحمراء التي تتغير باستمرار. ثبَّت المحقق الأبتر نظره في وجهي محدقاً فيه دون كلل ودون أن ينطق بكلمة، وغلفت المكان بطانة ثقيلة من الصمت.

- «إذاً؟»، استأنف ساخراً. «هل حقاً لا تعرفين لماذا؟».

* «كلا»، أجبته.

بالتأكيد، لم تكن تنقصهم الأسباب لاستدعائي. بدأت أراجع في رأسي الموضوعات التي عملت عليها في الآونة الأخيرة ويحتمل أن تكون مثيرة للريبة. هل سيعاقبونني بسبب زيارتي لابن منتظري؟ أم بسبب الفلم في جبل دركه؟ أو قد يكون بسبب زيارة الباسيج...

- «أرى أنك أصبحت حتى أقل ثرثرة من المرة الماضية»، أردف بهدوء. ثم غاص في كرسيه، وأخذ يمسد حوافه بيده الكاملة. ثم غير من لهجته:

- «في أربع سنوات، قمت بالتآلف مع هذا المكان، بلد أصولك، أصبح الآن بلدك إلى حد ما. أصبحت مفرداتك الفارسية أغنى، تسافرين كثيراً ولديك الكثير من الأصدقاء الجدد، حتى أن جدتك استطاعت أخيراً أن تلين من عريكتك على ما يبدو».

إذاً كان من المستحيل إخفاء أي شيء عنه. تابع المحقق قائلاً:

- «هل تحبين إيران؟».

* «نعم». أجبته دون تردد.

- «هل ترغبين في البقاء هنا؟».

* «نعم». كرَّرت.

- «لا تقلقي، سوف نجد حلاً».

أصبح صوته عذباً فجأة، وودوداً تقريباً. بدا كأنه يحاول طمأنتي. في مقابل صمتي، كرر في لهجة متعاطفة عزمه على مد يد المساعدة، وقال إن أسباب سحب بطاقتي الصحافية لا تعنيه. وإنه يجد أن هذا أمر مؤسف للغاية. وأن هناك سوء تفاهم ولا شك. سوء تفاهم بسيط. وكرر مرة أخرى بأنني يجب ألا أقلق. وأن هناك ربما حل. وأنه يعلم كم أحب إيران. في النهاية، أنا "هموطن"، مواطنة، وهو مستعد لمساعدتي.

- «لقد وجد الأصدقاء لهذا الغرض، خانوم مينوي، أليس كذلك؟».

أصدقاء؟ لم أعرف بماذا أجيب. لقد تغيَّر بطريقة مفاجئة. لم أكن أرى إلى ماذا يرمي. توقف لبرهة. واعتدل في جلسته ثم ابتسم ابتسامة مزيَّفة. وقع بصره على باب الغرفة المقفل. وهنا عرض عليَّ الصفقة، صفقته الشهيرة: استعادة تصريحي مقابل خدمة.

* «ما هي؟». أخرجتني هذه الكلمة من صمتي.

أجبت بسرعة. بسرعة كبيرة. تعجلت الحصول على بطاقتي الصحافية، فلم أتصور ما قد يحدث.

- «خدمة صغيرة لنا، لا تكاد تذكر. في المرة القادمة التي تذهبين فيها إلى باريس، تذكري أن تحضري لنا قائمة بالإيرانيين الناجحين الذين يعيشون في فرنسا».

الأمر لا يتعدى ذلك: جرد بسيط للإيرانيين المشهورين، الراقصين، المصوِّرين والأطبَّاء. كنت أعرفهم بالجملة. إلى جانب ذلك، عُرِف عن إيرانيي الشتات نجاحاتهم المهنية.

إن ساعة أقضيها في تصفح الإنترنت ستكون كافية لوضع هذه القائمة المنشودة دون بذل جهد يذكر.

* «حسناً». قلت ببراءة، مطمئنة لبساطة طلبه.

رسم ابتسامة على وجهه. وبدا راضياً.

- «حسناً، أراك عند عودتك!».

ثم اتجه نحو الباب. ابتسم لي من جديد بنفس الابتسامة الكاذبة والباردة. ثم وضع يده على مقبض الباب.

- «أنا أعوِّل عليك، سيدة مينوي».

* «إلى اللقاء»، أجبته.

لم أدرك ما كان يرمي إليه في الحقيقة إلا بعد أن أصبحت في باريس. كان يريد تجنيدي! أراد أن يجعل مني عميلة لصالحه. كان عليَّ أن أنتظر كي أصبح خارج الحدود الإيرانية من أجل أن أفهم أن صفقته لم تكن أقل من عرض بالتعاون مع جهاز المخابرات. مباشرة أصبح كل شيء أكثر وضوحاً وفهمت بشكل أفضل مراد السيِّد فِنجر[1].

استغل السيد فِنجر - كما سألقِّبه من الآن فصاعداً بسبب أصابعه المفقودة - لحظة ضعفي، وأدرك حساسية مشاعري، وعرف أنني عشقت هذا البلد الذي أصبحت مسكونة به منذ أربع سنوات. لم يكن هناك ما هو سري في أسماء الرجال والنساء الناجحات. ولكن موافقتي على إرسال

(1) Finger أي الإصبع.

هذه المعلومات، هي ضمنياً موافقتي على أن أكون منهم، ومن يدري ما قد يطلبونه مني بعد ذلك؟

بعد أسبوع على عودتي إلى إيران، رنَّ جرس الهاتف. وعلى الفور خمَّنت من كان المتصل. ضرب لي السيد فنجر موعداً في اليوم التالي في كافتيريا الفندق نفسه. توجب عليَّ أن أذهب، دون حماسة. كان ينتظر ووجهه يبتسم.

- «إذاً، ماذا عن القائمة؟ هل أحضرتها لي؟». بادرني على الفور.

لا شيء على الإطلاق، لقد عدت صفر اليدين. لذلك قلت له لا، هكذا، بكل بساطة، ودون التفكير في العواقب.

لا، وأنا أفكِّر في باقي وجميع مقاتلي الظل الذين دفعوا حريتهم ثمناً لالتزامهم.

لا، وأنا أفكِّر في شجاعتهم التي لم تكن لديَّ. كان رضوخي للابتزاز خيانة لقضيتهم. كرَّرت في رأسي عدة مرات عبارة أردت أن أرميها في وجهه: يمكنك إخضاع صحافي، إنما لا يمكنك شراؤه. ولكن عينيه المظلمتين وحاجبيه المقطبين غضباً أفقداني الجرأة. فرددت، لا، دون تقديم مزيد من التوضيحات.

- «ماذا؟ عدت بيدين خاويتين!».

كان غاضباً. عدت بيدين خاويتين. عندما لفظ السيد فنجر هذا التعبير الفارسي المعروف، أدركت المساومة التي كنت على وشك الإذعان لها. ثم أضاف دون مواربة:

- «لا تعاون، لا بطاقة صحفية!»، ومضى.

إذاً، كان الأمر كذلك: بعد عدة سنوات من الاجتهاد في محاولة جمع القطع المفقودة من اللغز الإيراني، لم يعد بلدك يريدني. مرضت كما لم أمرض من قبل. مرض حاد، كدوامة تستنزف المعدة. بدأت التشنجات تظهر بعد عودتي من الاستجواب. فضّلت في البداية أن أتجاهلها، وأن أعزو سبب الألم المؤقّت إلى الإجهاد والتعب. غير أن التشنُّجات أخذت تتزايد بين ساعة وأخرى. حادة، غادرة ومستمّرة. تمددت على الأريكة، علّي أتغلب على الألم بقيلولة. بدأت من شدة الألم أرى نجوماً، ثقوباً سوداء وهاوية. رأيت المصباح يهتز والجدران تتداعى، فتمسكت بالوسائد كما كنت لأتمسّك بطوق النجاة.

ضربت العاصفة من جميع الجهات. كان رأسي يدور، حرارتي ترتفع، وتمتد موجات في بطني ثم تنحسر بسرعة كبيرة... اسمك؟ الاسم الأول؟ العمر؟ العنوان؟

آه... الأسئلة نفسها دائماً!

لا تتظاهري بالغباء سيدة مينوي، تعرفين جيداً ما هو المطلوب منك... أشارت أصابع مقطوعة باتجاهي. هددتني، أمسكتني وسحقتني...

لا، لا، لا أستطيع، سيد فنجر! لم أعد أستطيع احتمال الاستجواب! أنت تطلب مني المستحيل. المستحيل! إنه لأمر مؤلم. بطني يؤلمني. ضميري يؤلمني. دعني وشأني!" تجتاحني موجة متجددة، أمعائي! تشنجات، غثيان، شعور بالإقياء، ورغبة في أن أبصق أحشائي... أريد

الخروج! أخرجوني! لا أستطيع التنفس، جسدي... أشعر بالحرارة... أخرجوني من جسدي!

كلا، يا سيدة مينوي، لن تخرجي إلى أي مكان، حتى...

ماذا أصابني، ماذا فعلت؟ رأسي، رأسي... أنني أتلاشى. هذا ابتزاز، سيد فنجر! ابتزاز... اتركني! لا أعرف شيئاً! لا أستطيع مساعدتك! ألم، ليس جسدي سوى ألم... أنا عطشانة! في حاجة إلى الماء. بسرعة! ماء.

عندما استيقظت في صباح اليوم التالي، وجدت نفسي ممددة في الحمام، يد على صدغي، والأخرى على بلاط الأرضية، تحت المغسلة. تجري المياه بقوة من الصنبور. كم الساعة الآن؟ كم من الوقت بقيت غائبة عن الوعي، نائمة؟ ما هو هذا الشيطان الذي تلبَّسني؟ استجمعت قواي وجررت جسدي المحموم إلى غرفة النوم، وأنا أتمسك بالحائط كي أنهض. عادت إليَّ التشنُّجات من جديد، أكثر كثافة، وعصفت بأحشائي.

بين نوبتين من التشنجات، انتهى بي المطاف إلى ارتداء معطفي وعقد وشاحي، زحفت إلى الطبيب العجوز رأفت الذي يعيش في الحي الذي أسكنه، غير بعيد عن ساحة محسني. وما أن رآني على تلك الحال، حتى أمسك على الفور بعدسته المكبرة، وغاص في تفاصيل كتاب طبي سميك، ثم أبلغني تشخيصه: ملوية بوابية[1]، لديك ملوية بوابية! كانت الكلمة العلمية مطبوعة بالخط العريض في الصفحة الثانية بعد المئة من كتابه الذي يشبه الموسوعات القروسطية، وقال إنني ربما التقطت العدوى عندما أعددت مؤخراً تقريراً عن أفغانستان في الطريق إلى هرات، إبان سقوط

---

(1) الملوية البوابية (باللاتينية: Helicobacter pylori) نوع من البكتيريا التي تستعمر مخاطيات المعدة والإثنا عشري، مسببة التهاباً في المخاطية، وترتبط بتطور القرحات الهضمية في المعدة والإثنا عشري وسرطان المعدة.

نظام طالبان. لم أكن قد سمعت قط بتلك الجرثومة، ولكن مجرد التمكُّن من إعطاء اسم لهذا الألم الغريب يبعث على الاطمئنان. عند عودتي إلى المنزل، شرعت في تطبيق ما جاء في "الحمية المعجزة" بحذافيره: دجاج مشوي لتهدئة اضطراب المعدة، والعسل لقتل البكتيريا، لا أكثر.

ولكن المخلوق الصغير كان عنيداً. عاد الألم في الأسابيع التالية أسوأ مما كان. وكان يعتصر معدتي ليل نهار.

أصبح النهوض يمثل تحدياً. والخروج من البيت أمراً عبثياً. في الخارج، أصبحت الحياة غريبة عليَّ، كأنها مسرح من خيال الظل ترتسم على الجدران، وتتوارى خلف الأبواب. مزيج من أجسام بلا رؤوس، أيادٍ بلا أصابع...

اسمك؟ الاسم الأول؟ العمر؟ العنوان؟

كلما تراكمت في رأسي الأسئلة، كلما شعرت أن جسدي يخذلني. شعرت بأنني مهزومة، عاجزة ومشلولة. يقول هنري كوربين: إن الفارسي مسكون بهاجس بلوغ ما لا يمكن بلوغه. أما بالنسبة إليَّ، فقد كان البلد برمَّته يتجنَّبني...

كنت مشوَّشة. اعتقدت أنني استطعت أخيراً أن أروِّض بلدك يا باباي، ولربما بالغت في ذلك... كل تحقيق صحفي، كان فرصة ذهبية لغزو مدينة جديدة. أصبح القطار وسيلة النقل المفضَّلة لديَّ. ويحصل أحياناً أن أستقلَّ الحافلة في الليل. وأقيم لدى ساكني المدينة كما في قُم وبندر عباس. اجتهدت في كسر الصورة النمطية للمرأة الصحافية المجرَّدة من حرِّيتها. حتى أنني استطعت إقناع رؤساء التحرير في باريس بأن هناك قضايا أخرى غير قضايا الذرة الإيرانية، قلت لهم إننا قبل أن نهتم بالقنبلة

الذرية، علينا أولاً أن نراقب القنبلة الاجتماعية، كل هؤلاء الشباب، النساء والمثقَّفين. كما تحسَّنت أيضاً ظروف عملي، قبل أن تسحب بطاقتي، وتمكَّنت أخيراً من العيش من مهنتي، ومن إضافة صحيفة لوفيغارو مؤخَّراً إلى جانب راديو فرنسا في سيرتي المهنية.

في ذلك الوقت، تحول الربيع الإيراني إلى خريف، بعد إلقاء القبض على باقي. ثم جاء دور عباس عبدي، مختطف الرهائن الأمريكيين السابق، الذي أودع سجن إيفين متهماً لقيامه بنشر استطلاع للرأي يكشف عن أن ثلاثة أرباع الإيرانيين يحلمون بالتقارب الإيراني-الأمريكي. ولكن حتى في ظل هذا المناخ القمعي، كنت أعتقد أنني قد اندمجت وأن قصص الترهيب والسجن أضحت تسكن حياتي اليومية، وغدا الخوف رفيقاً كغيره. كنت أعي أن للجدران آذاناً، وأنه لا مجال أبداً للثرثرة على الهاتف، والامتناع عن تسمية شخصية معارضة من خلال مكالمة هاتفية، والإشارة إلى النبيذ بالكناية السحرية "عصير الرمان" وتنظيم اللقاءات والمواعيد دائماً بواسطة البريد الإلكتروني. كنت أعرف أن إيران هي أيضاً تلك المكالمات الهاتفية مجهولة المصدر، والحجارة التي تضرب النوافذ ليلاً في بعض الأحيان، يلقيها سائقو سيارات أجرة متمادون في فضولهم أحياناً.

حتى السيد فنجر، بدأت أيضا أعتاد على استجوابه اللامتناهي. وأسئلته الاستقصائية، عيونه الكبيرة ونوبات غضبه. وصرت أعتبرها جزءاً من عدَّة الترهيب.

تلك المرة، في كافتيريا ذاك الفندق من فنادق العاصمة الباردة، أظهر لي وجهاً آخر. أصبح الجلاد صديقاً، إنما بشروط. مجرد خدمة بسيطة لا أكثر، خدمة صغيرة. عرض عليَّ إيران في صيغة مساومة. منذ متى كان حب الوطن قابلاً للتفاوض؟ برفضي أن أبيع نفسي للشيطان، جعلتها عرضة

للخطر. أنا اليوم عاطلة عن العمل، غير مرغوب بي في أرض أجدادي، ومجردة من الوثيقة الثمينة التي تسمح لي بممارسة مهنتي هناك. لا تعاون، لا بطاقة صحفية. أصرَّ قائلاً. كانت كلماته تختلط بالألم في سرير مرضي. عدت بيدين خاويتين. عدت خاوية الوفاض. معدتي أيضاً أصبحت خاوية الوفاض. ستة كيلوغرامات فقدتها خلال أسبوعين. أمعنت حمية الدكتور رأفت في نخر أمعائي عوضاً عن أن تعينني على الشفاء. على الطرف الآخر من الهاتف، توسَّلني الأهل والأصدقاء لمغادرة إيران. لكنني رفضت. فالرحيل سيعني الفشل. هل أعود لمراجعة الطبيب؟ ما الفائدة! أليقول لي أن بكتيريا الملوية البوابية هي من النوع الذي يقاوم العسل والدجاج المشوي؟ أمر لا يمكن تصوُّره. بعد شهر من تلك المعاناة توصَّلت إلى يقين: كنت مصابة بفيروس "الإيران"، حاضنة لقطعة صغيرة من أرضك أعيتني كالحمى. يجري هذا المرض في عروقي وينهش أحشائي. مرض عضال يصعب على أمهر الأطبَّاء شفاؤه. توجب عليَّ فقط أن أتعلَّم التعايش معه، فلست أملك أي خيار آخر.

من كان ليظن، يا باباي العزيز، أن من شأن قصصنا أن تتشابه في نهاية المطاف؟

منذ أن التقطت عدوى "الإيران"، أصبح أبي يتصل باستمرار من باريس. دائماً ما كانت حواراتنا قصيرة للغاية. لم يكن يدري ما يقول. حيَّره إصراري على البقاء في بلدك، وهو الذي هجرها منذ زمن بعيد. قال لي في إحدى الليالي وهو يتوسَّلني للمرة العاشرة بعد الألف أن أعود إلى فرنسا:

- «الحفيدة سرُّ جدِّها».

استولت كلماته على اهتمامي. وجذبتني لأعرف أكثر. أخذ أبي نفساً عميقاً، ثم أسرَّ إليَّ، أنه في أيامك باباي، قبل الثورة، سبَّبت لك المخابرات متاعب جمة. أخذ أبي الذي لم يكن من النوع المحب للكلام، يخبرني أدق تفاصيل قصة الابتزاز التي كنت، أنت يا جدي، موضوعها.

في صباح أحد أيام صيف عام 1961. وقبل ركوبك لسيارتك الكاديلاك السوداء، حرصت على ارتداء بزتك الكحلية الأنيقة المخصصة للمناسبات الخاصة التي تتماشى مع ربطة العنق الحريرية الجديدة احتفالاً بالخبر السعيد: تعيينك بمنصب وزير التربية والتعليم. استحققت هذه الترقية بعد كل تلك السنوات التي قضيتها في خدمة الحكومة الإيرانية. لكن الترقية المرموقة أتت برفقة شرط خاص جداً، إن لم نقل خبيثاً: التعاون مع السافاك، مخابرات الشاه! علمتَ بالخبر عند وصولك إلى المكتب. من الواضح أن الخبر سقط عليك كالصاعقة.

السافاك! كيف يجرؤون؟ كنت تعلم بممارساتهم القمعية، والتعذيب في السجون، وتقنيات الإدانة والاختفاء. وكل تلك الأمور التي لم تكن تحتملها. الانضمام إلى السافاك كان يعني التخلي عن قناعاتك الديمقراطية وخيانة قضيتك. لذلك، لم تتردَّد ولو للحظة. بكلمة واحدة رفضت العرض قائلاً لا لمحاوريك، مفضلاً العزلة على خيانة شعبك. حتى بعدما أدركت عند عودتك إلى المنزل، أن مسيرتك المهنية قد انتهت.

مع الشاه، كان الأمر كذلك: إما أن تكون معه أو ضدَّه. كنتَ تعلم، ولكنك في أعماق نفسك كنت فخوراً بقرارك.

لم أكن أعلم شيئاً عن هذا الجزء من حياتك. حاله كحال الكثير من الأجزاء الأخرى. عندما كان أبي يتكَّلم، كنت أحدِّق في واحدة من صورك المنضدة على طاولتي، تظهر فيها مرتدياً نظارتك الشهيرة ذات الإطار الأسود. في عام 2001، بعد ظهور ماري زوجتك السرية، وجدت تلك النظارة في قعر أحد الأدراج المغبرة، بينما كنت أبحث عن بعض القرائن الإضافية لاستكمال لغز حياتك الغامض. جربتها دون تردُّد، مدفوعة بفضول أن أعرف كيف كنت ترى العالم. كان زجاجها سميكاً لدرجة أن ضبابها طمس بصري. ثم عدلتُ عن محاولة فهمك. وسلمتُ بأن أغفر لك كل هفواتك، بعد أن فهمت نقطة ضعف رجل له قلب أكبر من الحجم المعتاد. ولكنني لم أكن لأتخيل قط أنهم أذاقوك الأمرَّين كما فعلوا معي. على الرغم من أن نصف قرن من الزمن يفصلنا، إلا أن مساراتنا التقت دون علم منا.

أخذ والدي وقته ليتمكن من استعادة شذرات ماضيك. كانت تلك المرة الأولى التي يقوم بها بحصاد ذكرياتك بهذا الشكل. قال لي إنك ولدت في عام 1911 تحت حكم السلالة القاجارية.

كان والدك، باقر مينوي، وهو مالك أراض طموح من أصفهان، نصف جهان أي نصف العالم. لا أفضل من مدينة الورود والمساجد الفيروزية لتوضيح الهوية المزدوجة، الفارسية والدينية، لمواطني بلدك. وقبل أن تولد، قرر والداك الانتقال إلى العاصمة، جذبهم إليها الوجه الثالث من الأنا الإيرانية: الحداثة. كان الملك رضا شاه، محرك هذا السباق نحو التقدم، وهو الملك الطموح، الذي أنهى في عام 1925، حكم سلالة القاجار وفرض حكم سلالة البهلويين. كان لك من العمر آنذاك، أربعة عشر عاماً. كنت في سن المراهقة شاهداً على التغييرات التي تنسمها بلدك، تغييرات حدثت أحياناً بسرعة كبيرة وبطريقة فجة. فأسوة بالجار التركي، مصطفى كمال أتاتورك، مد رضا شاه الطرق الجديدة في كل اتجاه، وحفر الأنفاق وفرض الزي الغربي على الرجال، في حين منعت النساء من ارتداء الحجاب، في خطوة مثيرة للجدل على نطاق واسع. وإذا كانت والدتك قد استوعبت هذا التغيير، فإنه بالنسبة إلى زوجتك المستقبلية، الأكثر تقى ومحافظة، كان بمثابة صدمة. حالها كحال العديد من الإيرانيات اللواتي بقين في المنزل وأقلعن عن الذهاب حتى إلى الحمَّامات العامة كي لا يخرجن إلى الشارع حاسرات الرؤوس. من سخرية التاريخ أن الجمهورية الإسلامية ستكون بعد سنوات على النقيض من ذلك في تعقبها للحجاب. ولكن أحداً في ذلك الوقت ما كان ليتوقع انقلاباً كهذا.

في عام 1941، قام محمد رضا بخلع والده رضا شاه. وتحت حكمه، بدأت حياتك المهنية آنذاك في خدمة الدولة، بعد دراستك للآثار التي أعادتك لفترة قصيرة إلى أصفهان، حيث حظيت بامتياز نادر بالسكن في قصر الأربعين عموداً، جوهرة العمارة الإيرانية. وكمتابع مطلع على التطورات في بلدك، لم تكن تخفي ميولك العلمانية، حتى وإن كنت

من أنصار الذين يعتقدون بإمكانية التوفيق بين الإسلام والديمقراطية والتسامح. ولما أخذ الاستبداد يقلقك، خصصت جزءاً من وقتك للدفاع عن القيم الإنسانية. ناهيك عن الثمن الذي دفعته.

في عام 1956، تم تهميشك للمرة الأولى. فقبل ثلاث سنوات، تخلَّص الشاه، بدعم من وكالة الاستخبارات المركزية، من رئيس وزرائه مصدق، المضطرم في حماسه الوطني، الذي سرق من الشاه الأضواء عندما أخذ ينتقد علناً أمركة البلاد. مما دفع الشاه محمد رضا المنتشي بسلطته إلى تفعيل جهازه الأمني لتعقب الأعداء المحتملين. وهو ما يعني كل من كان يخالفه الرأي.

لم تكن أنت منخرطاً في أي حزب سياسي. وعلاوة على ذلك، بعد سنوات، اخترت أن تبقى بعيداً عن الحركات الثورية. ولكن جهرك بآرائك دون مواربة، أثار حفيظة الأمن، فصنَّفك في ملفاته من فئة الأشخاص الذين من الضروري مراقبتهم عن كثب، أو إبعادهم. وكان من شأن الخيار الثاني أن عرض عليك تمثيل إيران في اليونسكو في باريس، فاغتنمت الفرصة، مفكراً في نسمة الحرية التي كنت في حاجة إليها.

على الطرف الآخر من الهاتف، توقف أبي عن السرد. تخيلت أن ذكرياته عن تلك الحقبة أخذت هي الأخرى تجتاحه، عندما كان يبلغ من العمر آنذاك عشر سنوات، حيث سيشكل الانتقال إلى باريس بداية حياة جديدة بالنسبة إليه، حياته الفرنسية. أما بالنسبة إليك، فسرعان ما ستتعارض هذه الوظيفة الأممية الجذابة في البداية مع رغبتك في الاستقلال.

قال لي أبي إنك وعند وصولك إلى اليونسكو، تم تزويدك بتعليمات من طهران: عند التصويت في اجتماع الجمعية العمومية، عليك أن تقوم بما يقوم به مندوب الولايات المتحدة، فإذا رفع يده، ترفعها بدورك!

وسرعان ما بدأت بالانسحاب من حضور الجلسات والمداولات رداً على الشعور بالإحباط والمهانة لنقص الاستقلالية السافر هذا، والحضور في النهاية عند التصويت. وفي أحد الأيام، لم تملك الوقت الكافي لتقصي موضوع الجلسة، وقمت بما تقوم به عادة في تقليد الولايات المتحدة. ولكن أحد المعاونين طلب منك الامتناع عن التصويت قائلاً باقتضاب دون إبداء السبب: هذه المرة، طلب الأميركيون منا التصويت ضدَّهم! أرغموك على إنزال يدك. وانتهى بك الأمر بالإذعان غاضباً من تنامي النفوذ الأمريكي على الشاه.

بالاستماع إلى والدي يروي تلك القصة، فكَّرت مرة أخرى في سردشت، وفي السباق النووي. تلخص تجربتك أسباب نزعة الحماية الزائدة لدى مواطنيك. وتتحد قصتك الشخصية مع تاريخ بلدك.

واصل أبي قصته. وأوضح لي كيف كنت تدور في دوائر الغضب المفرغة لحرمانك من الاضطلاع بأية مسؤولية والقيام بشيء مفيد. ولأنك لا تحتمل الكسل، قمت أخيراً بالتسجيل في جامعة السوربون، وأصبح الأدب الملاذ الذي تلتجئ إليه لنسيان همومك. واخترت القيام بأطروحة حول حياة كافشي، الشاعر الفارسي الشهير. وفي يوم المناقشة، استحققت تكريم لجنة التحكيم، أوضح أبي.

استنتجتُ أن حبك لاستعمال الاستعارات يعود إلى تلك الحقبة، وهو ما نقلته إليَّ لاحقاً وأنت على فراش المستشفى، بفضل أشعار حافظ. أذكر أنني بقيت طويلاً بعد وفاتك أطالع مجموعة من قصائده باللغتين، اقتنيتها من مكتبة في الجوار. وذات مرة، كنت أتصفح رباعياته بشكل لا على التعيين، فوجدت واحدة تقول إن التاريخ يعيد نفسه.

هل كان عليَّ أن أرى فيها رسالة بين السطور؟ هل كانت إشارة لكي

أفكِّر بعمق؟ أنت الذي كنت تقول إنني نور عينيك، أشعر اليوم أنني غبار تحت قدميك.

لم يكن مكانك يوماً فارغاً بقدر ما هو اليوم، كما يقول المثل الإيراني.

بثبات تابع أبي قائلاً إنك وعند عودتك من فرنسا عام 1961، كان من شأن ابتزاز السافاك الشهير أن ينهي علاقتك بالدولة الإيرانية، ملقياً بآخر آمالك في مزبلة التاريخ. طلبت التقاعد المبكر، مشمئزاً من تلك الممارسات الخبيثة للابتعاد عن كل ما له علاقة بالسياسة بشكل أو بآخر. لكنك بقيت في بلدك. أصبحت القراءة والكتابة عزاءك، ونزهاتك في الريف سلواك الوحيدة. وفي عام 1979، كانت أريكتك هي المرصد الذي راقبت منه عن بعد مآلات الثورة، دون أن تشارك فيها. حتماً لم تكن لتشعر بالندم لعدم انخراطك، بالنظر إلى المسار الذي اتخذته تطورات الأحداث. لقد فهمت بأن نأيك بنفسك عن السياسة وابتعادك عن السافاك كان لهما الفضل بإنقاذك. فلم يحسبك القادة الإسلاميون الجدد على فئة الطاغوتي، أصحاب الامتيازات الذين توجبت مصادرة أراضيهم، كما لم يكن رأسك مطلوباً لديهم. بالرغم من أن أبي لا يزال على قناعة بأن متاعبك العقارية مع المحاكم الثورية هي ما تسبَّب في وفاتك...

وبعد سنوات، في عام 1997، رأيت إلى أي حد أعاد إليك فوز خاتمي بصيصاً من الأمل في هذا البلد. كنت مؤمناً باختلافه عن غيره. ربما لأنه كان أيضاً يحبُّ أن يعبر عن نفسه بالشعر. عندما تركتنا فجأة، بعد أشهر على انتخابه، شعرت بالأسف لأنك لم تر بأم عينيك إيران التي استعادت وجهها الباسم تدريجياً.

إنما لاحقاً، فكَّرت أنه ربما كان الأمر أفضل هكذا. فهل كنت لتتحمل أن ترى، بعد سنوات قليلة، أحلام بلدك وهي تتحطم مرة أخرى على صخور الواقع؟

بعد معاناتك الطويلة مع المخابرات، اخترت المنفى الداخلي في بلدك. أما أنا فقررت أن أرحل لفترة من الزمن إلى العراق. فكرت أنني في الطرف الآخر من الحدود، قد أتمكن من الشفاء من إيران. ولتعذر وجود علاج سحري، فلم أكن لأخسر شيئاً في المحاولة. بعد يأسي من استعادة بطاقتي الصحافية، في شباط/ فبراير من عام 2002، اتجهت شمالاً ميممة شطر كردستان العراق، الإقليم الذي كان يتمتع بحكم شبه ذاتي، محمياً منذ عام 1991 من براثن صدام حسين. كان الغزو الأمريكي وشيكاً. وهناك كانت الصحافة حرة، حيث اتخذت عدد من وسائل الإعلام الدولية مقرات لها. كنا تلفزيونات وإذاعات وصحفاً، على أهبة الاستعداد، بانتظار الإشارة الأولى للزحف إلى بغداد بسرعة. وبسقوطها، في أوائل نيسان/ أبريل، ذهبنا فوراً إلى العاصمة العراقية.

كانت المدينة المحررة للتو، مغطاة بطبقة رقيقة من الغبار الترابي الذي خلفته المتفجرات، وسيطرت المدرَّعات الأمريكية على الطرق الرئيسة من الشرق إلى الغرب، واستهدفت المباني الرسمية بصواريخ أحالتها إلى جبال من الأنقاض - اللهم إلا وزارة النفط الاستراتيجية. أمَّا في المناطق السكنية، فكانت الشوارع خاوية كمعدتي، هجرها سكانها خوفاً من القصف. وعلى امتداد نهر دجلة، وحدها كانت النوافذ التي ثبت زجاجها بشريط لاصق من قاومت الانفجار. احتاج الحد من الضرر إلى لفَّات من الشريط اللاصق!

وما أن وصلت، حتى استولى على اهتمامي تفصيل وحيد: لم تكن

في تلك المدينة ذات المباني الخرسانية الشاهقة من بقايا العمارة البعثية، أية آثار تدل على الحرب الأخرى، تلك التي شنها صدام على الجمهورية الإسلامية منذ أكثر من عشرين عاماً مضت. وعلى خلاف طهران، كانت وجوه الشهداء غائبة. غير موجودة. وكأنما كان رئيس بغداد السابق الغارق في عبادة شخصه والمولع بتلك اللوحات البشعة التي تصوِّره، يعتقد بأن في إمكان الموتى أيضاً سرقة الأضواء منه. ولهذا، كان كل ما في المدينة يعيدني إلى إيران.

في أحد الأيام ذهبت إلى الكاظمية لإجراء مقابلة، وهي حي في شمال بغداد. وهناك، استولت على أسماعي موسيقى باللغة الفارسية. وعلى الفور، غمرتني سعادة بالغة لسماعي ذلك اللحن المألوف، بحث عيناي عن مصدر الصوت، وعلى بعد مترين وقعتا على منظر لحجاج إيرانيين يتدفقون عبر الشارع وفي أيديهم كاميرات وزجاجات مياه. كانوا بضع مئات من رجال يتشحون بالسواد، ونساء محجبات. فتح سقوط رئيس بغداد، وهو من الأقلية السنية المعروف بعدائه للشيعة، الطريق المؤدية إلى أضرحة أئمَّتهم التي بقيت لفترة طويلة تحت رقابة صارمة. وبالتالي فإن الإيرانيين تدفقوا من كل مكان، من طهران، شيراز وأصفهان لزيارة ضريح الإمام الكاظم المدفون هنا في بغداد. عبر أكثرهم حماساً الحدود سيراً على الأقدام، مخاطرين بالدوس على لغم من مخلفات حرب الثمانينات. يتدافعون وكأنهم ذاهبون إلى الجنة المفقودة. ثم تقودهم رحلة المخاطر تلك إلى النجف وكربلاء مرقد الإمام علي وابنه الحسين، أشرف آل البيت.

علاوة على ذلك، حدث ذلك اللقاء غير المتوقع مع حسين الخميني، الابن الأكبر للإمام روح الله الخميني، والد الجمهورية الإسلامية... هو أيضاً حضر من إيران في رحلة للصلاة في الأماكن المقدسة. غير أن سبباً آخر أكثر غرابةً كان الدافع وراء رحلته إلى العراق على وجه

الخصوص: رغبة مجنونة وغريبة لتذوق نكهة الحرية التي عمت العراق بعد أربع وعشرين عاماً من حكم نظام استبدادي. التقيت به صدفة بينما كنت في زيارة لرجل دين شيعي شاب، وقد عاد لتوِّه من منفاه في دبي. في ذكرى أربعينية الإمام الحسين، كان الصديقان يتقاسمان فيلا تشرف على نهر دجلة. في ذلك البيت الواسع حيث كان يسمع تغريد الكناري، أمضوا أمسياتهم في العزف على التار[1] واستقبال مجموعات متنوعة من المعارضين السابقين لنظام البعث والسياسيين والمثقفين والمدافعين عن حقوق الإنسان. كان كل واحد منهم يكنُّ الكراهية نفسها لصدَّام، ولكن أيضاً الإعجاب المثير للدهشة بالجيش الأمريكي. وعن هذا الأمر، أعطاني حسين الخميني بعض التفسيرات وهو ينفث دخان سجائره الميامي متربعاً على أريكته.

- «كما تعلمين، فالإيرانيون مغرمون بالحرية، وهي حلم من المستحيل تحقيقه طالما أن الدين والسياسة مرتبطان. فليس هناك، إذاً، بديل عن تدخُّل الولايات المتحدة للحصول على هذه الحرية، وأعتقد أن الإيرانيين سيدعمون هذا التدخل. وأنا أيضاً!».

على الفور، ذكَّرني خطابه بابن منتظري. الصراحة نفسها، الكراهية نفسها لنظام كان وريثه. ولكن حفيد الخميني ذهب أبعد من ذلك: من العراق، المنفى الذي ابتدع منه جدُّه في الستينيات نظرية ولاية الفقيه الشهيرة ومبدأ سيادة العقيدة التي تولي الدين على السياسة، تحدَّى حسين الخميني هذا المبدأ، وكان على استعداد لاستقبال دبابات قوة معادية في إيران لإنهائه.

---

(1) التار أو سه تار (الفارسية سه تار من سه (ثلاثة) وتار (الأوتار) ينتمي إلى عائلة العود والبزق والبغلمة والجنبش، عزفها شائع في البلدان التي لديها علاقات ثقافية طويلة مع إيران، كأذربيجان وأرمينيا

بالاستماع إليه، حاولت أن أتخيل المشهد: صفٌّ من المدرَّعات يشقُّ خيابان انقلاب، شارع الثورة الشهير. مشهد يليق بالقوَّات الخاصَّة ويبعث على القشعريرة. تُرى كيف ستكون ردة فعل محمود، الباسيج القاتل، على مثل هذا السيناريو؟ أم نيلوفر، صاحبة الحس الوطني الذي يفوق معارضتها لنظام الملالي؟ حتى المعارضين من أصدقائي الإيرانيين، كانوا متردِّدين دائماً حيال التدخُّل الأجنبي في بلادهم، زاعمين أن التغيير يجب أن يأتي من الداخل وليس من الخارج. ولم تخفَ دهشتي على حسين الخميني الذي تابع القول:

- «تنخر الشمولية اليوم إيران، كما كانت حال عراق صدام حسين، منذ وصولي إلى بغداد، وأنا أرى التغييرات الإيجابية: أصبحت الصحافة حرَّة، ولم يعد الناس يخشون الكلام، بدأ العراقيون بالتنفُّس مرَّة أخرى، وها هي بلادهم تسير نحو التقدُّم. علينا أن نواجه الحقائق: لم يكن هذا ممكناً لولا تدخل الولايات المتحدة».

بتلك الكلمات، شعرت من جديد بعاصفة من التشنجات تضرب أمعائي، هل النيران الأمريكية حقاً هي الملاذ الوحيد ضدَّ نظام يُشبع شعبه قمعاً؟ هل في إمكانها أن تضمن بالفعل إقامة نظام ديمقراطي؟ أجبته:

* «لقد عارضت الكثير من البلدان تلك الحرب، بما فيها فرنسا. حتى أن الأمم المتحدة كانت ضدها. ويتساءل البعض عن احتمال أن تتحول القوات الأمريكية إلى قوة احتلال».

- «كلا!»، أجاب بصراحة. «بالنسبة إليَّ، تلك هي قوى التحرر، لا الاحتلال!».

رأيت بوضوح إلامَ كان يرمي. وقبله، لم يتوقَّف أنصار الغزو الامريكي عن محاولة تسويق تلك الحرب بمقارنتها مع الإنزال الأمريكي في فرنسا

المحتلة من قبل الألمان خلال الحرب العالمية. ولهم كان جدِّي لأمِّي الذي أسره الألمان مديناً بحياته.

إنما هنا، فقد فشلت حجَّة حسين الخميني في إقناعي. أفهم تماماً خيبة أمله من نظام سياسي ابتدعه جدُّه، وأصبح أداة لخنق الشعب دون رحمة. وفي الوقت نفسه، أردت أن أؤمن، كنيلوفر والكثيرين من أمثالها، بإمكانية إحداث التغيير من الداخل. هل كان هذا تأثير هويتي الإيرانية؟ بالنسبة إليَّ، فإن التدخل الأجنبي هو بمثابة بيع إيران. وفتح الباب للتدخُّل العسكري هو بمثابة فتح أبواب الجحيم. ستكون الكلفة البشرية للعملية العسكرية هائلةً. وأظن أن هذا سيزيد النظام تطرُّفاً ويساعده في القضاء على التيَّار الذي يناضل من أجل الحياة ويتمسَّك بمقاومة النظام. هل هذا هو حقاً ما يستحقه الإيرانيون بعد سنواتٍ طويلةٍ من المعاناة؟ أليس هناك من حل آخر لإنهاء الاستبداد؟ تزاحمت في رأسي الأسئلة واختلطت مع إيقاع المغص والتقلُّصات في معدتي. في نهاية المقابلة تجلَّى أمامي الأمر بكل وضوح: إن كان العسل والدجاج المشوي قد بدآ أخيراً بتسكين الألم، فداء الإيران كان يبدو عصياً على الشفاء. في العراق، شعرت بأنني إيرانية أكثر من بعض الإيرانيين.

لم أكن بمفردي في تلك الرحلة إلى بلاد ما بين النهرين. في أوائل شباط/ فبراير، كنت قد عثرت هناك على رفيقي، بورزو، صحافي أمريكي من أصل إيراني. التقينا في طهران العام الفائت، أمام السجادة الحمراء التي مدَّها خاتمي استقبالاً لحامد كرزاي، في أول زيارة من رئيس أفغاني بعد سقوط نظام طالبان.

انتقل بورزو للعيش في الولايات المتحدة في سن الرابعة، وتخلَّى عن امتياز العمل لصالح مجلة أمريكية كبيرة بعد أن شهد بأم عينه الهجوم على برجي نيويورك من حيه في بروكلن. ثمَّ قرَّر في الوقت الذي تخوض فيه الولايات المتحدة حربها المجنونة مع مخاوفها الأمنية، التوجُّه شرقاً إلى الشرق الأوسط، باحثاً عمَّا يحدث خلف الكواليس. ليبدأ حياته الجديدة كمراسل مستقل، حاملاً في جعبته هاتفاً يعمل بالأقمار الصناعية، ومصباحاً يدوياً وحفنة من الدولارات. بساطته قربتني منه على الفور. كنت مثله، أسافر خفيفة منذ المرة الأولى التي جئت فيها إلى إيران. ليست الأمتعة سوى أعباء لا لزوم لها.

تقاسمنا معاً الشغف نفسه بتلك البقعة من العالم، وأوضاعها المعقَّدة، وتمتُّعنا بقدر لا بأس به من العناد. بعد أن كنا سوية في طهران وكابول والآن بغداد، أصبحنا لا نفترق. وله يعود الفضل في نهوضي من سريري في طهران، لأجرَّ جسدي الهزيل إلى العراق آملة التغلُّب على داء الإيران الذي عالجته بشتى الوسائل، حتى أصبحت على قناعة بأنني سأبقى مرتبطة

بهذا البلد الذي يقضم أحشائي للأبد. وحده بورزو من استطاع إخراجي من تلك الهاوية.

كان لبورزو الفضول نفسه الذي يشدُّني إلى رجال الدين الشيعة. وكان يحمل في حقيبته الكتاب المرجعي "شيعة العراق" لمؤلِّفه اسحق نقَّاش، الذي سرعان ما أصبح دليلنا عبر متاهات بغداد. يثير كاتبه مسألة الحدود العراقية الإيرانية الشهيرة، التي لا يمكن للحجَّاج الشيعة تفاديها عند العبور من طهران إلى بغداد. كانت تلك الحدود، لقرون عدَّة، توحِّد البلدين روحياً وجغرافياً قبل إغلاقها في عهد صدام حسين، ويعاد فتحها لتصبح طريق رواحنا وغدواتنا المتكررة من وإلى العراق. حالنا كحال العديد من الحجَّاج الشيعة.

منذ سقوط بغداد، بالمئات عادوا إلى البلاد: رجال دين عراقيين وعلماء ومنفيين من إيران المجاورة.

وفي إيران، تثير الصحوة الشيعية في مدينة النجف العربية من الاهتمام ما يثير قلق مدينة قُم الفارسية. وخلافاً لحفيد الخميني، المفتون بأمريكا، سعى الملالي المحافظون إلى الحفاظ على سيادة قُم بالنسبة إلى الطائفة الشيعية في المنطقة، ووجدوا في ذلك الفصل الجديد من تاريخ العراق فرصة ذهبية لاستعادة نفوذهم في البلد الجار. إلى أن أصبحت تلك المطامح أمراً واقعاً عندما وهبت الولايات المتحدة بعد سنوات العراق للإيرانيين.

عند عودتنا إلى طهران، بعد أسابيع قليلة من سقوط الرئيس العراقي، توجَّهنا إلى قُم، مدينة البراقع، لمحاورة آية الله حائري. إذ يقال إن هذا المحافظ المتشدد كان معلِّم مقتدى الصدر، رجل الدين العراقي الشاب المناهض للولايات المتحدة، الموجود في الكوفة قرب النجف.

حرَّكنا فضولنا للاطلاع على ما يجري بين المدينتين المقدستين. بورزو أيضاً، كان مجرَّداً من تصريحه الصحفي الإيراني، ولكننا لم نكن نغطي الأخبار الإيرانية منذ فترة طويلة.

بالكاد أتممنا حوارنا مع آية الله حائري عندما رن جرس الهاتف المحمول. لأسباب اقتصادية، كنا بورزو وأنا نتشارك الهاتف نفسه.

* «مرحباً»، أجبت.

قال الرجل الطرف الآخر:

- «أعطني بورزو».

* «من يريده؟». أجبته.

كنت أعرف ذلك الصوت ولم أستطع محوه من ذاكرتي.

- «حسناً، خانوم مينوي، لا تصطنعي الغباء، تعرفين جيداً من يريده».

السيد فنجر! لم تنجح رحلتي إلى العراق في أن تنسيني أمره. بيد أنني هذه المرة، لم أكن من يبحث عنه بل بورزو. بيد مترددة، ناولته السمَّاعة. أردت أن أجنبه براثن هذا المسخ، والعناء الذي تكبَّدته. أمسك بورزو بالهاتف، رأيته يهز برأسه، مكرراً كلمة نعم، ثم أغلق الخط وهو يقول لي إنه ينبغي علينا العودة بسرعة إلى طهران. أراد الرجل الأبتر رؤيته. وقال إنها زيارة روتينية، كانت لكلماته وقع مألوف في رأسي.

لدى عودته من اللقاء، تهاوى بورزو على كرسي في صالوني، وهو الذي يمتلئ عادة بطاقة رجلين، لقد قابله الرجل شخصياً إلا أنه عرف عن نفسه باسم آخر غير الذي عرفته به.

بلهجته الجليدية، اتهمه بالذهاب إلى قُم دون تصريح صحفي، وبعرقلة قوانين البلاد. ومنعه من الكتابة: «ممنوع! هل هذا المفهوم؟».

قال وهو يرغي ويزبد. وقبل أن ينهي موعظته، أخذ منه وعداً بألا يخبر أحداً بمضمون تلك المحادثة.

وبطبيعة الحال، فعل بورزو العكس. معرفته بأننا في مركب واحد منحته المزيد من الشجاعة للمقاومة.

معاً، أصبحت تشنجات "الإيران" أقل تأثيراً. تشاورنا ثم قرَّرنا بعدها نشر حوارنا مع آية الله حائري باللغتين الإنجليزية باسمه، والفرنسية باسمي. وبعد بضعة أيَّام، رن الهاتف مرَّة أخرى. لم تظهر شاشة المحمول رقماً، فخمنَّا مباشرة من هو المتصل. كان السيد فنجر. قال غاضباً إنه يريد رؤيتي أنا أيضاً، وأعطاني موعداً في مكان جديد، "بناء الحجر" في شمالي طهران.

كان البناء مسوراً بجدار من الحجارة البيضاء والرمادية، أشبه بسجن. أمكن الدخول إليه بعبور بوابة حديدية سميكة، أغلقت خلفي مباشرة. وفي وقت لاحق، علمت أن المبنى المشؤوم، الذي كان قبل الثورة ملكاً لرجل أعمال من البهائيين، مالك مصنع الكوكا كولا سابقاً، هو أحد فروع المخابرات العديدة. في كوَّة الاستقبال، جثم موظف خلف الزجاج. وأشار إليَّ بأن أسلِّمه الجواز والهاتف المحمول عبر الشق. ثم أقفل عليهما مباشرة في خزنة صغيرة، تظاهرت بأن كل ما أراه كان طبيعياً. ولكن قلبي كان ينبض بعنف.

طلب مني أن أجلس في غرفة الانتظار، وحيدة برفقة صور الخميني وخامنئي الذين لم يرفعا أعينهما عني، موقف غريب تقشعرُّ له الأبدان يُذكِّر بفصل من فصول رواية لجورج أورويل. مرَّت ساعة ثم ساعتان. بدأت خلالهما أتساءل إن كنت سأتمكن في نهاية المطاف من الخروج من تلك الحفرة، عندها، أنَّت مفاصل الباب.

- «حسنا، ها أنت هنا!».

كان السيد فنجر واقفا عند فرجة الباب. نظراته جليدية وفمه عابس كعادته.

أومأ لي بأن أتبعه إلى غرفة صغيرة لها ستائر مصفرة بفعل الزمن. على المكتب الخشبي تعرَّفت على ملفي الذي ازداد سماكة عمَّا كان عليه منذ المرة الأولى التي استُدعيت فيها.

لم يضيِّع المحقق وقتاً في تحية لا لزوم لها، وذهب مباشرة إلى صلب الموضوع.

- «كيف تجرؤين على القول إن مقتدى الصدر إيراني؟».

بيده الكاملة، لوح بورقة انتزعها للتو من الملف تعرَّفت فيها على مقالي الأخير، مذيلاً بشروحات بالفارسية.

* «لم أكتب أبداً أنه إيراني، لقد قلت فقط إن معلمه كان إيرانياً».

- «ليس هذا ما تقوله الترجمة...».

* «التقيته في الكوفة. ولم يتفوَّه بكلمة فارسية واحدة. أستطيع أن أؤكد لك أنه عراقي».

- «إذاً لمَ كتبتِ خلاف ذلك؟».

* «صدقاً، ليس هذا ما كتبته».

- «ولكن هذا ما قرأته هنا في الهامش».

* «أعتقد أن هناك خطأً ما في الترجمة...».

- «أعتقد أنك أصبحت بمنتهى الوقاحة منذ أن أصبحت على علاقة بالسيد بورزو!».

ما علاقة حياتي الخاصة بالتفسير الخاطئ لمقالي؟ إلام كان يلمِّح بهذا

التصريح غير اللائق؟ هل يقصد أنه يعرف كل شيء عن علاقتنا التي كانت، ولا بدَّ، بالنسبة إليه غير شرعية كوننا لسنا متزوجين؟

* «اتهاماتك باطلة!». قلت في وجهه. فضرب بقبضته على الطاولة قائلاً:

- «هكذا إذاً، تكتبين الأكاذيب، وفوق ذلك، دون بطاقة صحفية!».

ثم شرع يكيل سيلاً من الاتهامات. كان يتحدث بسرعة قصوى. كل ما استطعت تمييزه من خلال ذلك الدفق من الكلمات، كانت عبارات مثل خائنة، كاذبة ومارقة. لم أكن أفهم سوى كلمة من كل اثنتين أو ثلاثة. ثم أنني أردت المحافظة على رباطة جأشي والتمسك بضميري الصحفي. فأخرجت دفتر ملاحظاتي. كان الدرع الوحيد المتبقي في جعبتي. بدأت أدوِّن الجمل التي لم أفهمها لترجمتها لاحقاً حتى أفهم ما يتَّهمني به بالضبط. وكلَّما تحدث، كلما كنت أدون أكثر.

- «أنت هنا لست في فرنسا!». صرخ في وجهي.

تابعت كتابة ملاحظاتي كما لو كنت آلة.

- «أنت حقاً لمهووسة بالكتابة! ألم يبلغك صديقك بورزو تعليماتي: ممنوع الكتابة؟»

لفظ السيد فنجر اسم بورزو على وجه الخصوص بلهجة متكبرة أخرجتني عن طوري. فأجبته بنبرة غاضبة لا تخلو من سخرية:

* «لقد قال لي فقط إنه ملتزم بعدم الكشف عن أية تفاصيل تخص محادثتكما».

لم يسر السيد فنجر بما سمع فصاح:

- «هل تعلمين أنني أستطيع ملاحقتك قضائياً بتهمة الكذب وخرق القانون؟».

ازدردت ريقي وأنا أكرر على مسامعه بإصرار أنني لم أكتب البتة أن مقتضى الصدر كان إيرانياً.

رفضت أن أستسلم. أردته أن يخرج عن طوره أولاً، بعدما مزَّق معدتي من التوتر، وتابعت تدوين الملاحظات في دفتري.

هوى بقبضته مرة أخرى على الطاولة:

- «يكفي!».

رفعت رأسي فرأيت وجهه وقد غدا قرمزياً. كنت مندهشة فلزمت الصمت. وكان صوته يرن عبر الجدران. لم أعلم ما الذي فعلته لكي يثور إلى تلك الدرجة.

- «في المرة القادمة، ستتواجه في المحكمة!». صاح مشيراً بيده المشوهة باتجاه الباب.

على الفور، وافيت بورزو إلى أحد المقاهي. كان ينتظر بصبر نافد.

* «والآن ماذا سنفعل؟». سألته بعد أن رويت له كل ما حصل.

أحدنا لم يكن يملك إجابة، ناهيك أصلاً عن إمكانية وجود واحدة في بلد تتغير فيه الخطوط الحمراء دون توقف. لذا قصدنا محمد سيف زاده وهو أحد المحامين القلائل من المدافعين عن الحريات. في إيران، يمكن حتى للمحامين أن يكون مصيرهم السجن. مع كأس من الشاي ترافقه حبة نوغا من أصفهان مسقط رأسه، قدَّم لنا معلومة كنا نعرفها عملياً: على الرغم من القيود المفروضة، ليس هناك من قانون يحظر الكتابة دون البطاقة الصحافية.

- «اكتبا! اكتبا!». أصر قائلاً. «هذا هو السبيل الوحيد لحفظ ما تبقى من حرية التعبير من الانتهاك».

كنا معجبين بجرأته. هو من دافع عن شيرين عبادي، الحائزة على جائزة

نوبل للسلام، خلال اعتقالها. قال لنا محاولاً طمأنتنا إنه شهد حالات أسوأ بكثير من حالتنا، وما من سبب يدعونا للخوف، ففي أسوأ الأحوال، كنا نملك جواز سفر ثانياً، وهو مَخرج يحمينا في حال الطوارئ. غير أن ما قاله لم يشعرنا كلياً بالطمأنينة. فذهبنا في اليوم التالي لاستطلاع رأي ماشالله شمس الواعظين، أحد أعمدة الصحافة الإصلاحية، الذي ترأس اتحاد الصحافيين الإيرانيين. بذراعين مفتوحين، كان في استقبالنا وغليونه في فمه ضاحكاً من مخاوفنا.

- «مما أنتما خائفان؟ إنه لأمر مضحك. إن توقفتما عن الكتابة، فمن غيركما سيخبر العالم عما يحصل في إيران من الداخل؟».

كان يتحدَّث عن دراية وفطنة. فمنذ ربيع طهران، توقف عن إحصاء الصحف التي أغلقت، ورفاق القلم الذين اعتقلوا، والزملاء الذين أصبحوا في المنفى. وهو أيضاً اختبر بنفسه برودة السجون الإيرانية، دون أن يتخلَّى عن معركته، محتملاً أسوأ الإهانات. أخبرنا عن الفترة الأخيرة التي قضاها في السجن وكيف لفق له القضاء تهمة إقامة علاقة غير مشروعة مع سكرتيرته.

- «عندما يعجزون عن تحطيمك مهنياً، يقومون بتحطيمك شخصياً».

تبادلنا أنا وبورزو النظرات، لم يكن في حاجة إلى قول المزيد. في أرض الحب الممنوع تلك، علينا أقله حماية حياتنا الخاصة إذا لم نشأ التوقُّف عن الكتابة.

- «للحرية ثمن. ولكل منا طريقته للتفاوض من أجل الفوز بها بأقل تكلفة». غمغم شمس الواعظين كنصيحة عند وداعنا.

عند عودتنا إلى منزلي، تهاوينا على الأريكة منكفئين واحدنا إزاء الآخر. مجرد قضاء ليلة تحت سقف واحد، كفيل بأن يكون جريمة قد

يستخدمها السيد فنجر ضدنا. وأنت يا جدي الغائب، ماذا كنت لتفعل لو كنت مكاننا؟ من بين الأشرطة المغبرة في أحد صناديقك القديمة التي احتفظت بها ماماني، عثرت على ألبوم لشهيار قنبري، أحد نجوم الغناء الذين انتهوا إلى المنفى في لوس أنجلس بعد قيام الثورة. كان يغني: البحر الأزرق، ممنوع! الرغبة في النظر، ممنوع! الحب بين سمكتين، ممنوع!

غفونا مهدهدين باللحن، إلى أن أيقظنا رنين الهاتف. كانت والدة بورزو على الطرف الآخر، من منزلها في شيكاغو حيث أشرقت الشمس للتو. ومع فارق التوقيت، كانت دائماً ما تتصل في وقت العشاء. ترددنا في البداية أن نخبرها بما حدث عندما استفسرت عن أخبارنا. بيد أن للجدران آذان في جميع الأحوال، فأخبرناها في النهاية بكل شيء. سألت دون تردد: «هل عقدتما صيغة؟ صيغة زواج؟».

رفعت كتفي بلا مبالاة. إلا أنها كانت محقة. كان من الأفضل أن نتوقف عن اللعب بالممنوع درءاً لغضب النظام. سيغدو هذا "الاتفاق السري" الذي طالما احتقرته، مفتاح الاستمرار.

في اليوم التالي، ومن دون أن أعتمر إكليلاً من الزهور أو وشاحاً أبيض، اتصلت بصديقتي ليا على عجل، فأتت سريعاً. وهرع بورزو إلى محل الحلويات. مهمتها هي أن تكون شاهدة، والحلويات كانت لإضفاء الطابع الاحتفالي. رشحت لنا صحفية إيرانية تعمل بالقرب من ميدان التوحيد مأذوناً، غير بعيد عن وسط المدينة، وطمأنتني قائلة: «لا تقلقي، إنه يعرف مهنته عن ظهر قلب. قبل بضعة أيام، زوَّج لمدة أسبوعين امرأة مسلمة أعرفها إلى رجل زرادشتي من كاليفورنيا. بموجب صيغة زواج»، زواج تحت الطلب.

- «بم يمكنني أن أخدمكما؟». تمتم الملا المأذون وقد رآنا قادمين.

لم يكن من الصعب العثور على عنوانه.

كانت عبارة "زواج-طلاق" مكتوبة بالفارسية على لوحة علقت على واجهة مكتبه المطلة على الشارع. مؤخراً، أخذ وباء الطلاق ينتشر في طهران، خصوصاً في أوساط الإيرانيات الجامحات اللواتي ينتقلن مباشرة من منزل العائلة إلى المنزل الزوجي ليصبح في النهاية مجرد خطوة نحو تحقيق الحرية المشتهاة. لذلك ظنَّ الملا أن هذا هو سبب استعانتنا بخدماته.

- «جئنا بهدف عقد قران مؤقت». همس بوررزو متجنباً لفظ الكلمة المحرمة.

جلس الملا في كرسيه، متحمساً لطلبنا.

* «لكم من الوقت؟». سأل.

كنا قد فكرنا في كل شيء ما عدا مسألة الوقت تلك.

أسبوع؟ ثلاثة أشهر؟ سنة؟ أربع سنوات؟

- «ممم، فلتكن سنتين». أردف بوررزو.

كانت فارسيته التي تكلمها دائماً في المنزل، أفضل بكثير من فارسيتي. غير أن لكنته الأمريكية كانت تفضحه.

توجه الملا إلى ليا بالسؤال:

* «من أين هم؟».

- «من هنا وهناك». أجابت.

* «تعالوا، اجلسوا!».

يبدو أن حالتنا كانت تسليه بقدر ما تثير فضوله.

اتخذ مظهراً جدياً، ووضع نظارته ثم التفت إليَّ سائلاً.

- «هل أنت أرملة، سلمك الله؟».

أخذت ليا تترجم لي أسئلته مباشرة.

* «كلا».

- «مطلقة؟».

* «كلا، أيضاً».

أضاف وهو يلاحظ ذهولي من أسئلته:

- «هل تعنين أنه لم يسبق لك الزواج نهائياً؟».

* «كلا».

- «أبداً؟».

* «أبداً».

توجه نحو ليا وهو يتمتم ببضع كلمات غير مفهومة، وشرع في تقليب صفحات كتاب بحثاً عن حل سريع، ثم شبك ذراعيه مطرقاً في التفكير، محرجاً. همست لي ليا:

- «أعتقد أن هناك مشكلة».

* «ما هي؟».

- «يمكن للمرأة أن تعقد صيغة فقط إذا كانت أرملة أو مطلقة. الخلاصة هي أن عليها أن تكون ثيباً، تعرفين ما الذي يقصده».

كنت أعرف تماماً ما الذي يقصده. فمنذ أن فاتحني به مهدي، الملا ذو السترة الجلدية، ولم يعد هناك ما يخفى علي من أسرار الزواج المؤقت. وعرفت أيضاً بفضل ظهور مريم، زوجتك السرية، أن هناك ألف طريقة ممكنة لترتيب هذا الاتفاق الديني الزائف.

- «إذاً قولي له إنني كنت متزوجة إذا كان هذا ما يريد».

إلا أنه كان من الواجب بذل المزيد من الجهود لإقناع الملا المأذون: دليل كتابي على حدوث الطلاق أو حضور ولي أمري، أو إذنه المكتوب.

- «لا ورقة، لا صيغة زواج». قال الملا.

التفتُّ نحو بورزو. في تلك المتاهة من الموانع، شعرت بأننا استنفدنا جميع الحلول الممكنة.

قال بورزو:

- «بالتأكيد هناك حل».

كان الملا رابط الجأش. أخذ يقضم ذراع نظارته وهو يراقبنا بزاوية عينه. بعد برهة من الوقت، عدل نظارته. وقال رافعاً حاجبه:

* «ما المبلغ الذي كنت تنوي دفعه مقابل صيغة الزواج؟».

نظرنا إلى بعضنا بورزو وأنا مرة أخرى. تركته يجيب:

- «خمسون دولاراً». في الواقع، خمسون دولاراً هي خمس متوسط الرواتب.

انفرجت أسارير الملا فجأة، واستدار نحو ليا قائلاً:

* «حسناً، سنتدبَّر أمر زواج أصدقائك». أما نحن فتنفسنا الصعداء! كانت مسألة بسيطة تخص المال.

بمظهره الجدي، أخرج ورقة من مقاس A4 من قعر درجه. خرز عليها صورتين شخصيتين لنا نحن الاثنين، ثم نسخ بدقة أسماءنا الكاملة. وبعض آيات القرآن، وجعلنا نكررها بعده. ثم أخرج شريطاً لاصقاً. وبعدما غلف به الآيات القرآنية، التفت نحوي قائلاً:

- «هذا لكيلا تدنسي كلام الله. خلال الأيام التي لا تكونين فيها ظاهرة».

ثم شاهدته يذيل الصفحة بختمه الأخير أسفل تواقيعنا. لم ألاحظ اسمه. كان الرجل نمرة فريدة من نوعها. ولم تخفى دهشتي عليه:

- «لست الملا الحقيقي، أنا فقط وسيط يعمل في الظل!».

فتحنا علبة الحلويات.

سواء كان ملا أم لم يكن، كان علينا أن نحتفل بالحصول على تأشيرة حبنا قبل انتهاء صلاحيتها. بجشع غير متحفظ، تناول دجال الدين قطعة من حلوى الكلير. ثم رفع رأسه صوب ليا. كانت هي هذه المرة من التهمها بنظراته. وعندما نهضنا لنغادر، أومأ لها بالبقاء قائلاً إن لديه ما يقوله لها على انفراد. كنا ننتظر في المدخل عندما وافتنا ليا غاضبة بعد بضع دقائق.

* «ماذا هناك؟». سألتها.

- «لقد عرض عليَّ.. الزواج!».

في طهران، اضطررنا على حين غرة إلى أن نقطع شهر عسلنا الإيراني. في وزارة الإرشاد، تعثرت من جديد طلبات اعتمادنا بعد أن جوبهت بالرفض نفسه. شعرت بالغضب لكوني موضع هذا الإذلال وبأن "الإيران" تنخر معدتي مرة أخرى. وبكثير من الإلحاح، نجحت أخيرا في الحصول على موعد لدى مكتب الصحافة الأجنبية.

«لقد وافق العديد من الصحافيين الآخرين من قَبْل على تقديم بعض الخدمات. إما أن توافقي أو تنسي الأمر»، تمتم المسؤول. مضيفاً: «آسف، لا أستطيع أن أفعل أي شيء من أجلك». على الأقل، امتاز ردُّه بالوضوح.

ردنا أيضاً كان واضحاً. لم يبق لنا سوى الرحيل إلى الجانب الآخر من الحدود للهروب من إملاءات إيران، والاستقرار في العراق إلى أجل غير مسمى. لم يكن التوقيت ملائماً آنذاك. فبعد أسبوعين على عرسنا في النورماندي، اختُطف زميلان فرنسيان، كريستيان شينو وجورج مالبرونو من قلب "المثلث السني"، على طريق النجف. شاع الاختطاف مقابل فدية بكثرة، وكذلك انفجارات السيارات المفخخة دون سابق إنذار. وفي الوقت نفسه، كان الشيعة والسنة يتنافسون على السلطة وسط فرق الموت والقتل المستهدف. لم يسبق لصراع ما بعد صدَّام مثيل في العنف. لم يكن المرء في العراق يحتاج إلى منبه. فعادة ما تنفجر القنبلة الأولى في اليوم نحو الساعة السابعة. كما يمكن للمرء أن يموت عند كل منعطف وفي كل آن، كالروليت الروسية. لكن تلك الحرب لم تكن حربي. لقد عشتها بنوع

من التجرد. لم يكن للخوف الذي ينهشني من الخامة نفسها التي كانت لمخاوفي الإيرانية. في المساء، كنت أجد بعض الراحة في الاستسلام لهدهدة هدير المولد الذي يعوض عن انقطاع الكهرباء. نوع من التغيير عن هطول الحصوات التي ترتد متشظية على مصراع نافذتي عندما يحاول مارة مجهولون إخافتي في ليل طهران. في شتاء عام 2004، أصررت على العودة لبضعة أسابيع في زيارة خاصة، تحدوني الرغبة في تقبيل وجه ماماني ورؤية الأصدقاء. من غير الممكن السيطرة على حب بلدٍ ما. من جهة أخرى، أكدت لي المخابرات الإيرانية براعتها في المراقبة إلى حد الكمال. كنت أنتظر وصول أمتعتي أمام الشريط الدوار في صالة الواصلين الكبرى عندما لفظت مكبرات الصوت اسمي. أمرني صوت معدني بأن أتوجَّه إلى إحدى الكوى. وهناك، كان في انتظاري خلف المكتب:

الاسم؟ الاسم الأول؟ العمر؟ العنوان؟ أيضاً الأسئلة نفسها.

أجبت على الاستجواب بطريقة آلية ودون جزع، بمرور الزمن اكتسبت ثقة. ثم أعطاني محدِّثي "دعوة". على ورقة بيضاء مع رقم هاتف، طالباً مني الاتصال "بمكتب الرئاسة" لتحديد موعد. استنتجت أنها ذريعة جديدة للمخابرات. اتصلت فور عودتي إلى المنزل برئيس التحرير، أردت أن تعرف أجهزة المخابرات بأنني أخبرت باريس. لم أعد ضعيفة كما كنت في الماضي. أخذتهم برودة أعصابي على حين غرة. عند اتصالي بالرقم المذكور، سمعتهم يقولون إن المقابلة ألغيت.

غير أن المخابرات لم تعجبها حيلتي الصغيرة. ففي يوم مغادرتي، بعد ثلاثة أسابيع، كان الانتقام جاهزاً. عند مكتب الجوازات، اقترب مني رجل ملتحٍ ضخم، وقد ألصق أذنه بجهاز اللاسلكي، طلب أوراقي على الفور. سلمته ما طلب. بعد أن تصفَّحها سريعاً، أخذها ومضى يشق طريقه بين الحشود. بعد نصف ساعة، سمعت اسمي عبر مكبرات الصوت. كانت

شركة الطيران هي من يطلبني هذه المرة. وكان هذا هو النداء الأخير قبل إقفال البوابات. بدأت أرتجف، اعتراني الخوف لأنني لعبت لعبتهم بصفاقة. ارتعدت للحظة أصبحت فيها بلا أوراق ولم يعد من الممكن تدقيقها. كنت أعلم أنه في تلك اللحظة بالذات، قد يحدث الأسوأ، وقد أختفي في المطار لأظهر بعد عدة أيام في السجن، حيث كان هذا هو السيناريو الأكثر شيوعاً، وقد خبره من قبلي الكثير من المسافرين.

صدح اسمي مرة ثانية في مكبرات الصوت، نظرت إلى ساعتي. لم يعد هناك سوى خمس عشرة دقيقة قبل الإقلاع. بسرعة كبيرة، مرت دقيقة. عشر دقائق. خمس دقائق. «ها هو!». أفزعني على حين غرة صوت الملتحي الضخم وهو يعيد لي جواز سفري بيد، وفي اليد الأخرى صور لكل صفحات الجواز. «تفضَّلي!». وكرَّر وهو يسلِّمني أوراقي الثبوتية. «هذه المرة، ستتركك تلحقين بطائرتك». أمَّا أنا، فانتشلت جوازي كلصٍّ، دون أن أقول شكراً أو وداعاً، ركضت بكل ما أوتيت من قوة باتجاه الطائرة. هرولت على طول الممر الطويل، ركبت المصعد بسرعة، قفزت عبر المعبر ثم ولجت الطائرة. كنت المسافر الأخير. كاد قلبي ينفجر. لعنت الملتحين جميعاً. كانوا يملكون موهبة اللعب بالأعصاب، وهم يدركون تماماً حجم الضيق الذي ينشرونه خلفهم.

لم تكن الحوادث التي حصلت معي في إيران أمراً فريداً. فقد ذابت في بياض شتاء العام نفسه، كان واحداً من أقسى الشتاءات التي عرفتها إيران، كانت الثلوج تلفُّ طهران كوشاح قطني سميك، والرياح تقتلع آخر أوراق أشجار شارع ولي عصر وتذروها. اكتشفت خلال الأسابيع الثلاثة التي أمضيتها هناك، أن وعود الإصلاح قد تبخرت إلى الأبد.

بعد الانتخابات البلدية عام 2003، فاز حزب المحافظين بالانتخابات النيابية عام 2004. تساءلت أي الأمرين كان سبباً للآخر، البرد أم التشاؤم

السياسي. أتذكر أنني كنت أرتعد لمرأى مضادات الاكتئاب وهي تباع في الصيدليات بالجملة، يستهلكها الإيرانيون بإفراط، كالكثير من مسكنات الآلام الموسمية. حتى سپيده صديقتي الشابة اللعوب، استسلمت هي الأخرى للتشاؤم. على الرغم من أنها حققت حلمها بأن تصبح مراسلة صحفية ببراعة. وأثارت تقاريرها عن أطفال الشوارع والنساء المقدمات على الانتحار عن طريق ابتلاع الأسمنت في محافظة عيلام غيرة أفضل الصحافيين الإيرانيين. غير أنها، وتحت تأثير الرقابة المتزايدة والصحف التي أخذت تغلق تباعاً كل يوم، لم تعد قادرة على التعامل مع تغيير صياغة تقاريرها كما لو كانت قميصاً يتم استبداله. بدا مستقبلها ضبابياً. مليئاً بالعنف، مجهولاً وخطيراً. وهي كالعديد من زملائها في المهنة، لا تخرج من البيت دون أن تحمل في حقيبتها فرشاة أسنان، في حال تم اعتقالها. هكذا أسرَّت لي عندما التقيتها في مقهانا المفضل في طهران، قبل أن أمضي إلى العراق.

غالباً ما أفكر فيها في أمسياتي البغدادية، بعد الانتهاء من إرسال تقارير اليوم، وأنا أحدق في السقف. على الرغم من أنني أحب تغطية الأحداث في العراق، ووجودي إلى جانب الرجل الذي أحب، وتمكني أخيراً من الكسب من مهنتي بزيادة التراسل، إلا أن إيران ما فتئت تشغل باستمرار أفكاري. في بعض الأحيان تعذبني لساعات فكرة عدم تمكني من العمل هناك. فكرت في الطلاب المتمردين. حلمت بمدينة قُم، وبندر عباس وشهروري. في المنام كنت أرى المتسول الصغير في طهران مع طائر الكناري على كتفه، وأبيات حافظ في راحة كفه. فكرت أيضاً فيك أنت يا جدي، الحاضر الغائب. كنت لتصبح ملجأي في هذه الأوقات المضطربة.

ثم في صباح أحد الأيام من ربيع عام 2005، وتقريباً في الساعة نفسها التي تبدأ عندها التفجيرات اليومية، علمت بتجديد اعتمادي الصحفي.

مري لأخذه متى شئت. كانت الرسالة موقعة من وزارة الإرشاد. دون سبب أو صفقة مبرمة. قرأت الرسالة عشرات المرات، وأنا أفكر في احتمال كونها خدعة. إلا أن الأمر كان صحيحاً: تمت دعوتي للعودة إلى إيران من أجل تغطية الانتخابات الرئاسية المقبلة. وبعد بضعة أيام، تلقى بورزو أيضا أخباراً جيدة: عرضت عليه صحيفة لوس أنجلس تايمز أن يكون مراسلاً دائماً لهم في بغداد. كان عرضاً جذاباً، يصعب رفضه. فما العمل إذاً؟ البقاء في العراق؟ أم العودة إلى إيران؟ بقلب مثقل، كان علينا أن نقسم البيدر: بغداد، له، وطهران، لي. ولنا معاً، إجازة في الأردن، بين تقريرين.

كان هو من رآني أولاً. ماراً على دراجة نارية عند طرف الشارع الذي أسكنه. دراجة من ماركة هوندا من النوع الذي يركبه الباسيج ويزرعون به المدينة من شمالها إلى جنوبها. لم يتغير محمود المهووس بالشهادة، بلحيته التي تطوق عنقه وبنطاله الداكن وقميصه المصنوع من قماش البوليستر.

- «چه خبرّ؟ ما الأخبار؟». بادرني، فأحسست بشعور من عدم الارتياح وفكرت في أنه ربما كان يرقب عودتي.

كنا في شهر أيار/ مايو من عام 2005. وكانت احتمالات لقاءاتنا غير واردة بكثرة. فمنذ عشائنا في جبل دركه، قبل أن أصاب بداء "الإيران" بقليل، لم نعد نلتقي.

كانت طهران عبارة عن متاهة واسعة. لا أسهل أن يغدو المرء فيها مجهولاً أو أن يختفي في حشد مكون من اثنتي عشر مليون نسمة. ما يجعلني أتساءل ما إذا كان لقاؤنا ثمرة للمصادفة البحتة. بادرني قائلاً كما لو قرأ أفكاري:

- «لقد انتقلنا. نحن الآن نعيش في الحي الذي تسكنيه. إلى لقاء قريب، إن شاء الله!». ثم غاب في زحمة المرور.

في اليوم التالي، اتصل هاتفياً يدعوني بأدب جم لتناول الشاي. قبلت الدعوة مدفوعة بفضول أثارته تلك المصادفة الغريبة. لقد كنا جيراناً في واقع الحال. ولم تكن الشقة الجديدة الكائنة خلف جادة باسدران تبعد

كثيراً عن منزلي. لاحظت عند دخولي أن الوسائد التقليدية استبدلت بأريكتين كبيرتين. لا شيء هناك يذكّر بالجو المتزمت للبيت القديم. ومن جدار غرفة النوم التي كانت مرئية من المدخل، اختفت صور القائدين المعظمين المنقوشة على السيراميك. لم تفت محمود ملاحظة دهشتي فبرر قائلاً بعبوس يشي بعدم رضاه عن التطورات الجديدة:

- «تلك هي لمسات فاطمة».

- «هل أعجبتك؟». أردف صوت نسائي. استدرت نحو جهة الصوت وإذا بفاطمة وقد خرجت للتو من الحمام، رأسها التف بمنشفة وهي تنشر بمرورها عبق رائحة المسك. بحركة عارضة، ألقت المنشفة على الأريكة، كاشفة عن قصة شعر قصيرة جديدة، تشوبها خصلات شقراء. بلوزة سوداء كانت تصقل معالم جسدها، وقد بدا أكثر نحولاً. لم تزدها تلك الكيلو غرامات التي فقدتها إلا كمالاً.

* «واه!... يا له من تحول!». أجبت، مترددة في مديح ما أجرته من تغييرات قربتها إلى ذوقي.

لزم محمود الصمت. كان صمته يداري نوعاً من الحرج. كما لو أن تحرر زوجته يشوش الصورة التي رسمها لأسرته.

- «الحمد لله، فهي دائماً ما ترتدي البرقع الأسود عندما تخرج إلى الشارع، حفاظاً على السترة».

ثم سارع لتغيير الموضوع:

- «حسناً، ما الأخبار من جانبكم؟».

لم أكن أعرف ماذا أقول. كنت ما زلت أتساءل لماذا دعاني وماذا يريد. في لحظات مثل تلك، يزداد ارتيابي. لذا قررت أن أبقي قصة البطاقة الصحافية تلك قيد الكتمان.

* «حسناً، أنا أيضا تزوجت!». قلت لهم محاولة تغيير مسار الحديث.

- «من فرنسي؟». تساءلت فاطمة والحماس يملؤها.

* «كلا، بإيراني».

- «مبارك! تهانينا!» قال محمود بلهجة تنم عن موافقة.

هو الشهيد الحي، الوطني، والمدافع الشرس عن وطن يجله إلى حد التقديس، كان يبتسم من جديد، ربما لأنه شعر بالإطراء في قرارة نفسه، لأن إيران نجحت أخيراً في استمالة قلب امرأة غربية. وعندما قلت له إن بورزو مستقر في بغداد، اتقدت شرارة جديدة في عينيه.

- «آه، العراق». قال بصوت حالم.

العراق، ما زالت ذكرى البلد الذي كان أصغر سناً من أن يقاتل فيه تطارده. قال لي إنه منذ تدخل الولايات المتحدة، لم يفوِّت أي خبر عن الأحداث هناك. وكالعديد من الإيرانيين، استقبل بارتياح خبر سقوط صدام، العدو الأزلي. ولكن استمرار وجود الولايات المتحدة على أرض مجاورة كان يقض مضجعه. بالنسبة إليه، كان الوجود الأمريكي يُخفي خطة لا مكان فيها للحياد من أجل احتلال المنطقة برمتها. وكان على قناعة بأن إيران هي الهدف التالي لتلك الحملة الصليبية الغربية، وبالتالي على استعداد لحمل السلاح إذا لزم الأمر. وستكون تلك الحرب حربه. الحرب التي طالما انتظرها أبناء جيله. إلى جانب ذلك، أسرَّ إليَّ أن الباسيج قد استأنفوا تدريباتهم العسكرية التي أخذت في التراجع في السنوات الأخيرة. عادت الكلاشنيكوفات مرة أخرى إلى الظهور في ضواحي طهران استعداداً لتلك الحرب غير المتكافئة. وكان من الضروري الاستعداد للأسوأ بحسب زعمه.

- «وأنتم؟»، سألني. «المقيمون في العراق، ما رأيكم في كل هذا؟ ما

هي الأسلحة التي يملكها الجيش الأمريكي؟ هل صحيح أن قوة نيرانهم لا تُقهر كما يقولون؟ هلا تكرَّمتِ وأرسلتِ لي بعض الصور التي التقطتها هناك؟». ذكرتني أسئلته على الفور بالسيِّد فنجر. هل عليَّ أن أرى في سؤاله اقتناصاً لمعلومات عسكرية لصالح المخابرات؟ أم أنها مجرد أسئلة مشروعة من "نصف الشهيد" الذي يشكِّل كل ما يتعلق بالحرب هاجساً بالنسبة إليه؟

أثار فضوله ضيقي. لذا كان عليَّ أن أجد موضوعاً آخر للحديث. الانتخابات الرئاسية القادمة، على سبيل المثال. وصل خاتمي إلى نهاية فترة ولايته الثانية.

وأخذت أسماء المرشحين لخلافته تتداول: مصطفى معين، وزير التربية والتعليم السابق، المستقيل من منصبه بعد قمع الاحتجاجات عام 1999، علي أكبر هاشمي رفسنجاني، المحافظ البراغماتي، محمد باقر قالیاف، الحرس الثوري السابق الذي جذبته السياسة، وعلي لاريجاني، المدير السابق للتلفزيون الحكومي...

* «وأنت؟» سألته، «لمن ستمنح صوتك؟».

- «محمود أحمدي نجاد!» قالها دون تردد.

محمود أحمدي نجاد. كان للاسم وقع غير معروف. باستثناء القيود المفروضة على بلدية طهران حيث عمل منذ عام 2003، لم نكن نعرف الكثير عن هذا الإسلامي المتزمِّت، فقد حظر ارتداء القمصان قصيرة الأكمام على موظفي البلديات، والصعود في المصعد نفسه مع امرأة، واستبدال الحفلات الموسيقية في المراكز الثقافية بمسابقات قراءة القرآن. أما بالنسبة إلى محمود فلا يبدو أن في الأمر مشكلة، بل على العكس، كان أحمدي نجاد رجل فضيلة، يمتدح فيه حميَّته الدينية وبساطته، ويلقي على

مسامع الجميع أن مرشَّحه المفضل هو الابن المتواضع لحدَّاد، وأنه ارتدى مؤخَّراً ثياب عامل قمامة لإثبات قربه من الناس. حتى أنه وعد الجميع بحصة عادلة من عائدات أموال النفط. فضلاً عن أنه لم يكن يكدِّس في منزله أثاثاً لا لزوم له على الطريقة الغربية. بل يفترش السفرة على الأرض، ببساطة المسكن القديم في جبل دركه نفسها.

- «ناهيك عن مشاركته في الحرب الإيرانية-العراقية!». أصر محمود.

بالنسبة إليه، كان مكرساً له، على الرغم من غموض الدور الذي لعبه أحمدي نجاد في الباسيج، وما يشاع عنه من ميل إلى العنف في قمع المعارضين في ذلك الوقت، إلا أن مضيفي كان يرى في كل ما سبق تفاصيل لا داعي لها. بعيون مغلقة، كان يلمس فيه رجل الشارع، وابن الثورة الإسلامية النموذجي الذي يؤيِّده حتى النهاية. وقام منذ أسبوع، بتنظيم لقاءات في مسجده في جبل دركة لتعريف جمهور واسع بـأحمدي نجاد الحقيقي.

- «نحن في حاجة إلى رجل مثله لتحدي أمريكا!». بادر قائلاً.

اعتراني الفضول لمعرفة لمن تنوي فاطمة أن تصوت. كنت أتساءل ما إذا كانت تميل، كالكثيرين من الإيرانيين، إلى مرشَّح آخر. أو أنها تشترك مع زوجها في الحماس نفسه. كانت تصغي بصمت، دون أن يرشح منها أدنى تعبير. التفتُّ نحوها سائلة:

* «وأنت؟ هل توافقينه في وجهة النظر؟».

بدت وكأنها فوجئت بسؤالي، فقد تربت على طاعة خيارات الرجال، الأب والأخ والزوج. في حين كان محمود يقوم بمناظرته السياسية كانت هي تلعب بخصلات شعرها الرطبة. فأخذت نفساً عميقاً وقالت:

- «أنا لست مقتنعة بأن هذا هو الشخص الذي نحتاج».

ثم استدارت نحو زوجها، وابتسمت بخبث.

كما لو أنها قد تحررت للتو من عبء ثقيل، وضمنت للمرة الأولى في حياتها حقها في طرح الأسئلة، لا الموافقة على كل ما يقوله زوجها. حقها في أن تكون مختلفة.

«تعازيّ!»، عرفت فوراً صوت سپيده على الطرف الآخر غارقاً في الدموع.

كان يوم السبت الموافق لـ 25 حزيران/ يونيو 2005. لم تكن سپيده قادرة على الكلام، تحت تأثير صدمة الانتصار غير المتوقَّع لأحمدي نجاد.

لقد فاز بالانتخابات. هو الذي لم يُرجَّح وصوله إلى سدة الرئاسة، الإسلامي الملتحي الذي يرتدي سترة لا شكل لها، المشكوك في كفاءته حتى من قبل فاطمة. لقد فاز وانتشر خبر فوزه عند الفجر.

فوجئت سپيده، كحال العديد من الإيرانيين، بهذا الربيع الإيراني الذي استقبلته بنوع من الحداد.

وبالرغم من ذلك، أرادت أن تؤمن بإمكانية صحوة مؤقتة. كانت قد صوتت في الجولة الأولى في 17 من حزيران/ يونيو لصالح معين، آملة أن تجد في شخص وزير التربية والتعليم الأسبق حلاً مشرفاً للمأزق السياسي الذي أودى إليه حزب المحافظين. ولكن العديد من الإيرانيين استنكفوا عن التصويت، بعد نشوة السنوات الأولى لحكم خاتمي، في محاولة لمعاقبة أعوان الملاك بعد أن وضعوا آمالهم فيه. بالنسبة إليهم، انتهى موسم التغيير. ومع ذلك، ومن بين كل أطياف المرشحين، فإن أحداً لم يكن يتوقَّع فوز أكثرهم أصولية. وكانت المحصلة أنه وعلى غير المتوقَّع، وجد نفسه في الجولة الثانية وجهاً لوجه مع الرئيس السابق رفسنجاني، الذي حكم البلاد بعد الحرب ضد العراق، ويقال إنه قد أثرى على حساب

الإيرانيين: مواجهة غير مشجِّعة، أقل ما تقوله عنها الصحافة الليبرالية إنها تشبه تلك التي تواجه فيها لوبان وشيراك خلال الانتخابات الفرنسية قبل ثلاث سنوات.

في موجة من الذعر، أخذت سپيده ورفاقها يطوفون المدينة، متنقلين من مكان إلى آخر لتشجيع الناخبين على التصويت لرفسنجاني. تصويت الأمر الواقع كما وصفته.

كذلك صوتت فاطمة لرفسنجاني. في يوم الجولة الثانية، دعتني لمرافقتها إلى مركز الاقتراع. حتى أنها أصرت على أن أدخل معها إلى الغرفة السرية لكي أرى ورقة اقتراعها بأم عيني. كنت أشعر بالفخر بامرأة تتحرر في غفلة من زوجها، كانت دليلاً على أن البلد ما يزال يسعى نحو التغيير خلسة بالرغم من الضغوطات التي يمارسها النظام. عند المساء، في طريقي إلى البيت، عاد لي الأمل مرة أخرى. أقنعت نفسي أنه طالما هناك أشخاص مثل سپيده، فليس لأحمدي نجاد أيه فرصة بالفوز. ولجذب الشباب بوجه خاص، ألهب رفسنجاني الحماس باستعراض أنصاره يتزلجون عبر جادة ولي عصر، ويوزعون وروداً حمراء. أمر لم يسبق له مثيل، إلا أنه لا يمثل من هم كمحمود أو كإيران الأخرى التي يصعب علينا نحن الصحافيين الغربيين الدخول إليها، ولهؤلاء أيضاً وزنهم في صناديق الاقتراع.

بعيداً عن عدسات الكاميرات، تمكن الأخيرون من إعادة تفعيل دور الباسيج، الحرس الثوري، في المساجد والجمعيات الإسلامية. وبالمقارنة مع خطب خاتمي الشعرية المنمقة، كان خطابهم بسيطاً، موجزاً ومحملاً بوعود المساعدات الاجتماعية التي تجذب إليها الطبقات الفقيرة والتقليدية. كان أحمدي نجاد، من وقف في وجه الغرب وأمريكا واعداً بجعل النووي أداة للفخر الوطني.

هذا ما فهمته دفعة واحدة عندما اتصلت بي سپيده يوم السبت في 25 من حزيران/ يونيو، لتعلن لي فوز أحمدي نجاد.

* «أنا آسفة!». قلت لدموعها. «قد لا يكون بذلك السوء الذي يقال عنه».

بدا ما قلته لها أخرقَ ومزيفاً. فأجابت وهي تغالب نشيجها:

- «سترين، سيكون ذلك جحيماً. أؤكد لك!».

كانت سپيده على حق. ففي الأسابيع والأشهر والسنوات المقبلة، سيصبغ الرئيس الجديد إيران بالأسود. إذ قام بسرعة الضوء، بتنشيط البرنامج النووي الإيراني، معلناً حرباً كلامية على أمريكا، ليطلق من ثم عاصفة دولية حقيقية بدعوته لمحو إسرائيل من الخريطة.

- «نبيذٌ أم فودكا؟».

يطل رأس من وراء جبل من الخردوات، ويظهر موسى بابا ملوحاً بغالونين من البلاستيك، الأول يمتلئ بعصير أحمر والآخر بسائل يماثل في نقائه وشفافيته مياه الينابيع.

- «إذاً، نبيذ أم فودكا؟». ردد بصوته اللعوب وهو يدعوني للجلوس.

كان لموسى بابا طقسه الخاص في التعارف، تعارف غير مشروع، وهو أيضاً كان طريقته في المقاومة. فيكفي أن يمر زائر بمحله ليسارع في إخراج فاتح للشهية قبل أن يشرع في عرض كنوزه:

مخطوطات قديمة من التوراة، موزاييك فارسي مزيَّن بنجمة داود، آيات قرآنية بالخط العربي، وسجاد من أصفهان، ولوحات قاجارية، يضفي عليها في الكثير من الأحيان صفة أثرية يصعب التحقُّق منها، كزيارة آلان ديلون المزعومة مثلاً التي خصه بها في أيَّام الشاه. كانت تلك الحكاية الطريفة فاتحة لتجاذب أطراف الحديث.

بفرنسية تشوبها كلمات فارسية تذكرني بفرنسيتك، روى لي عن حنينه إلى الماضي والعصر الذهبي لتجارته الصغيرة، عندما كان السائحون الأجانب يتقاطرون على إيران، في تلك الحقبة، كان عدد أبناء طائفته يناهز سبعين ألف نسمة، يعيشون بسلام على هذه الأرض ذات الأغلبية المسلمة. إلى أن تعكّر صفو هذا التعايش منذ عام 1979، الذي شكل نقطة البداية لهجرة جماعية لليهود من إيران إلى أوروبا والولايات المتحدة

وإسرائيل. كان موسى بابا الوحيد المتبقي من عائلته، وأخوه إلياس الذي لم يعد يتحدث معه بسبب قصة سخيفة تتعلق بالمال. استمتعت بسماعه يقصها عليَّ دون مقدمات. كان إلياس، كموسى بابا، تاجر تحف قديمة، وهي حرفة اختص فيها أبناء هذه الأقلية الدينية، إذ كان من الممنوع عليهم الحصول على وظائف في القطاع العام. ولتكتمل المصادفات، فقد كان لإلياس متجر في شارع الباسدران، مقابل شارعك.

على الرغم من مزاجه السيئ، كنت أمرُّ به كثيراً لأنني أعلم أنك كنت تتصيَّد التحف لديه في حياتك. كنت أتخيلك هناك محدقاً في المنمنمات الفارسية التي كتبت في مديح جمال الأنثى الذي شوَّهه فرض الحجاب الإلزامي. عند كل زيارة لإلياس، كنت أستسلم أيضاً إلى إغراء وعاء من السيراميك، أو بساط، أو طيور صغيرة من البرونز. وكانت مشترياتي تستدعي استياء ماماني، التي كانت تعتبرها بمثابة نفقات غير ضرورية. أما بالنسبة إليَّ، فلكي يصبح المرء إيرانياً، عليه أن يقوم بتملك جزء صغير من تراث بلدك.

وخلال شراء مقتنياتي، بدأت ألاحظ بمرور الوقت أن الأسعار التي يفرضها الياس كانت تعادل ضعفي أسعار موسى بابا. وعندما نبهته إلى هذا الأمر، قفز الياس من كرسيه موفراً عليَّ عناء المساومة المعتادة بقبوله بيع صحن التقديم الذي كنت أنوي شراءه بنصف السعر. وبعد أسبوع، عندما رويت القصة لموسى بابا، قال لي ضاحكاً، «إنه أخي! مرت أعوام وهو يرفض التحدث إليَّ. حاولت كل ما في وسعي لنتصالح، ولكنه يكرهني».

وبعدها أصبحنا نتسلى بسيرة هذا الأخ الحاقد لدرجة الاستعداد بالتضحية بأرباحه للتنافس مع قريبه الوحيد الذي بقي له في البلاد. «الضحك سلاحك الذي لا يقهر في مواجهة من لا يريدون لك الخير!».

يقول موسى بابا متفلسفاً، على أمل أن تهدأ النفوس بمرور الوقت، وتزول التوترات الأخوية في نهاية المطاف. وهو ما كان شعاره الذي ينادي به بين أبناء طائفته الصغيرة، وكذلك عندما يلوح بلا كلل بغالوناته، ولسان حاله يقول لأنصار النظام، موتوا بغيظكم!

لكن إيران أحمدي نجاد ليست كإيران خاتمي.

عند رؤيتي للغالونين يتراقصان فوق رأسه هذه المرة، توقف قلبي للحظة عن الخفقان.

* «موسى بابا، هل هذا معقول؟». أومأت له قائلة، بأن يخفي شرابه المحظور تحت طاولة البيع.

مذ أصبح أحمدي نجاد في السلطة، لم يمر يوم دون أن تخصِّص الصحافة المحلية للمرة الألف عدداً ضد الكيان الصهيوني. حوَّل الرئيس الجديد إسرائيل إلى هاجسٍ له، مجيراً لصالحه جزءاً من كلمة قديمة لآية الله الخميني، شبه فيها تلك القطعة الصغيرة المثيرة للجدل من الأرض بالسرطان الذي يجب القضاء عليه مهما كلَّف الأمر، سبب جديد يدفع الجالية اليهودية في إيران للشعور بعدم الحصانة.

تحولت أنظار الكوكب القلقة إلى إيران. وهو ما حملني إلى موسى بابا في ذلك اليوم لإعداد مقال عن هذا الموضوع.

- «ليس من شأن تهديد زائدٍ أو ناقصٍ أن يغيِّر وجه العالم!». سخر تاجر التحف العجوز متشبثاً بغالوناته. ثم أومأ إلى أحمد، اللاجئ الأفغاني الشاب الذي يعمل كمساعد عنده، بأن يصب لي شراباً.

- «نحن اليهود، كأسماك تسبح في شبكة. عندما يكون كل شيء على ما يرام، فإنهم يبقونها في الماء. وعندما تسوء يسحبونها».

فهمت من خلال تشبيهه أنه يقصد استخدام الجمهورية الإسلامية

لليهود من بلاده ككبش محرقة عند تصاعد التوتر مع إسرائيل. تابع موسى بابا غارقاً في ذكرياته:

- «هل تذكرين حادثة الثلاثة عشر يهودياً من شيراز، الذين اعتقلوا بتهمة التجسس لصالح إسرائيل؟ بعضهم كان يبلغ أقل من 16 عاماً من العمر! تم سجنهم لأشهر من أجل أن يُطلق سراحهم أخيراً مقابل الإدلاء باعترافات قسرية على شاشة التلفاز.

الأسوأ أن هذا حدث عام 1999 في عهد خاتمي، صديق جميع الإيرانيين». أردف موسى بابا قائلاً.

ولكن أحمدي نجاد ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك. ففضلاً عن السجالات الحامية ضد إسرائيل، قام بالتشكيك بالمحرقة، معتبراً إياها أسطورة، ما يمثل تحدياً غير محسوب العواقب. حتى أن صحافياً إيرانياً في المنفى قام بنشر شائعات مفادها أنه سيكون على يهود إيران قريباً ارتداء نجمة حول أذرعهم. عندما ذكرت تلك الشائعات لموسى بابا، قام أخيراً بوضع غالونات الشراب جانباً. لكن حركته تلك لم تكن بدافع الجزع، وإنما بدافع رغبته في توضيح الحقيقة بأسرع ما يمكن.

- «لنكن واضحين: يكفي أن نشاهد التلفزيون الإيراني، لنرى أن اليهود غالباً ما اضطلعوا بدور الشرير.

لصوص، نصابون، جواسيس، وهلم جرا. في المدرسة، عندما كنت صغيراً، كان الأطفال يرفضون أن يشربوا الماء من كأسي. كنت نجساً بالنسبة إليهم. وحتى اليوم، يتجنب بعض الزبائن مصافحتي! ومن الواضح أنه قد تم تعزيز هذا التمييز الاجتماعي بعيد الثورة.

أما عن جعلنا نرتدي ثياباً بعلامات مميزة، فالنظام ليس مجنوناً إلى هذا الحد! إنها مجرد تخاريف يتناقلها المعارضون المقيمون في الخارج».

وعلى الرغم من أنه كان يهزأ بكل بساطة من النظام، كان يرفض تلك التصنيفات المتسرعة. فقد شاءت المفارقات في إيران، أن تحظى الجالية اليهودية الصغيرة على بعض الحقوق التي لا يمكن إنكارها، بالرغم من كونها موصومة بيهوديتها: فلها ممثلها في البرلمان، مدارسها ومشافيها ودور عبادتها. ويمكن لأفرادها حتى صنع النبيذ الذي نهى عنه الإسلام للاستخدام الطقسي، أو أكثر، شرط ألا يكون علنياً...

- «سأقول لك سراً، إذا تم ضبطي مع غالونات المشروبات الكحولية، سوف يعاملونني كأسوأ يهودي قذر. لكن بالنسبة إلى أحمد فعقوبة السجن لا مفر منها! أليس كذلك يا أحمد؟».

أطرق الصبي الأفغاني الجالس على الدرجات المؤدية إلى مخزن المشروبات رأسه.

- «تخيلي، لا يملك لاجئ أفغاني الحق حتى في شراء سيارة أو إرسال أبنائه إلى المدارس! ولا أتحدث هنا عن البهائيين المضطهدين من النظام، أو الأقلية السنية، المحرومة من المساجد».

تقع عينه على الجدار حيث صورة خامنئي كديكور مفروض على جميع التجار، ثم يهمس إلي:

- «لسنوات رجتني زوجتي أن أنضم إليها في إسرائيل. والحقيقة هي بالرغم من أنني تحت المراقبة، أشعر هنا أنني في بلدي. هذا كل ما في الأمر!».

فوجئت أنه لم يكن يلجأ إلى استخدام تقنية الورقة الطيارة، التي يستخدمها اليهود الآخرون في إيران. وكانت تلك طريقة معروفة ومحكمة تماماً: طيران ترانزيت إلى مطار اسطنبول، ومن ثم الحصول على تأشيرة دخول بورقة منفصلة عن جواز السفر للالتفاف على حظر السفر إلى

الأراضي المحتلة، ورحلة متخفية إلى إسرائيل خلال العطلة الصيفية! أجابني موسى بابا بأنه لم يكن مهتماً بذلك ولا يرى جدوى من كل تلك السرية. لا شيء في هذا العالم قد يدفعه، ولو لبضعة أيام، إلى أن يتخلى عن طعم الرمان ورائحة الزعفران. فهو يحتفل بالنوروز، رأس السنة الفارسية الجديدة، بالحماس نفسه الذي يحتفل به بعيد الفصح اليهودي.

بحركة بطيئة، أخذ أحد الغالونات وملأ كأسه بالشراب المحظور. ثم رفعه إلى السماء قائلاً إنه سيشرب نخب شوشتر، حيث تقع مقبرة النبي دانيال، وهمدان، حيث تدفن استير الملكة، والملك قورش الذي حرر اليهود من السبي عندما غزا بابل عام 539 قبل الميلاد وفقاً لما جاء في التوراة.

أراد موسى بابا الاحتفاء بالتاريخ الإيراني والتاريخ اليهودي اللذين لن يتمكن لا أحمدي نجاد، ولا أي رئيس آخر من فك عراهما. ثم أطلق عاصفة من الضحكات قائلاً:

- «أذهب إلى إسرائيل؟ لماذا؟ أنا لا أتكلم العبرية. الحياة أغلى من ذلك. إيران بالنسبة إليَّ أكثر عطاء من أم. إنها بلدي!».

في الواقع، لم يكن وسم أذرع اليهود بنجمة هو ما سعت إليه إيران أحمدي نجاد. بل كان هدفها هو الطلاب الذين طبق عليهم في الحرم الجامعي حظر من العصور الوسطى كفيل بوأد أي نوع من أنواع التفكير النقدي. طالب مشاكس: نجمة. شعار غير موالٍ:نجمتان. مظاهر معارضة: ثلاثة نجوم. ويكون الطرد من نصيب الطالب بعد النجمة الرابعة في سجله الذي تقوم الهيئة التأديبية بتحديثه دورياً، والتهمة: تهديد الأمن القومي. ولا ينجو حتى الأساتذة والمدرسون من براثن ملاحقة التفكير النقدي، فيكفي أن يثرثر الأستاذ قليلاً كي يصله على الفور قرار التقاعد المبكر مع الشكر. وفي الأشهر التي تلت، أصبح المشهد أكثر قتامة، تم القبض على مجموعة من الشباب، وتمت مراقبة صحفهم، وتهديد أصدقائهم بالمصير نفسه إذا ما تجرأ أحدهم على التمرد ضد القواعد الجديدة. وباسم أسلمة البرامج، أعيدت صياغة بعض المناهج واستبعاد بعضها الآخر. سارت الرقابة على الفكر في إيران الخصائية تلك، جنباً إلى جنب مع احتلال الفضاء العام. ففي إحدى ليالي الصيف هدم المدير الجديد للجامعة أمير كبير مقر رابطة الطلاب بالجرافات، ليستبدله بغرفة للصلاة. ومع اختفاء صرح التفاعل الفكري هذا من الحرم الجامعي، تلاشى جزء كامل من الذاكرة الطلابية.

وفي الوقت نفسه، تزايدت سطوة الباسيج تدريجياً بفرض الصراط المستقيم وملاحقة الفتيات ذوات الحجاب غير اللائق مجدداً. ولتحديد مجال نفوذهم، قاموا بدفن رفات بعض من شهدائهم الذين سقطوا في

الحرب الإيرانية العراقية وسط حرم الجامعة. وسرعان ما طالت إعادة التهيئة جميع القطاعات والمجالات الأخرى. ففي طهران، فرضت مسابقات قراءة القرآن نفسها واحتلت مكان البرنامج الموسيقي الغني الذي أورثته سنوات الانفتاح. وهدمت زاوية صوفية في قُم لإنشاء موقف للسيارات. أما بالنسبة إلى أولئك الذين عاصروا الثورة الثقافية في عام 1979، فقد أحيا العهد الجديد تلك الذكريات المروعة. كان أشبه بآلة تقوم بسحق إيران الحديثة. وباسم الخطر الخارجي القادم تارة من أمريكا وتارة من إسرائيل، أعلن أحمدي نجاد الحرب على شعبه مع سبق الإصرار. وأخذ البلد يصطبغ شيئاً فشيئاً باللون الأسود في حداد وطني دائم يمسك بتلابيب الناس حتى الموت.

بعد أن سحق نجاد آخر براعم الأمل، شرع يسرق من كل مواطن إيراني الرغبة في التنفس، وفي الحياة.

في هذا الجو الجديد من الإرهاب، جاء الموت يطرق بابي. اعتدتُ بمرور السنوات على الاحتكاك به عن قرب، وتوقفت عن عدِّ المعارضين المفقودين الذين قمت بتغطية صحفية عنهم، غير أن كل واحدة من تلك القصص كانت تدور في فلك منفصل، ما يجعلها بعيدة عن مآسي الحياة اليومية. إلى أن حلت تلك الليلة الكالحة عندما اتصل بي صديق يعمل كممثل، وأخذ يرجوني بيأس متمتماً على الهاتف برغبته في أن يأتمنني على أمر، أمانة لا يصح تسليمها عبر الهاتف. أشرت عليه أن يمر بي. كنت في المنزل. لدى وصوله، قرأت شحوب وجهه، فأدركت خطورة الأمر.

همس لي بصوت متهدج:

- «هل تذكرين أردشير؟».

أردشير، الممثل الشاب الشغوف بالمسرح العبثي. البهلوان اللعوب وبطل الشاهنامه.

اسم لا يمكن نسيانه! عند ذكره أمامي، خمنت مباشرة أنه اعتُقل بعد سهرتنا المجنونة عند نيلوفر، أو أن شرطة الأخلاق اعترضته. كنت أتابع عن كثب كيف كان يشق طريقه بشجاعة من خلال تعقيدات الرقابة الإيرانية. وبعد مسرحية "الزنوج" التي كتبها جان جينيه، وبعض المحاولات الفاشلة لإخراج مسرحيات أكثر جرأة، تخلى عن الخشبة لصالح السينما، فأجور العمل في الفن السابع أكثر إغراء. كما يتمتع بقدر أكبر من المرونة. في المسرح، كان على النص المسرحي أن يخضع بشكل منهجي للجنة رقابة

مسبقة، التي كانت من مهامها أيضاً مراقبة البروفة الأخيرة قبل العرض. وما أن يتم عرضها، حتى تصبح تحت رحمة حرس الأخلاق الإسلامية الذين قد يلغونها دون سابق إنذار، فتتبخر في دقيقة واحدة أشهر من البروفات والجهود الشخصية وتتحول إلى دخان. أما في السينما فالأمر مختلف، حيث يكفي تقديم سيناريو خلبيّ، ثم يمكن بعد ذلك تصوير الفيلم الحقيقي، والاحتفاظ بالمشاهد المناسبة لزيارات الرقابة المفاجئة. وبذلك يصبح الفلم مضموناً في الجيب! وقد تغذت السينما الإيرانية منذ قيام الثورة بتلك الحيل، حتى استطاعت الفوز بسمعة دولية حقيقية.

- «السينما، بالضبط». تمتم الصديق المشترك.

السينما. منذ بضعة أشهر، استطاع أردشير عند بلوغه سن الثامنة والعشرين، أن يخرج أول فيلم روائي طويل له. وتزامنت نهاية أعمال المونتاج مع ذكرى عاشوراء، وهي فترة حداد وطني في كل عام لاستشهاد الإمام الحسين. على الرغم من الانضباط الذي فرضته الحكومة في هذا الاحتفال الشيعي، أقنعه أصدقاؤه بتنظيم حفلة صغيرة في شقته في حي تجريش. بدأت الحفلة. وكانت هناك سندويشات، وموسيقى، ومرطبات، وكلمة مرور للدخول. وفي ساعة متأخرة من الليل، قرع الباب رجال يرتدون ملابس مدنية. قالوا إنهم من الشرطة، وإنهم يجب أن يفتحوا لهم. في البداية، تعنت أردشير ورفاقه. واكتفوا بإطفاء آلة التسجيل. ازدادت شدة قرع الباب. وبدأ زائرو المساء بركله. شعر الضيوف بالذعر. وهرع أكثرهم لياقة إلى الشرفة، ثم قفزوا من فوق الدرابزين إلى شجرة وتواروا في الحديقة. حذا أردشير حذوهم. كان يحفظ تلك الحركات عن ظهر قلب لكثرة ما قام بها في الحفلات الأخرى. لكن شقته كانت في الطابق الرابع. عندما قفز، استسلم الغصن لوزنه وانكسر. فكانت سقطةً مميتةً.

تابع الصديق قائلاً:

- «لقد نقله أصدقاؤه على الفور الى المستشفى. وفعل الأطباء كل ما في وسعهم لإيقاف النزيف، توفي بعد اثنتي عشرة ساعة متأثراً بجراحه».

عند تلك الكلمات، لم أجد ما أقوله. ابتلعت دموعي كلماتي. ظل المشهد يجتاحني لعدة أيام، ويغزو شاشة ذهني. ما أزال إلى اليوم أفكر في الكثير من الأحيان بما حدث، محاولةً إعادة بناء مجريات تلك الليلة في رأسي، بما فيها تلك اللحظة القاتلة التي تنقل المرء من الحياة إلى الموت: أمسية من موسيقى صاخبة، ضحكات، تمايل الرقصات، وعطر الحرية المسروقة. ثم وصول الباسيج، قرع الباب، انتهاء بدخول الشرطة، وتوسل المدعوين، العناصر الذين يرفضون سماعهم ولا يقبلون بالتنازل ولا حتى مقابل حفنة من الأوراق النقدية المدسوسة في كف أحدهم. وأخيراً الذعر، والشباب المختبئون تحت الأسرة، وغيرهم ممن أقفلوا على أنفسهم في الحمام أو لجأوا إلى الشرفة. وأردشير يقفز إلى غصن. ترى كم مرة فعلها من قبل؟

لكثرة ما تعرض لهذا الموقف، ظن أردشير أنه لا يقهر. ولتكرارها، أصبحت تلك الحوادث أشبه بلعبة. لعبة "ملك أم كتابة" بقطعة نقدية، لم يقاوم الغصن. سقط أردشير البهلوان. الفراغ. الموت. نهاية حلم. قتل البراءة.

الموت، الحياة، الحياة ضد الموت. بينما كان اللون الأسود يصبغ تدريجياً حياتنا اليومية على إيقاع صفارات إنذار الرئيس الجديد المميتة، قاد رجل ذو جرأة فريدة معركة شرسة ضد الأكفان المتزايدة. كان هذا الرجل هو باقي، الصحافي الثوري الإسلامي السابق، والصديق الصحافي الدائم، إيراني لطالما أدهشتني شجاعته ورؤيته البعيدة على الدوام. أطلق سراحه في عام 2003 بعد أن أمضى ثلاث سنوات في السجن. وبسبب منعه عن التعاطي في السياسة قام بالاستثمار في العمل الاجتماعي من خلال إطلاق جمعية صغيرة للدفاع عن حقوق السجناء. وكان أيضاً واحداً من القلائل المناهضين لعقوبة الإعدام، آفة أخرى تستشري في إيران أحمدي نجاد.

كنت أريد بالتأكيد أن أراه، لرغبتي في أن أقيس جرأته الثمينة بشكل خاص في تلك الأوقات الحالكة. أُغلق مكتبه في ساحة هفت تير منذ فترة طويلة لينتقل قسرياً إلى قمة برج في شارع الأردن، بسبب رهن العقار لدفع كفالة الإفراج عنه. يقع مكتبه الجديد في واحدة من عدة ناطحات سحاب تزاحمت في سماء طهران. أما نافذته فكانت تطل على مشهد لا يصدق: ساحة "بناء الحجر"، معقل السيد فنجر وزملائه الآخرين.

لست أعلم ما إذا كانت تلك الجيرة القريبة جداً لمقر المخابرات بداعي المصادفة أم بداعي الاضطرار، فإيران هي جبل من المفارقات غير المتوقعة التي يصعب فك ألغازها. أعرضت عن التنويه إلى مسألة الجيرة،

وركزت على رغبتي في فهم ماهية القوة التي تحركه للنضال من أجل المحكوم عليهم بحبل المشنقة، وهو المحكوم بالمتاعب.

- «حياة البشر كجذور شجرة. وما تبقى أغصان. إن رويتها بشكل جيد، فلن تخرج إلا أغصاناً جيدة. وبعبارة أخرى، إذا وجدنا حلاً لعقوبة الإعدام، سيكون هناك انفتاح في مجالات أخرى».

لمست حكمته المعهودة. بالنسبة إليه، لم تكن الحياة كلها مشاكل، بل كانت هناك حلول أيضاً.

على مكتبه كانت هناك أكوام من الملفات المتراكمة، وجميعها يحتوي قصصاً مأساوية: رجل معارض محكوم بالإقامة الجبرية وآخر محكوم بالمؤبد بتهمة الإثراء غير المشروع. موقوفة أُبعدت عن أطفالها. وجميعها حالات تكون العقوبة فيها إما الإعدام شنقاً أو رجماً في الساحات العامة بتهمة الإرهاب أو القتل أو الزنى.

في إيران يعدم مئات الأشخاص كل عام. وهي واحدة من الدول الخمس الأكثر تطبيقاً لعقوبة الإعدام في العالم، بما في ذلك على القُصَّر. والأرقام في تصاعد ملحوظ منذ تسلُّم أحمدي نجاد زمام الأمور.

وما أن تفوح رائحة قضية جديدة، حتى ينبري باقي للعثور على محامٍ، ومساعدة عائلة المحكوم، وتنبيه وسائل الإعلام في الوقت المناسب. عمل مضننٍ ودؤوب أشبه بعمل النملة.

كمراقب حريص لأوضاع بلاده، يستنتج باقي أن عقوبة الإعدام هي مصدرٌ لعنف المجتمع ككل. وإلغاؤها يسهم في تهدئة التوتر.

فوجئت بأنه فضَّل طريق المجتمع المدني على الالتزام السياسي والصحفي لمواصلة نضاله.

- «ليس لدي خيار. هذا هو المكان الوحيد المتبقي».

حُظرت صحيفته "جمهوريت" بعد أسبوعين من إطلاقها في خريف عام 2004. ومنعه تشديد الرقابة أيضاً من نشر كتابه الجديد، "الحق في الحياة"، الذي حاول من خلاله كمؤمن وعالم بالدين، إظهار كيف أن الشريعة الإسلامية لا تتعارض مع التطبيق المنصف للعدالة دون عقوبة الإعدام. وهو كان السبب، إضافة إلى عدة مقالات، في الحكم الهمجي الذي نفذه بالسجن ثلاث سنوات. إلا أن هذه السنوات لم تكسره، بل زادته معرفة ببلده وعلاقاته وأخطائه.

- «في السجن، قضيت الكثير من الوقت مع السجناء المحكومين بجنايات. عشت مع اللصوص ومدمني المخدرات والمجرمين الصغار. نميل، نحن المثقفين، إلى الاعتقاد بشكل مزعج بأن حقوق الإنسان تحظى بالاحترام عندما يتم إطلاق سراح واحد منا. غير أننا لا نمثل سوى عدد قليل جداً من السجناء».

مخالطته لوسط مختلف تماماً لمدة ثلاث سنوات، فتحت عينيه بحسب تعبيره، على حجم الفجوة التي تفصل المجتمع عن الطبقة المثقفة الإيرانية. هي الفجوة نفسها التي تسببت بالفوز الأخير لأحمدي نجاد، بشعاراته الشعبوية ووعوده التي تخاطب المحرومين.

- «ركز الإصلاحيون بكثرة على المفاهيم المجردة مثل الديمقراطية والحرية. ما علينا القيام به هو العمل الاجتماعي. وهو ما أسعى اليوم إلى إصلاحه بطريقتي».

أخذ هاتف باقي المحمول الذي كان يستقر على كومة من الوثائق بالرنين، فأجاب على المكالمة التي وردته من معتقل من منطقة كرج، على مشارف طهران، كان قد اتُّهم بالاختلاس وحكم عليه بالسجن عشر سنوات. قال إنه سمع بالجمعية وطلب المساعدة. خط باقي بعض

الملاحظات في دفتره. وبصوته الرصين والهادئ، وعد محاوره بالعثور له على محام. وعند انتهاء المكالمة، ثبت عينيه على صورة لطائر بأجنحة مطوية يجثم أسفل سلسلة من القضبان، وهو الشعار الذي اتخذه لجمعيته.

- «كثيرون هم السجناء الذين لا يحصلون على دفاع. حتى أن معظمهم لا يعلمون أن لهم الحق في ذلك. إن مجرد اتصالهم بنا هو انتصار بحد ذاته».

ثم أردف قائلاً:

- «لقد بت مقتنعاً أننا لن ننال الديمقراطية بالشعارات فقط. إن بادرة بسيطة في بعض الأحيان، لَخيرٌ من آلاف الخطب والكلمات».

كان باقي مقاوماً حقيقياً. في حين كانت الأبواب تغلق واحداً تلو الآخر، جعل من جمعيته المخرج الوحيد في ظل الرقابة. وعندما رافقني مودعاً حتى الباب، طلب أن أسدي إليه معروفاً، فقد سمع عن كتاب ألبير كامو عن عقوبة الإعدام. وأراد مني المساعدة في الحصول على نسخة منه، فهو يريد أن يترجمه إلى الفارسية. أجبته بنعم دون تردد. كيف يمكن رفض هذا النوع من الخدمات؟ وهكذا بدأت، دون علم مني، بالتحول من الصحافة إلى النضال.

في إيران الممنوع تلك، حيث ينكفئ كل واحد في ملاذه، أصبح تعلم لغتك يا باباي ملجئي الأخير. كنت حتى الآن أتدبر أمري برعونة مع الكلمات، أسلخها دون رحمة، عاجزة عن تمييز الفوارق بين دلالاتها اللغوية الدقيقة. حقيقة، لم أكن قد وجدت الوقت الكافي بعد للغوص بين الألف والجيم، ولا لكي يسترسل قلمي بالكتابة من اليمين إلى اليسار. كان من المفارقة، أن الرقابة المهيمنة أسدت لي خدمة العمر وقدمت لي فرصة الالتقاء بسارة. سارة باحثة شابة في علم الاجتماع. تقوم بتدريس الفارسية بالإضافة إلى المسوح الميدانية لزيادة دخلها. اقترحت عليَّ سارة منذ الدرس الأول أن أكتشف اللغة بواسطة المدونات، وهي أيضاً تحرر واحدة متخصصة بالشعر. لو كنت بيننا يا جدي، لأثّرت فيك كما أثّرت فيَّ.

وعلى الفور اتَّبعتُ طريقتها، بعيداً عن الطرق الأكاديمية. ازدهرت المدونات في زمن القمع. كانت عالماً موازياً، محمياً على شبكة الإنترنت، ساخراً من مقص الرقيب. بين المحكي والمكتوب، قدمت المدونات فرصة لقراءة مواد لا توجد في الصحف. نصوص قصيرة. كلمات بسيطة. عبارات دون فعل. كانت مقدمة مثالية لتلك اللغة الهندوأوروبية المفرطة في الرهافة. الفارسية التي تكتب كالعربية، هي عبارة عن لعبة تخمين لا تنتهي. على الورق، تظهر الحروف الساكنة فقط. أما حروف العلة فهي تقرأ ضمنياً بالتشكيل الذي يغيب عن شاشات الكمبيوتر.

زهرة، غُل، يمكن قراءتها غِل، طين. كما يجب التحلي بالخيال لفك

معاني التعابير. فكلمة "حبيبي" في لغتك تعني "قلبي". الصداقة والحب على السواء، يتم التصريح بهما بالاستعارات.

قد يقول لك أحد الأشخاص المقربين: ليتني الغبار تحت حذائك. للتعبير عن اشتياقه، ولا يقال: "أشعر بالوحدة" وإنما "بقلب هزيل". تشرح لي سارة أن الفارسية هي لعبة "استغماء" دائمة مع المشاعر. علينا القراءة باستمرار ما بين السطور للكشف عن المعنى الأصلي. وكأنما ولدت تلك اللغة لتعيش. وعندما فرض الفتح العربي في القرن السابع أبجدية جديدة، تقبّلها الشعب الفارسي تحت ضغط الغزاة، إلا أنه نجح في الحفاظ على مفردات لغته الأصلية. وبعد ثورة 1979، حاول آيات الله تطعيم اللغة المحكية بكلمات جديدة من اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، في هجمة جابهها العلماء مثلك بسرد الأشعار ونظم القوافي مثلما كان البعض يتلو الآيات القرآنية. وقد قاومت سارة أيضاً بالكلمات. كنت أضحك لرؤيتها تتكلم الفارسية الصافية كما في قصيدة لسعدي.

وهي لا تستعمل كلمة "متشكرم" المنحدرة من العربية لتقول شكراً. بل "سپاسگزارم". طريقة خفية لإظهار معارضتها للنظام.

كانت سارة شابة نحيلة طافحة بالطاقة، امرأة-طفلة غارقة في التناقضات التي تخفيها تحت ابتسامة ملائكية. تنتمي إلى عائلة عانت الكثير جراء استلام المتدينين للسلطة. وكعماد الدين باقي، المقرب منهم، عاش والداها الأمل وحُمّى الثورة. ولكن سرعان ما تجلّت أمامهما الحقيقة المرة بأن الجمهورية الإسلامية خانت الإسلام أكثر مما خدمته. والدها المنخرط في حركة "ملي مذهبي"، دفع الثمن غالياً بانتهائه وراء القضبان. وفي عائلته أيضاً شهداء من الحرب العراقية الإيرانية وأفراد من حركة "مجاهدين"، المعارضة المسلَّحة للنظام. وهي عينة حقيقية من المجتمع الإيراني، وخير مثال على تنوعه الغني. من بين جميع الأقارب، كانت سارة

المتمردة الحقيقية. فلم تكن منضمة إلى أي تنظيم سياسي. جعل منها ميلها الدائم إلى عدم الثقة في السياسة "روشنفكر" مفكرة حرة بكل ما تحمله الكلمة من معنى. تزوجت سارة في سن مبكرة، وأسرت إليَّ أن طلاقها كان نقطة انطلاقها نحو الحرية، حيث انتقلت للسكن بمفردها، وبدلت الملاءة السوداء الصارمة بوشاح أخف. فكانت الردهات في الجامعة تضج بالقيل والقال عند مرورها. غير أن هذا الأمر لم يردعها. ملجؤها كان كتابة القصائد التي تهرب إليها كل يوم بعد صلاة العشاء. وكثيراً ما كان الإلهام يزورها ليلاً عندما تغفو المدينة، فتخطّه في دفترها على ضوء الشموع. وبخلاف القرآن، فإن أشعارها تدور حول الحرية والحب والنشوة أحياناً، حتى أنها تغني أشعارها وهي تكتب في خلوتها الثمينة التي كانت ملجأها كمدونتها التي لاذت بها أشعارها منذ وصول أحمدي نجاد إلى الرئاسة.

غصت مع سارة تدريجياً في عالم آخر. عالم الكلمات. وتعزَّز بيننا من خلال الدروس نوع من التواطؤ الفريد. كانت تقرأ لي قصائدها التي لم تنشرها بعد، مختبرة بذلك التقدم الذي أحرزه في الفارسية من خلال فهمي للقصيدة. ولكي أثبت لها اجتهادي وجدِّيتي في التعلُّم، كنت أكتب وظائفي في نسخ لافتات الطريق التي كان في إمكاني قراءتها، وتضحك عندما أقول لها إنني حلمت حلماً بالفارسية. في المقابل، كنت أضحك عندما يجبرها قضاء ليلة طويلة من الأرق في الكتابة على الوصول متأخرة ساعة على الموعد، غير أن ما من شيء أمكنه إلغاء درسنا. كان كفقاعة نلجأ إليها، ما أن نغلق على أنفسنا باب هذا "الأندرون" الفارسي، حتى نشعر بأننا أحرار كما لم نكن يوماً. ويتبخر كل شيء فجأة: المخاوف، الممنوعات، وشعورنا بعدم اليقين. كنا مختلفتين، ولكنها بمرور الوقت أصبحت أقرب صديقة إليَّ. يعود الفضل في ذلك إلى اللغة المشتركة: كانت سارة أول من تحدثت إليه باللغة الفارسية. وبفضلها استعدت النصف الآخر من هويتي.

في إحدى الليالي قررت أن أفتح قصيدة حافظ، تلك التي تركتها لي كإرث. أثقل عليَّ خوف أن أتعثر من جديد في الأبيات المخطوطة بالخط الفارسي الجميل. في أيامي الأولى في إيران، لم أكن أستطيع أن ألتقط سوى اللحن. أما الآن، فكل كلمة وجدت مكانها، كما لو كانت لعبة تركيب أحجية.

بدأت القوافي تداعب الصفحة. تمكنت أخيراً، بنفس واحد، من قراءة تلك القصيدة عن الأمواج والسفر والدعوة إلى المغامرة أبعد من أمان الشاطئ.

يقول بول فاليري: نحن لا ننتهي أبداً من كتابة قصيدة، وإنما نقرر فقط أن نكف عن كتابتها. لقد أورثتني هذه القصيدة دون مقدمات.

مع عناد سنوات، في حلقة الزمن السري، أضحى هناك معنى لقصيدة الموجة. ولحياتي أيضاً. أدركت في تلك الليلة، أنك لست أنت وحدك من جئتُ إلى إيران باحثة عن لغزه، وإنما أيضاً جئت بحثاً عن القليل من ذاتي.

بينما كنت أتعلم الفارسية، كانت فاطمة الباسيج قد بدأت بتعلم اللغة الإنجليزية. اكتشفت شغفها الجديد بلغة شكسبير خلال سهرة عشاء في بيتهما. كانت قد عادت للتو مع محمود زوجها من دبي، في أول رحلة لها خارج إيران. محمود الذي لطالما كان غامضاً حول أنشطته، قال إنه سافر إلى هناك لأسباب مهنية. وهي سافرت برفقته، لتتسوق متفرجة فقط على ما تعرضه واجهات المحلات ولتتذوق الماكدونالد في تلك المدينة-السوبر ماركت الخارجة من الصحراء. وفي رحلة العودة على متن الطائرة، التهمت بعينيها رواية "ذهب مع الريح" التي اشترتها من مكتبة في الإمارات. بكت فاطمة كل دموع جسدها تأثراً بشعور العشق الذي كان حتى الآن شعوراً ينتمي إلى عالم مجهول فُتحت أبوابه فجأة.

- «لا يفارقني الكتاب أبداً، أعيد قراءته كل ليلة». أسرَّت إليَّ خلال السهرة، قبل أن تتوارى في المطبخ، وتظهر سريعاً حاملة طبقاً مليئاً بأصناف غير اعتيادية بالنسبة إلى وجبة إيرانية: سلطة خضراء، وبعض الخضار المطبوخة بالبخار وشرائح اللحم المفروم.

- «هذه وصفة لايت». قالت وهي تنبري في شرح كيفية اكتشافها لتلك الوصفة عبر قناة فضائية ألمانية.

ألقيت نظرة عابرة على التلفزيون. في مكان باقة الزهور البلاستيكية التي كانت عنصر التزيين الوحيد الناجي من منزل جبل دركه، كان هناك مربع وامض: أحد تلك المستقبلات غير المرخصة التي تسمح بالاتصال بالعالم الخارجي. وحسب المرء في طهران أن يعد الصحون اللاقطة التي

اجتاحت أسطح المباني لفهم مدى رغبة الإيرانيين في خرق المحرمات. انتهى الزوجان الباسيج هما أيضاً بالإذعان إلى إغراءات الخارج.

ثم أخذتني فاطمة جانباً. أرادت أن تريني على هاتفها المحمول، صورة لجسدها بالبيكيني بعدما أصبح أكثر رشاقة، صورة أخذتها في ظل شرفة غرفتها في فندق في دبي.

- «لن تقولي لزوجك، أليس كذلك؟».

بصراحة، كانت تموت رغبة في أن أقول لبورزو، لحرصها على أن تعكس صورة مختلفة عن تلك التي لزوجها المحافظ.

تمنح لوس أنجلس تايمز بورزو عطلة من أسبوعين كل ستة أسابيع للابتعاد عن المستنقع العراقي، هناك حيث أخذت تتوضح معالم حرب دينية بين السنة والشيعة في الهجمات اليومية ضد القوات الأمريكية. وبطبيعة الحال، أمطره محمود، الشهيد مع وقف التنفيذ، بالأسئلة حول الجيش الأمريكي. أما فاطمة، فقد جرتني إلى نقاشات أكثر حميمية حول الملابس الداخلية الفرنسية. لا تتوقف تلك المرأة عن مفاجأتي. كلما عاشرتها رأيت تحوُّلها أكثر فأكثر. بعد هذا العشاء الخفيف وغير التقليدي، بدأت تتصل بي بانتظام لتناول القهوة أو الآيس كريم، بذريعة تمرين لغتها الإنكليزية، ودائماً ما كانت تتدبر أمر التطرق لموضوعات ما زالت من المحرمات في إطار زواجها: حبوب منع الحمل والإجهاض والحب قبل الزواج. قالت لي إنني الوحيدة التي يمكنها الوثوق بها ومناقشة تلك الموضوعات معها. وفي عيد الفالنتاين الذي يحتفل به الشباب العصري في طهران بتبادل الهدايا، قدمت إليَّ شمعة عطرية مغروسة في كأس شامبانيا وردي اللون. «عربون صداقة»، قالت وهي تبتسم. كانت تحب اقتناء أغراض ذات ذوق بلدي. ولم أكن أستطيع أن أخمن عدد الحلي الحمراء والصفراء والذهبية التي كانت ترتديها تحت طيات عباءتها الداكنة.

بعد أشهر قليلة، كفت عن ارتداء الحجاب الطويل، مفضلة عليه وشاحاً ومعطفاً عملياً أكثر. وما كان من محمود إلا أن أذعن إلى رغبتها. شرط أن تكون "غراباً أسود" في حضور أهله. كانت فاطمة تتصل بي أحياناً كي نذهب سويةً للتنزُّه في جبل دركه. وفي أعاليه كنا نلتقي بزوجها لتناول الكباب سويةً. أخذت الأدوار في هذا الثنائي تنقلب بشكل مضطرد. هو الذي كان عادة يثرثر بحماس دون انقطاع، وجاهزاً دائماً للدفاع عن أحمدي نجاد وخامنئي، انكفأ على نفسه متراجعاً. وهي بصوتها ذي النبرة الحادة تسأل وتجيب. "تفرنجت" فاطمة بقدر ما أصبحتُ أنا إيرانية، كما لو تبادلنا الأدوار.

لم أكن أنا الدافع الوحيد لتحررها. ففي أحد الأيام أخذتني إلى صالون التجميل المفضَّل لديها. أحد أشهر الصالونات في رسم وتجميل الحاجبين في طهران، وفتحت لي قلبها قائلة: «تطلقت أختي للتو». فقدت بذلك الحق في حضانة طفليها، وهو ظلم تعاني منه الكثيرات في إيران. غير أن فاطمة لم تكن تعي حجمه بعد، لكونها محمية في عالم الباسيج. وها هي معاناة الإيرانيين تنفجر الآن في وجهها فجأة. ولهذا ثارت ضد التميز الذي كانت ضحيته، وقالت لي إنها تريد ان تستأنف دراستها التي تركتها بعد زواجها، دراسة الحقوق على وجه التحديد هي ما كانت تهمها: العودة إلى مصدر القانون، لفهم أصل ذلك التمييز بين الجنسين.

وبالرغم من إعجابي المتزايد باستقلاليتها، إلا أن استمرارها في الجهر بولائها للنظام كان يفاجئني عندما أصادفها، وهي ترفع قبضتها نحو السماء خلال المسيرات المؤيدة للحكومة في ذكرى الثورة أو ذكرى احتجاز الرهائن الدبلوماسيين الأمريكيين. هل كان هناك نفاق في نهجها؟ هل هي مجرد ذريعة للاحتفاظ ببطاقة الباسيج وما لها من مزايا؟ أم هو مثال آخر عن الانفصام الإيراني؟

أما فاطمة، فلم تكن تعبأ بتلك الأسئلة، لأنها تعي تماماً تناقضاتها. لدرجة أنها فتحت أمامي دون تعقيد جميع أبواب عالمها.

- «يكفي حديثاً عن السياسة!». قالت في ذلك اليوم ونحن جالستان في صالون تجميل صغير، «أنت مدعوة غداً إلى سهرة فتيات!».

كانت سهرة ماتينيه، بدأت من الساعة الرابعة بعد الظهر. أقيمت الحفلة النسائية الصغيرة في منزل إحدى زميلاتها الباسيج، وهو غير بعيد عن جبل دركه. لاحظت بمجرد دخولي إلى الشقة أن ثورة فاطمة قد امتدت إلى عالمها الصغير، عالم الباسيج. عند المدخل، عُلقت العباءات السوداء على المشجب كجثثٍ فوق أعواد المشانق، بينما كانت صاحباتها يتمايلن على حلبة الرقص في قلب غرفة المعيشة، ويرقصن على أحدث الأسطوانات الممنوعة الآتية من "طهرانجلس"، عاصمة المطربين الإيرانيين في المنفى. وقد تنافست أزياؤهن في الجموح: بوديهات ضيقة جداً، وحمالات صدر باللون القرمزي تحت القمصان الشفافة، سراويل من الجلد الصناعي أو جلد الفهد، وأحزمة مرصعة بالمسامير. ومن بين جميع صديقاتها، كانت فاطمة أكثرهن إثارة مع بطنها المكشوف وصدارها ذي الشرائط. كنت أشاهد العرض. ثم رأيتهن يختفين، الواحدة تلو الأخرى، في غرفة النوم للصلاة عندما رفع المؤذن آذان المغرب، ثم عدن للظهور على حلبة الرقص وكأن شيئاً لم يكن. أخذت فاطمة بشكل خاص تلوِّح بخصلات شعرها يمنة ويسرة، مثل أسد هارب للتو من قفصه.

من موقعي في إحدى الزوايا كنت ألتقط لها بعيني صوراً لأدق حركاتها، كباحث في علم الإناسة.

- «ماذا تنتظرين لكي تأتي وترقصي معنا؟». هتفت.

لم أكن قد تزحزحت من مقعدي منذ بداية الحفلة. تحت إلحاح

فاطمة التي شدتني، وجدت نفسي أنضم إلى حلبة الرقص على أنغام أغنية "سبايس غيرلز". شكلت الفتيات حولي حلقة وأخذن يزغردن، ثم رفعت يدي وبدأت أفرقع بأصابعي مقلدة حركاتهن. بينما كنت أرقص، عاد وجه أردشير المتوفى إلى ذهني: فكرت في حواراتنا في الماضي، في أحاديثنا حول المسرح العبثي الإيراني الناشئ.

من يمكنه تصديق أن الذين تسببوا في وفاة هذا البهلوان الشاب ينتمون إلى المجموعة نفسها كهؤلاء الباسيج المتحولين.

هل كنت لتتخيل ذلك يا باباي؟ لقد انخرطت الجدة أيضاً في المقاومة. في صباح أحد الأيام أرسلت بطلبي إلى شقتها في الطابق السفلي. كان إصبعها يضغط بإصرار على زر الإنترفون، أرادت أن أنزل حالاً لرؤيتها على وجه السرعة.

- «انظري إلى زيي الجديد!».

كانت قد أخرجت معطفاً مطرياً رمادياً نجح في مقاومة كل العواصف، فكت بتأنٍ مشابكه القديمة، واستعاضت عنها بأزرار جديدة اصطفت عمودياً بدقة، كان لونها ذهبياً وتحمل نقشاً لوجه... وجه شاه إيران السابق!

- «لقد فككتها من بزة قديمة لجدك». قالت.

* «وهل تنوين الخروج هكذا إلى الشارع؟».

- «ولِمَ لا؟» أجابت وقد ثبتت يديها على وركيها، في حركة تحدٍّ.

في تلك اللحظة، أدركت وأنا أنظر إليها، حجم المتنفس الكبير الذي وفَّرته الصحون اللاقطة لمجتمع مقموع.

قبل أسبوع، كنت قد استسلمت بدوري لفيروس الصحن السحري بأن أهديت ماماني واحداً.

فمنذ أن تبخرت ماري، صديقتكما المشتركة، وهي منطوية على نفسها في عزلتها. قلت لنفسي: لعل مئات القنوات المتلفزة قد تجلب لها السلوى والعزاء. في البداية كان صعباً عليها العزف على أزرار جهاز التحكم عن بعد، ففوجئتْ به يتحدث الإنجليزية غالباً، الصينية قليلاً والفارسية في

بعض الأحيان. توقف الاستياء على الفور بعد أن كتبت لها ورقة بأرقام المحطات الإيرانية التي يناهز عددها الثلاثين، وتُبثُّ من لوس أنجلس، وفيها ما يرضي جميع الأذواق: الموسيقى، الطهو، الأفلام، اليساريين، الفوضويين والملكيين. يديرها الإيرانيون المقيمون في المنفى، لذا مثلت صوت المعارضة في الخارج.

وسرعان ما وجدت ماماني ضالتها في العديد من المناظرات التلفزيونية التي كانت تبث بين أغنيتين مصورتين، كانت تعرض مجموعة متنافرة من المعارضين والخبراء والسادة العالمين بكل شيء الذين يقدمون لساعات مناجاة ملحمية حول مستقبل بلدهم. لم تكن انتقاداتهم اللاذعة للنظام سوى إعادة إنتاج لطرق تفكيره بشكل مختلف. بدأت ماماني التي لطالما تجنبت السياسة فجأة، بتبنِّي خطابٍ حول الرجم، وانتهاك حرية التعبير، وإلزامية ارتداء الحجاب. كما أنها أصبحت خبيرة بأسماء آيات الله المعارضين، والطلبة المسجونين والمنشقِّين في المنفى. مع ميل لتفضيل نجل الشاه رضا بهلوي، المنفي في ولاية فرجينيا مع زوجته وأولاده.

لم تكن قصة الأزرار سوى حلقة من مسلسل التعلُّق بالصحن اللاقط. عاد وريث الشاه الذي لطالما كان غائباً، للظهور مرة أخرى على وسائل الإعلام. وكان يقوم بجولات عديدة في الخارج، قافزاً من عاصمة إلى أخرى، مجرياً مقابلات بالجملة. واستطاعت ماماني قضاء أيام منعزلة في غرفتها، ملتصقة بالتلفاز، متابعة بدقة ظهور الشاه الصغير. وخشية من أن تفوِّت أصغر لقطة، انتهت بأن قاطعت الإنترفون، وسيلة الاتصال المفضلة لديها، الذي استعملته دون كلل للاتصال بي.

في أحد الأيام كنت أجلس إلى طاولتي ورأسي مدفون في وظائف اللغة الفارسية عندما رن جرس الهاتف.

كانت ماماني في حالة انفعال:

- «أسرعي أسرعي! تعالي لمشاهدة التلفاز! سيتحدث سمو الشاه رضا بهلوي على الهواء مباشرة!».

قفزت فوراً من مقعدي. لم أستطع أن أصدق صراحتها. كان ترديد اسم الشاه على الهاتف في عهد أحمدي نجاد كفيلاً باستجرار اللعنات والمصائب. نزلت الدرج بأقصى سرعة، وهرعت مباشرة إلى غرفتها، أومأت لها وسبَّابتي على شفتي بأن تصمت حالاً. رفعت ماماني حاجبها ونظرت إليَّ باستغراب.

- «ولكنني لم أقل أي شيء خطير! ما الذي عكر مزاجك؟ تجعلين من الحبة قبة لأجل لا شيء!». قالت لي موبخة. فواجهتها بالصمت. هناك نوع من المفارقات في المصير الذي ربطنا. فبعد كل تلك السنوات من العزلة وعدم الثقة بالآخرين، كانت هي، ماماني، من أعطتني دروساً في الشجاعة.

في هذا العالم الصغير الذي يحكمه أحمدي نجاد، لم يكن هناك مجال للأصوات الناقدة، ولا المستاءة. عندما بدأ سائقو الحافلات بالشكوى، انتهوا هم أيضاً وراء القضبان. هؤلاء السائقون الذين يمثلون الناس البسطاء إلى جانب النساء والأطفال، ممن قام الرئيس بوعدهم بعائدات النفط، دفعوا الثمن غالياً نتيجة إضرابهم سعياً للحصول على أجور أكثر عدلاً ومركبات جديدة وإلحاقهم بالضمان الاجتماعي. بعد بضعة أسابيع على الإفراج عنهم، وصلتني رسالة إلكترونية. كان ذلك في صيف عام 2006. دعاني أحد قادتهم، وكنت أعرفه جيداً، إلى الحضور واللقاء بهم. أرادوا أن يتكلموا عن السجن والتهديد ونهاية الحلم. كنت على علم بالمخاطر التي تنطوي عليها إثارة هذا الموضوع المتأزم، فهو كوضع القلم في الجرح، على حد قول ألبرت لندن.

ما زاد الوضع تعقيداً، هو انتهاء صلاحية بطاقتي الصحافية قبل بضعة أيام. كنت أنتظر تجديدها. وفي ذاك المساء عينه، كان عليَّ أن أوافي بورزو إلى الأردن، فقد مرَّ شهران على لقائنا الأخير، وكان من المحال أن أفوِّت الطائرة، لذلك ترددت. كنت ممزقة بين رغبتي في أداء واجبي والخوف من المخاطر. إلا أنني فكرت في جرأة ماماني، وفي باقي ومقاومته من بين السطور. وشعرت أنه سيكون من الجبن رفض المقابلة. من الذي سيروي قصة سائقي الحافلات إن رفضت أنا دعوتهم؟ أخذت قطعة نقدية. لعبت لأول مرة في حياتي لعبة "ملك أم كتابة". كتابة: أذهب. صورة: أعتذر عن الذهاب.

أغلقت عينيّ ورميت بالقطعة النقدية، فتراقصت قبل أن ترتطم بالطاولة وتستقر فوق خشبها. عندما فتحت عيني، كان الخيار قد حُسم: كتابة. عليَّ أن أذهب.

استجمعت قواي. كان عليَّ أن أكون حذرة. أكدت الموعد برسالة إلكترونية. ثم تناولت من أعماق خزانتي أطول معطف أسود فيها وحجاباً داكناً يتماشى معه. أخرجت حقيبة عتيقة للتسوُّق من المطبخ، وفي الطريق، اشتريت علبة كبيرة من الحلويات لتضليل العيون الفضولية. أوقفت سيارة أجرة على بعد بضعة أمتار في الطريق. وبحجة زيارة عائلية قلت للسائق أن ينتظرني عند أسفل البناء.

صعدت الدرج كما تفعل الإيرانيات عادة، دون النظر إلى الوراء. فُتح بابٌ عند مروري في الطابق الثاني، فانزلقت من خلال فرجته بصمت. كانت الشقة مظلمة وصغيرة، تعبق برائحة الغضب. أطلق السائقون الذين تربعوا على الأرض جوقة من الهمسات، مفضين بكل همومهم: الأجور غير المدفوعة، وخواء البطون والجوع والإحباط السياسي، والرغبة في التمرُّد.

عند الخروج من المقابلة، ركبت سيارة الأجرة، متأبطة حقيبة التسوق. في الشارع، كان النهار يميل نحو المغيب في لحظة مفصلية حيث تغطي السماء في وقت متأخر من العصر مسحة من اللون الوردي. لم يكن لديَّ سوى بضع ساعات لكتابة مقالي قبل حزم الأمتعة والتوجه نحو المطار.

انعطف السائق نحو المفرق الأول يساراً ثم الثاني يميناً. لم تكن هناك زحمة سير، باستثناء بعض المارة المتجولين في ساعة الغسق تلك. ثم فرملت السيارة بعنف، وفاحت رائحة احتراق مطاط الإطارات، تلاها صوت صياح، ثم زمجرة أطلقها سائق السيارة. ظننت أن العجلة قد ثُقبت.

ضربت السيارة حافة الرصيف. رفعت رأسي فرأيت دراجتين ناريتين تعترضان الطريق، من نوع الدراجة نفسه التي يركبها محمود.

- «من أين أتيتم؟». نبح في وجهي أحد الرجلين الملتحيين وهو يفتح بابي فجأة. كانوا من الباسيج!

تمتمت قائلة:

* «زيارة خاصة. بمناسبة عيد ميلاد أحد الأصدقاء».

لم يصدِّقني. فكرَّر:

- «أين كنت؟».

لم يتح لي الوقت لكي أرد. وجدته جالساً على يساري تماماً، في المقعد الخلفي. وانزلق صديقه إلى جانب السائق، كان السائق وراء المقود صامتاً لا ينبس بكلمة. وقد شل الموقف حركته. أمسكت بهاتفي النقال. وهممت أطلب الرقم الأول في القائمة.

- «كلا!». صاح الذي كان بجواري، مجبراً إياي على الضغط على زر إنهاء المكالمة.

ثم أمر السائق بإقفال الأبواب. كيف أصبحت فجأة وسط تلك الفوضى؟ هل كان هناك مخبر بين السائقين؟ وهل كان لمحمود، زوج فاطمة الغامض، ضلع بالاشتراك مع الذين نفذوا هذه المداهمة؟ لم يكن هذان الملتحيان من النوع الأليف. كتفاهما كأكتاف العمالقة، ولهما جسمان كأجسام الملاكمين. يحملان في أيديهما أجهزة الاتصال اللاسلكي. كان الجو حاراً في السيارة. بدأت أشعر بالدوار. أردت أن أتظاهر بالإصابة بضربة شمس. ولكن الشمس كانت تغيب.

وهنا قال أحدهما:

- «افتحي حقيبتك!».

أومأت برأسي بالنفي. كنت خائفة من أن أفتحها. خائفة من أن يجدوا فيها محضر المقابلة. كنت أريد أن أحمي السائقين. وأن أحمي نفسي أيضاً. أخذ الملتحي يزمجر وخرج من السيارة، رأيته من خلف الزجاج يكبس أزرار اللاسلكي، فقدرت أنه يتصل برؤسائه.

لم يكن في استطاعة شريكه الذي يجلس في المقدمة أن يراني. كان عليَّ أن أغتنم تلك اللحظة بأسرع ما يمكن. تلك اللحظة القصيرة من الجنون والخوف التي كنت فيها غير مرئية. في لفتة سريعة، مددت يدي إلى الحقيبة وتلمست باحثة فيها عن المسجل الذي دسسته في معطفي قبل أن أخفيه في صدريتي بسرعة عجيبة. اعتدلت في جلستي وكنت أتصبب عرقاً.

لم أتمكَّن من إنقاذ الدفتر والكاميرا من قعر الحقيبة. سمعت الباب يفتح مؤذناً بعودة المارد إلى السيارة.

عندما عاد للجلوس مرة أخرى هتف بي:

- «الحقيبة أو السجن!».

السجن! كنت لا أزال أرتجف لقيامي بما قمت به. رفعت نظري إلى وجهه. فطالعتني في منتصف جبهته علامة حجر الصلاة مهددة. كعين ثالثة محفورة بين الحاجبين. صعد الدم إلى صدغي. فتذكرت دروس التأمُّل، والأمسيات الطويلة التي أمضيتها في الاستعداد نفسياً للحظة الاعتقال. والتعود أخيراً على إمكانية حدوثه. ولكثرة ما رويت قصص السجناء السابقين، تولَّد لديَّ انطباع بمعرفة مخطط سجن إيفين عن ظهر قلب، رائحته وزنزاناته التي لا نوافذ لها وطرق التحقيق. كنت أعرف ضوء النيون المبهر، صرير أبواب الحديد، الصرخات التي تتردَّد في الممرات. ولكن الخوف تملَّكني. في الحقيقة، لا يمكن لأحد أبداً أن يستعد للاعتقال.

- «الحقيبة!».

تحطم صوته على زجاج النوافذ. كان أمراً. أمراً حقيقياً. صفع وجه سارة كاظمي ذاكرتي بوحشية. كانت سارة صحفية تعرضت للضرب حتى الموت لرفضها تسليم كاميرتها إلى عملاء من الصنف نفسه. حدث ذلك في عام 2003 أمام سجن إيفين. كنت كالمشلولة، لم أشعر قط بأنني بهذا القدر من الضعف.

- «الحقيبة!» قال مكرراً.

الحقيبة. استسلمت وفتحتها. دون أن أجفل، رأيت أغراضي تختفي بين يديه الكبيرتين:

مسجلي، دفتر ملاحظاتي، الكاميرا.

بعدها، أمر العملاق ذو العين الثالثة السائق بفتح الأبواب. كان الرجل المسكين مصعوقاً يرتعد وراء المقود. قبل خروجه من السيارة، مزق الضابط صفحة من دفتر ملاحظاتي وخربش عليها اسماً وعنواناً قرأهما بصوت عال:

- «السيد بهشتي. وزارة الخارجية».

ثم أضاف: هو من سيعيد لك أغراضك الشخصية.

امتطى دراجته، متأبطاً أغراضي تحت ذراعه.

تبعه العنصر الآخر وفي يده اللاسلكي.

شاهدتهما من خلال الزجاج يهربان كالبلطجية. كنت مرهقة ولا أزال أرتجف. التفت إليَّ السائق قائلاً:

- «هؤلاء محتالون، سيدتي! يجب عليك أن تتقدمي بشكوى. هيا، سوف أوصلك إلى الوزارة».

لقد تأثرت بلطفه. كسامري صالح[1] في وسط تلك الفوضى.

في الوزارة، لم يكن اسم بهشتي موجوداً في سجل الموظفين. على الرغم من أن الاسم كان شائعاً جداً! مرَّت القصاصة الورقية على جميع العاملين في الوزارة من البواب إلى أمين السر، جميعهم كانوا ينظرون إليَّ بنوع من الشفقة، ربما لأن هذا الإجراء كان مألوفاً. انتهى بي الأمر بالاتصال بوزارة الثقافة. سمعتهم على الطرف الآخر من الخط يسخرون مني «ولكن كان يجب عليك أن تقاوميهم! كانوا لصوصاً بالتأكيد!».

غضبت.

كنت مقتنعة بأن البلد برمَّته تحالف ضدي بغية تحطيمي. عندما أوصلتني سيارة الأجرة إلى المنزل، هرعت إلى كومبيوتري. لم يبق لي سوى القليل من الوقت لكتابة هذا المقال. لم يعد لديَّ في الواقع أي شيء لكتابته. لم أعد أعرف الكتابة.

كنت أخشى أن أعرِّض السائقين للخطر. فاتصلت بباريس شارحة كل ما جرى لرئيس التحرير. ولكن رده كان بمثابة صفعة جديدة: "لقد حجزت لك ثلاث صفحات في عدد الغد. وأمامك خمس وأربعون دقيقة لتسلميني مادة!" ازدردت دموعي، الأمر الوحيد الذي كنت أستطيع السيطرة عليه. ضغطت أصابعي على مفاتيح الكومبيوتر وأخرجت مقالي. فكانت مادة غبية تعج بالتعاميم عن اقتصاد البلد والأسوأ بين مقالاتي.

رن الهاتف، كان بورزو هو المتصل:

- «هل حقائبك جاهزة؟».

---

(1) السامري الصالح: شخصية ورد ذكرها في إنجيل لوقا ضربها المسيح كمثال في تقديم المعونة والحب لشخص حتى لو كان عدواً، ويستخدم مصطلح السامري الصالح كناية عن الشخص الخيّر، الذي يهب لإنقاذ ومساعدة المحتاجين الغرباء.

حقائبي، اللعنة! بقيت أمامي بضع ساعات قبل رحلتي إلى عمان عن طريق دبي. أخذت نفسا عميقاً، وكذبت:

* «نعم، نعم. إنها جاهزة!».

- «هل كل شيء على ما يرام؟». أجاب.

* «نعم بالتأكيد. ما هذا السؤال!»

لم يقتنع بورزو بإجابتي. أصررت من أجل أن يصدقني، فلم أكن في حال تسمح بالجدال. سنلتقي خلال ساعات قليلة على أية حال، وسيكون أمامنا متسع من الوقت للحديث. في الحقيقة، لم يكن كل شيء على ما يرام. إطلاقاً. عند إنهاء المكالمة شعرت بنوبة من الارتياب تجتاحني، كأنما كنت مراقبة في كل مكان. فكرت في أنهم جميعاً متشابهون، الباسيج، المخابرات، وزارة الإعلام! اتصلت بزميلة مصورة. توسلت إليها، دون إخبارها بالتفاصيل، أن ترافقني إلى المطار. توجَّست من الذهاب بمفردي. كنت أعلم جيداً بأنه يغصُّ بالملتحين. هل تمكَّنوا من معرفة أن جهاز التسجيل كانت تنقصه بطاقة الذاكرة؟ ربَّما بعضهم ينتظرني بالفعل عند البوابة لاقتيادي مباشرة إلى السجن.

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث. لم أعرف بأي رعاية إلهية وصلت إلى عمان سالمة. لطالما كان الأمر كذلك في إيران، ذلك البلد الدرامي: لا يمكن للمرء أبداً التنبؤ متى تبدأ المتاعب ولا متى تنتهي. ما زلت أتساءل إلى يومنا هذا، ما إذا كانت تلك استراتيجية محسوبة بمكر، أو أن الأمر يعود إلى عدم وجود التنسيق داخل أجهزة المخابرات.

خلال العشاء، قلت كل شيء لبورزو. غضب، ولم يحتمل فكرة أنني كذبت عليه عبر الهاتف.

- «وماذا لو حصل لك مكروه في المطار؟».

* «لم أكن أريد أن تقلق». أجبته.

فأجابني مغمضاً عينيه نصف إغماضة، ويداه تستريحان على مساند الأريكة:

- «أن أقلق؟ تخيلي قلقي لو لم تصلي إلى عمان! هل تعتقدين بأنك محمية؟».

* «لكن لا!». قلت برعونة. فتابع قائلاً:

- «في هذه المهنة، ليس هناك سوى شعار واحد: البقاء على قيد الحياة عند الخطر، من أجل مواصلة نقل الأحداث!».

ثم نهض ملقياً نظرة على النافذة، وكأنه كان ينشد العزاء في هدوء تلك الأمسية الصيفية الأردنية. بدت عمان في الخارج وادعة جدًّاً بالمقارنة مع غيرها من مدن الشرق الأوسط. عاد بورزو وجلس قبالتي. شرب رشفة من النبيذ. وقال:

- «عليك أن تطلِّقي إيران!».

* «أطلِّق إيران؟».

- «نعم، أن تطلِّقي إيران!».

كان صوته غريباً. تحدث إليَّ كما لو كنت مريضاً يرجوه أن يثوب إلى رشده.

* «مستحيل!». أجبته.

كيف يمكنني أن أنزع نفسي عن إيران؟ كيف يمكن أن أنفصل عنها؟ فات الأوان لكي أبتر جزءاً من ذاتي. إيران، البلد المشتهى والمسترد.

عشت كل لحظة من تاريخها الحديث. ولا يمكن أن أتخلى عنها. إلى جانب ذلك، لم تعد لديَّ أي حياة بعد إيران. هذا البلد كان حياتي.

نظر بورزو مباشرة في عيني.

- «في إيران، هم الذين يقررون ما إذا كنت ستبقين أم سترحلين. لقد بقيت بالفعل وقتاً طويلاً، وأصبحت تعرفين الكثير، وهو أمرٌ لا يسرُّهم. أرادوا أن يمتلكوا قدرة السيطرة عليك، ولكنك تتملَّصين منهم وهم لا يحبِّذون ذلك».

غرقت في صمت طويل. شعرت بالنشيج يغزو حلقي. ثم غيرت الموضوع لتفادي الدموع.

* «والعراق، كيف كان؟».

- «أوه، كالعادة!».

شعرت بتردُّد في صوته.

* «كالعادة؟».

كان شاحباً، ترتسم على وجهه أمارات من يُخفي شيئاً. ثم بعد عدة دقائق، اعترف لي.

- «في ذلك اليوم ذهبت إلى النجف. لإجراء تقرير روتيني عن الشيعة. عند نقطة تفتيش، أنزلني رجال مسلحون من السيارة وكانوا من السنَّة. طلبوا أوراقي. كنت قد تركت الجواز الأمريكي في عهدة الفندق، فأبرزت لهم الجواز الإيراني الذي لم يكن بالنسبة إليهم أفضل حالاً. ثم صوبوا البندقية باتجاهي، ظننت أنني سأموت لا محالة».

* «وبعدها، ماذا حصل؟». سألت.

- «أطلقوا سراحي. قالوا إنها المرة الأخيرة التي يريدون أن يرونني فيها على هذا الحاجز».

شعرت بحرارتي وقد ارتفعت! كنت غاضبة، منهارة بفعل هذا المنحى الذي اتخذته حياتنا. لقد كذبت عليه. هو أيضاً كان قد كذب. استخدمنا الكذب كدرع لحماية بعضنا بعضاً. مع مرور الوقت، تعلَّمنا كيف نخفي

قلقنا بالتظاهر. بعد إصغائي إلى قصة بورزو أدركت تدريجياً المرحلة التي وصلنا إليها. لكثرة ما احتككنا بالخوف، لم نعد نستطيع العيش دونه. كما لو تمت برمجة أجسامنا لتحمله، لا بل لم تعد لحركاتنا أي معنى بدونه، نسخر من التهديدات كممثِّلين في فلم تشويق، نسمع صوتاً غريباً، فنتآلف معه، نرد على مكالمة، نحتوي الخطر؟ كل مرة نقول إنها المرة الأخيرة، ثم نعود إلى سابق عهدنا. هل سنتمكَّن يوماً ما من العيش بطريقة مختلفة؟

بعد بضعة أيام، عدت إلى طهران. كان الأمر أقوى مني. وكانت في حاجة ملحة إلى العودة في عناد طائش. كلما أساءت إيران إليَّ، كلما قلت المزيد. كزوجة مضروبة ترفض الاعتراف بندوبها.

توالت أيامي بين نوبات القلق والبهجة التي لا تفسير لها لكوني أعيش هنا في تلك المدينة التي آلمتني وأحببتها حتى الرمق الأخير. إلى أن جاءتني دعوة غير متوقعة من وزارة الثقافة: تعالي لأخذ أغراضك. لقد تم الإبلاغ عنها.

في مكتب الصحافة الأجنبية، كان كيس بقالة من البلاستيك في انتظاري على مكتب خشبي. فتحته، فوجدت فيه كل أغراضي. أعاد اللصوص كل ما أخذوه، ما عدا بطاقتي الصحافية.

لم أكن لأتخيل أن اللصوص قد يصلون إلى فرنسا.

حدث ذلك عصر يوم من أيار/ مايو 2007. كنت في زيارة لباريس لبضعة أيام وكنا قد اشترينا فيها شقة استوديو لتكون ملجأ عندما يشتد زخم الأفكار السوداء. في صباح ذلك اليوم، كنت قد وصلت إليها مع أمتعة الرحلة عندما وردتني مكالمة سكايب من قورش، مرشدي الصحافي الوفي، وقد عاد لتوه من استجواب لدى المخابرات! كانت رسالة محاوره واضحة جداً ولا جدل فيها: إياك وأن تجرؤ على العمل مع تلك الحرامزاده!

حرامزاده، وتعني: ابن الحرام في سياق اللغة المحكية. وهي في الإسلام نعت ينطوي على الكراهية والتحقير. صمتُّ، أنا حرامزاده؟ هل يكرهونني للدرجة التي لا يتورعون فيها عن قطع علاقاتي مع محيطي؟ خرجت وقد صفقت الباب خلفي، كنت في حاجة إلى هواء منعش. سرت بمحاذاة ضفاف السين وعبرت باحة اللوفر على عجل لكي أصل بأسرع ما يمكن إلى حديقة التويلري. قمت بالجري حتى انقطعت أنفاسي، جسدي كله كان يتعرق.

عندما عدت إلى الاستوديو، كنت خاوية، وكذلك كانت شقتي. شخص ما قد اقتحم النافذة. كانت مفتوحة على مصراعيها.

كان جوازي الإيراني ملقى على الأرض. وأوراقي الفرنسية على طاولة المطبخ. ألقيت نظرة مذعورة صوب المكتب. اختفى كومبيوتري

والقرص الصلب وشريحة الذاكرة. اختفت الكاميرا أيضاً، لم يبقَ منها سوى غلافها الحافظ. ثم التفتُّ إلى الأريكة. تبعثرت كل مجوهرات زفافي على الوسائد، لم ينقص منها شيء. كما لو كانت ناجية من حادث تحطم سفينة. تسمَّرت في مكاني، غير قادرة على الحراك.

تبخَّرتْ في دقائق سنواتٌ من المقالات والمقابلات والصور والملاحظات. فكرت على الفور في المخابرات. هل كان هذا إنذاراً موجهاً لي؟ أم أنها هلاوس الارتياب تنخر مخيلتي؟

مذعورة اتصلت بوالدتي. لم يكن والداي يقيمان بعيداً. كنت في حاجة إلى المشورة، إلى وجود من يستطيع طمأنتي. أقنعتني والدتي بعد وصولها بتقديم بلاغ لدى الشرطة. ذهبنا سيراً على الأقدام. في المخفر، أشار إليَّ الضابط بالجلوس. ثم أوضح لي بلهجة آلية أن المنطقة تعج بلصوص من بلدان الشرق. رومانيون لا يحملون وثائق وخبراء في السطو السريع. ثم أضاف أنه عليَّ أن أنسى أمر الكومبيوتر، فليست هناك أدنى فرصة لاستعادته. كان خطاباً قياسياً، يصلح لجميع ضحايا السرقة. ثم سألني عن عنواني المختار. قفز عن كرسيه عندما سمع كلمة إيران. خلال ساعة، كانت الشرطة الجنائية عند باب الشقة، كانوا ثلاثة، رجلان وامرأة، قاموا برفع كل البصمات وقياس قطر فرجة النافذة وفتشوا كل ركن من أركان الاستوديو كما لو كانوا فرقة تحرِّيات خاصة تحقق في أدق الأدلة. وأكدوا لي عند مغادرتهم أنهم سيفعلون ما في وسعهم للعثور على اللصوص. «لو كنت مكانك، لشطبت فكرة إيران من ذهني نهائياً». هكذا قال لي أحدهم قبل أن يغادر.

بعد مغادرتهم، تهاويت على الأريكة. أخذت جملته تحفر في رأسي. ظللت أكررها باستمرار. أما الباقي فقد اختنق في سحابة من الاضطراب. باختفاء كمبيوتري، شعرت بالانتهاك، بانتهاك لرأيي، لماضيَّ، لحياتي

العامة والخاصة. بالنسبة إلى اللصوص، فلا حدود توقفهم."عندنا" هو "كعندهم" إن شاءوا، هم في طهران كما في باريس. في ذلك اليوم، في المساحة الصغيرة لشقتي الباريسية، رأيت أدلة على واقع لا يمكن تجاهله: إيران لم تكن تريدني. كان بورزو على حق. لقد حان الوقت لأنفصل عن بلدك.

لقد سرقوا ذاكرتي، ولكنهم لم يسرقوا دفاتري.

قبل أن أغادر إيران، كان عليَّ أن أعود إليها للمرة الأخيرة، من أجل لملمة آخر ما تبقى لي من شذرات بلد مستعاد، وقصاصات كل السنوات التي مرت وأنا أعيد رسم تاريخك.

بعد أيام قليلة من عملية سطو باريس، ركبت الطائرة عائدة إلى طهران. وعند وصولي إلى المنزل رقم 12 + 1 في الشارع الذي يتعامد مع جادة باسدران، ارتقيت السلم، كل درجتين معاً. ثم أدرت المفتاح في القفل على عجل. كان لدي تخوُّف رهيب من أن المستقبل يتقرَّر الآن، على باب الشقة. من مرور زائرين يضمرون شراً من هناك. عبرت الصالة بشكل قطري. وبقلب مثقل فتحت باب المكتب، ما إن لمحت أوراق الملاحظات، حتى شعرت بالارتياح. كانت هناك، على رفوف المكتبة الخشبية التي تحتل كامل الحائط، مرتبة ومرقمة بحسب تسلسلها الزمني بانتظام منذ رحلتي الأولى إلى إيران عام 1997. متحفي الورقي كان سالماً لم تمسسه يد.

- «سلاااام!».

أخافني الصوت فرفعت رأسي.

هناك بجانب الباب كانت ماماني تراقب مناوراتي الصغيرة. لم أكن قد انتبهت إلى حضورها. وعلى الرغم من إدمانها على الشاشة وتعب ساقيها، تركت تلفزيونها لتأتي لتحيتي بعدما سمعت صرير الباب. لم تكن تعلم

شيئاً عن مخاوفي، كنت أريد أن أوفِّر عليها مشقة الوداع وأؤخِّر لحظة إعلاني عن مغادرتي.

تقدمت نحوي قائلة:

- «انظري ماذا وجدت!».

كانت في يدها رزمة من الوثائق ملفوفة في غلاف بلاستيكي. وقالت إنها وجدتها في قعر صندوق قديم، واحد من تلك الصناديق التي تحتوي كل شيء وكنت قد تركتها كإرث منك. كان الأمر هكذا: بينما كنت أجمع حقائبي، كانت هي تفتح صناديقها. لطالما كانت لروح التناقض لديها تلك الغريزية التي لم تكف يوماً عن مفاجأتي.

- «خذي، إنه لك». قالت.

عطست وأنا ألتقط كيس البلاستيك الذي تفوح منه رائحة قوية من الغبار والنفتالين. فتحته. كان مملوءاً بالرسائل، رسائلي التي أرسلتها إليكما أنتما الاثنين عندما كنت صغيرة، أنا في فرنسا، وأنتما في إيران. لقد عرفتها على الفور. كانت سليمة، مكدسة بعناية فوق بعضها البعض. فتحتها واحدة تلو الأخرى. تفحَّصت كل شيء: الورق، والكلمات، وضربات قلم الرصاص. ضحكت من هوسي المبكر بسرد كل التفاصيل والوقائع والتواريخ والأعمار. وكانت الهوامش متروكة للرسومات التي تنمقها ببراءة: دلو الرمل في حديقة مونسوري، مكتب والدينا ودمية أختي جديدة. كل تلك الأشياء الصغيرة التي تألفت منها يومياتنا، في حين أنكما كنتما هناك في طهران محتجزين خلال الحرب الإيرانية العراقية. كتبت في إحدى الرسائل المؤرخة بتاريخ 24 كانون الأول/ ديسمبر1981: وأنتما، هل فكر فيكما بابا نويل؟ وجدت في تلك الجملة فضولاً للفهم، وألماً من البعد، ورغبة في معرفتك. قلت لنفسي: لا مصادفات في الحياة.

عند وفاتك عام 1997، غادرت إلى إيران كما لو كان الأمر حلماً، على الرغم من انقلاب الحلم إلى كابوس. في النهاية، ليست الحياة ربما سوى حلم، كما كتب جوزيف كونراد.

ما أن نزلت ماماني، حتى سحبت حقيبتي السوداء، تلك التي اعتدت اصطحابها للسفر. دسست فيها فوراً رسائلي وملفاتي. كان عليَّ أن أجد طريقة لمغادرة البلد بصحبة تلك الوثائق الثمينة التي تؤرِّخ لحقبة منه. أصبحت مسكونة أكثر فأكثر بالهواجس. رأيت جواسيس في كل مكان، في كل شارع، وراء كل باب. خلف طلاء الجدار. لم يعد أصدقائي يعرفون بما قد ينصحونني، فهم أنفسهم كانوا أسرى مخاوفهم اليومية. «لم أعد أجرؤ حتى على ممارسة الجنس مع زوجي». همست إحداهن إليَّ، وهي تشرح لي خوفها من مخبر قد يختبئ خلف ستائر غرفة النوم. لم يبقَ أمامي سوى سفارة فرنسا، الملاذ الأخير في هذا المأزق. قدَّم لي أحد الأصدقاء الطيبين من القنصلية إمكانية نقل أمتعتي بالحقيبة الدبلوماسية. فقبلت دون تردُّد.

انتظرت حتى نامت جدَّتي قبالة التلفاز قبل أن أتسلَّل إلى الشارع. لم أكن أريدها أن ترى الحقيبة. بعد ذلك قمت بجر أمتعتي بمحاذاة الخوب، تلك الساقية الممتدة على طول شارعك.

عندما صادفت ثلاثة من المارة في الطريق، شعرت بالخوف، وأسرعت الخطى، ومع وصولي إلى شارع باسدران، أوقفت سيارة أجرة بسرعة. لم يبدُ لي الدخول إلى السفارة يوماً محفوفاً بالمخاطر كالآن. كان المبنى يقع في وسط المدينة، في شارع نوفل لوشاتو. اسم يسهل حفظه، فقد كان مقر إقامة الإمام الخميني في المنفى. على طول الطريق، شعرت كأنما كنت هاربة ومراقبة باستمرار.

ارتعدت عند سماع صوت الدراجات النارية. كنت أخفض بصري ما

أن يقع على لحية. عندما يلاحق الخوف المرء فهو كحمولة من الرصاص. ابتسم الصديق الدبلوماسي في تعاطف عند الترحيب بي، وتبادلنا بالكاد بضع كلمات. كنت في عجلة من أمري للمغادرة على وجه السرعة.

في اليوم التالي، استأنفت على الفور رحلتي إلى باريس.

قبل مغادرتي، قبّلتني ماماني مودِّعة عند عتبة الباب، مؤكِّدة انتظارها لعودتي، وأن أجلب لها معي كريم للتجاعيد. دائماً ما كانت وداعاتها بتلك الطريقة. مرة أخرى، التجأت إلى الكذب. قلت لها «حاضر». دون أن يطرف لي جفن. كنت أخشى سقوطها مجدَّداً في الفراغ الذي كانت محكومة به. لقد كذبت أيضاً على نفسي:

كانت فكرة عدم العودة لا تُحتمل. عندما نحب، لا يمكننا أن نضع خاتمة. عندما نحب، ليس هناك من مرة أخيرة. لذا غادرت تاركة في شقتي أوراقاً على السرير، ومنشفة لا تزال على الشرفة، وبعض أسياخ الشيش طاووق المخزنة في الثلاجة. ولا تزال ماماني بعد كل تلك السنوات، تروي كيف تركت تلك الأسياخ تفسد.

في المطار، لم أكن قلقةً. لا عند مراقبة الجوازات. ولا في صالة المغادرة. استنتجت أن السيد فنجر وأشباهه كانوا مرتاحين لمغادرتي. لقد ربحوا المعركة بفضل قوة الترهيب. صحافي خارج الحدود هو أقل إثارة للمشاكل، صحافي يستقيل بصمت، يسبب قدراً أقل من الضجيج. على متن الطائرة، نمت طوال الطريق. لقد أنهكتني تلك الرحلة.

وبعد بضعة أيام، أرسلت وزارة الخارجية في طلبي.

كانت حقيبة الرسائل قد وصلت إلى باريس. يسلم بريد الحقيبة الدبلوماسية في مبنى في شارع مجاور للمدخل الرئيس، يتم الدخول إليه عن طريق بوابة حديدية كبيرة. بحركة لا إرادية، أفزعني صوت إغلاق

البوابة. هل سأكون قادرة في يوم من الأيام على تعلم العيش بشكل طبيعي؟ وبمسحة من الذهول، قمت بإعطاء الرمز المتسلسل للموظف الذي اختفى لبرهة في الداخل ثم عاد ليقول لي:

- «هل هي حقيبة سوداء؟».

* «معذرة؟».

- «هل هي حقيبة سوداء بعجلات، أهي ما جئت باحثة عنه؟».

* «آه، نعم!».

قام بتشغيل شريط أوتوماتيكي دوار. كان الجو بارداً، البرد نفسه في مطار طهران. بعد بضع ثوانٍ، ظهرت حقيبتي. منتفخة كأوزة مسمنة، حبلى بملفاتي وعشرة أعوام من التقارير الصحافية، عشر سنوات من حياتي في حقيبة هي كل ما تبقى لي من بلدك يا باباي.

* «شكراً لك!». قلت برعونة.

- «عفواً». قال الموظف المسؤول في وهو يرافقني إلى الباب. مضيت وأنا أجر أمتعتي.

في الشارع، شعرت بقطرات من الماء تنساب على خدِّي. كانت تمطر. كانت السماء ملبدة بالغيوم، وأنا كنت أبكي لرؤيتها. منذ موتك وأنا لم أبكِ بهذا القدر.

مع بورزو انتهى بنا المطاف للاستقرار في بيروت.

بعد طهران وبغداد، كانت المدينة التي ناسبتنا على نحو أفضل. بيروت كانت مدينة جريحة. آثار الحرب الأهلية اللبنانية لا تزال ظاهرة في كل مكان. وندبات القذائف، وآثار الصواريخ من الحرب الأخيرة، حرب تموز/ يوليو عام 2006 ضد إسرائيل، ما زالت مرئية.

لكنها كانت مدينة حرة، ثوباً مثالياً للهاربين، يناسب قياسه كل المنبوذين في تلك المنطقة، المحظورين من الكلام في بلادهم. بيروت كانت مصرف الأفكار المدمرَة. بيروت، المدينة المتنفّس.

عُيّن بورزو مراسلاً لصحيفة لوس أنجلوس تايمز في الشرق الأوسط مكافأة لتغطيته لأحداث العراق. أما في فرنسا، فلم يكن لدى وسائل الإعلام التي عملت لصالحها من شيء تقدمه إليَّ سوى أسفها لرؤيتي أغادر طهران، ولا حتى أمل بالعمل لحسابي الخاص، فلبنان يغصُّ بالصحافيين المستقلين. لقد كرهت عملي، وغضبت لمواجهتي بالرفض المتكرِّر كلما اقترحت فكرة لمقال. إلا أنني في النهاية استسلمت لاتباع بورزو. فبعد كل شيء، أعطتنا بيروت فرصة لنعيش نحن الاثنين. كانت تمتلئ بكل تلك الأشياء الصغيرة التي اختفت من حياتنا اليومية: النسائم وهي تتغلغل في شعري، الضحك عبر الهاتف ومتعة المشي دون النظر إلى الوراء. لهذه المدينة المفعمة بالمفارقات موهبة اقتلاع زائرها من العذاب الآتي معه من أمكنة أخرى.

تبعتنا الحقيبة السوداء في انتقالنا. لم نعد مضطرين إلى إخفائها، ولا إلى الاختباء. في بيروت، وجدنا أخيراً بعضاً من الحياة الطبيعية. فبعد ثلاث سنوات من الزواج، كانت المرة الأولى التي نختار فيها شقة معاً. استطلعنا بدقة شوارع المدينة المتوسطية، البيوت والبنايات، بيوت الأدراج والملاحق. حتى أقنعتنا كارين، إحدى أفضل وكلاء العقارات في بيروت، بأن نسكن في الأشرفية.

كانت منطقة ذات أغلبية مسيحية، إلى الشرق من خط التماس القديم. غدت اليوم أكثر أماناً، وأكثر هدوءاً. وجدنا بعد اثنتي عشرة زيارة شقة أحلامنا. كانت تشغل نصف الطابق الثالث من مبنى من طراز الآرت ديكو. الواجهة صفراء بلون الأهرّة، غرفة المعيشة مشمسة، المكتب كبير، تلتف شرفاتها على طول كل غرفة. على يسارها مسجد، وعلى يمينها كنيسة، وفي أسفل المبنى سوشي بار ومحل لبيع الأواني الخزفية. وقبالته، بائع بطاريات كهربائية يتكلم الفرنسية مشدداً على الراء كما في العربية، ويرتدي بفخر ربطة عنق مزينة بميكي ماوس.

شعرت مباشرة بالألفة مع المكان. كنا خلال النهار ننغمس في تعقيدات الصراعات السياسية المحلية. وفي المساء نتغازل مع الليل، نجوب الحانات والنوادي الليلية في العاصمة التي لا تنام. وداعاً للمعاطف الطويلة، وكلمات السر، والتوجُّس من الزيارات المفاجئة. كنا نعيش اللحظة الحاضرة، كاللبنانيين الذين اكتسبوا مناعة عبر سنوات الحرب، نترك همومنا معلَّقة على المشجب. ونرتدي فقدان الذاكرة كثوب سهرة. كحلية مريحة لمن يرغب في الهروب من معاناته. كنا نرقص أحياناً حتى الصباح، قبل الذهاب لتناول المنقوشة ومشاهدة شروق الشمس على الكورنيش. كان العام الجديد فرصة لإقامة حفل تدشين منزلنا، فدعونا

نحو خمسين شخصاً واستقبلنا أربعة أضعافهم. في اليوم التالي، كان جميع زبائن السوبرماركت يحيونني بالفرنسية، بالإنجليزية أو بالعربية. كانت هذه المدينة في الحقيقة، قرية متعددة اللغات. وتحولت صالة المنزل إلى قاعة الرقص الجديدة في الحي.

لم يكن لبنان كله كذلك. هو أيضاً طرابلس السنية وملصقات صدام حسين. والنبطية الشيعية وصور الخميني العملاقة. بدت لنا كل مدينة مررنا بها مألوفة على نحو غريب. وفي بلد حيث لا يمكن أن توجد جماعة بمعزل عن طائفتها، كان بيروت مدينة متعددة الأوجه. وأنا كحرباء تغير لونها حسب الحي. في الأشرفية، كنت الفرنسية. وفي الضاحية، معقل حزب الله، كنت إيرانية. لم يكن ذلك خياراً متعمَّداً، إنما هو أثر المرآة بكل بساطة. في الواقع، كنت انعكاساً لما أراد كل واحد أن يرى فيَّ. وتبعاً لطوائفهم، كان للبنانيين ذلك الميل المستغرب للتماهي مع الدولة الراعية. فكانوا أكثر فرنسية من الفرنسيين، أكثر إيرانية من الإيرانيين، وأكثر سعودية من السعوديين. ربما هي غريزة البقاء في هذا البلد الصغير الذي أريد له أن يكون مسرحاً دائماً للصراعات بالوكالة.

شاهدت الأوشحة وأنا أتنقَّل من حي إلى آخر، تستقر أحياناً حول الرقبة وأحياناً على الرأس. أينما ذهبت، كنت أرتدي بيروت كثوب مصمَّم على قياسي. لم تكن لجنسيتي المزدوجة يوماً هذا الصدى الفريد كما كان لها هناك. كنقيضين تجاذبا وتكاملا، توازن نصفا هويتي.

أذكر أنه في تلك الفترة، اجتاحتني الرغبة في الكتابة. لا كتابة مقال، بل سرد قصة، قصة الحقيبة، قصة الرسائل، قصة الملفات، والخوف، والحياة التي تمر كموجة، واكتشاف الذات. أردت أن أهدي تحية إلى روحك لتكون تكريماً لك بعد وفاتك. فبدونك، لم تكن هناك موجة ولا أوديسة.

ولكن ما هو القالب الأنسب لهذا السرد؟ من أين عليه أن يبدأ؟ كان جسدي في لبنان، أما قلبي ففي طهران. والكلمات تترنح على صفحتي.

منعني فيض من المشاعر المتضاربة من جمع أفكاري. وأخرني عن تفريغ هذه العواطف الزائدة على الورق. ومع ذلك، كنت أتهرب من الكتابة، وأؤجل كل يوم بداية التدوين إلى أجل غير مسمًّى. كنت أشعر أن قصتك، قصتي، لم تنته بعد.

شيراز، بعد عامين

في شيراز، في آذار/ مارس من عام 2009، عاد إليَّ الإلهام أخيراً. لطالما همست لي مدينة شاعرك أن أعود لأجتلي روح حافظ، وأتزود من حكمته. فكانت خطوة لا غنى عنها في تلك الرحلة إلى البدايات التي لم تكتمل. عامان كانا قد انقضيا منذ أن غادرت طهران على عجل. عامان ذرعت فيهما بلدان المنطقة سعياً وراء التقارير: سوريا، اليمن، عمان، البحرين. عامان وأنا أحاول دون جدوى نسيان بلدك.

ترددنا كثيراً، بورزو وأنا، قبل القيام بتك الرحلة. ففي العام نفسه، احتفلت الجمهورية الإسلامية بعيدها الثلاثين على خلفية من القمع المتشدد. وألقي القبض على روكسانا صابري، وهي صحافية زميلة إيرانية-يابانية، بتهمة التجسُّس. توقف العديد من زملاء القلم عن العمل بسبب الخوف. واختار بعضهم الآخر المنفى. غادرت ماماني هي الأخرى. فلكثرة ما دارت وحدها في قفصها الذهبي، حزمت أمتعتها ومضت إلى باريس، حيث حطت رحالها أخيراً، على مقربة من والدي. لم تعد لدينا أية حجة عائلية نذكرها سبباً لزيارتنا، في حال تعرَّض السيد فنجر لنا بالسؤال.

ولكن بعد عامين من الغياب والصمت، كانت تلك الرحلة بعيدة عن المسارات الباعثة على الدوار. كانت رحلة لنا، رحلة خارج الوقت، تسخر من السياسية ومخاطر الأخبار. فور وصولنا إلى طهران، سلكنا طريق الجنوب التي تؤدِّي إلى أضرحة سادة الشعر الفارسي. ذهبنا سويةً لزيارة

قبر حافظ، شمال شيراز، موئل العشاق، وواحة السكينة. يتوافد الزوّار على مدار العام بالمئات شهرياً ليمروا بأيديهم على ملمس الرخام البارد للضريح، وهم يقرأون بعضاً من غزليات هذا الشاعر الكبير الذي عاش في القرن الرابع عشر، كتعويذات صغيرة جالبة للحظ يعلِّقونها في أحلامهم، كقصيدة "الموجة" التي أهديتني إياها. أغلقنا عيوننا متأملين بصمت شريط السنوات الذي انعكس على شاشة ذاكرتنا. كانت المشاعر التي أحسسنا بها أكثر من أن يُعبَّر عنها بالكلمات. بعدها، سرنا في الممرات التي تحفُّ بها أشجار السرو الأنيقة. في الحديقة، طافت رائحة ربيعية من الورد والياسمين. ثم انتهى بي المطاف في محل بيع التذكارات وأنا أشتري ديوان حافظ في نسخته الأصلية. كتابي الفارسي الأول دون ترجمة.

عند الانتهاء من حجنا، قصدنا علي جعفريان، صديق موسيقي قديم. عند استقبالنا، كان يمسك مقبض الباب وبالأخرى يتلمس طريقه لتقبيلنا. هو ضرير منذ سن الرابعة عشرة، وذلك بسبب حادث سقوط من أعلى درج.

ولكن عماه جاء في صالحه في مملكة مفارقات الأخلاق الإسلامية تلك، كان الرجل الوحيد الذي سُمح له بقيادة فرقة جميع أعضائها من الإناث.

- «أنتما محظوظان، ستصل الفتيات بعد قليل». قال بابتسامة أبوية.

تبعناه بخطوات صغيرة حتى الصالة الرئيسة. كانت الأرائك تحيط بالجدران. وتحت النافذة الكبيرة، كان البيانو يتصدر مجموعة من ثلاثين كرسياً قابلاً للطي، انتظمت في صف واحد. كانت هناك امرأة في قميص وردي مشغولة بضبط الصوت. عرفت عن نفسها مباشرة، بوران، زوجة المايسترو. كان اليوم جمعة وهو يوم البروفات، ككل أيام الجمعة.

أشارت إلينا بوران بالجلوس قبل أن تختفي في المطبخ، لتعود وهي

تضع كأسين من عصير الكرز على بوفيه الصالة. كانت الصور المصفرة بفعل مرور الزمن تمجد الحنين إلى الماضي. يبدو جعفريان في إحداها يتألق أناقة في بزته الإيطالية، واقفاً جنباً إلى جنب مع سيدات الطرب من عصر الشاه.

عندما كان طفلاً، كان يحلم بأن يصبح نحَّاتاً. بيد أن أمه فضلت له بعد الحادث الذي تعرَّض له أن يصبح موسيقياً. كان معجزة في العزف على التشيلو، وأتقن العزف على البيانو إلى حد الكمال، وسرعان ما أصبح مشهوراً في المشهد الفني الإيراني المصغر، كان يقفز من حفل للموسيقى الكلاسيكية إلى آخر يرافق فيه نجوم موسيقى البوب الإيرانية. بعد الثورة، هرب العديد من نجوم الموسيقى الفارسية إلى الخارج، أما هو، فقد اختار البقاء وتحمل مداهمات الشرطة الدورية وكشفها على آلات الموسيقى الشيطانية: البيانو، الجيتار، الساكسفون... كانت العتمة والصمت عوناً له في وضع موهبته بهدوء في خدمة فتيات مدينته المتعطشات لمتنفَّس ثقافي، فأعطاهن دروساً في الصولفيج. وتزامن تقدمهن المذهل مع الانفتاح الخجول الذي شهدته التسعينيات. وهكذا، وبقيادته من خلف النظارات السوداء، ولدت أولى الفرق الموسيقية النسائية ما بعد الثورة.

رن جرس الباب. كانت تلك باهرة، واحدة من أقدم طالباته السابقات. بعد نزع وشاحها، أخذت تضفر شعرها بعناية.

- «سلام استاد». قالت بصوتها العذب.

كانت المرأة الشابة في الثلاثينات من العمر، ترفل في فستان من الحرير، يشده من وسطه حزام. كانت طالبة في الهندسة المعمارية التي درستها بشكل صارم بالتوازي مع الموسيقى، وكانت أيضاً عازفة البيانو في المجموعة. وصلت الموسيقيات واحدة تلو الأخرى. ما أجمل النظر

إليهن وهن يتنافسن في الحسن والدلال، كاشفات عن الياقات الواسعة والكعوب العالية بعد اجتيازهن لمدخل البيت! من زاويتي، كنت أراقب تلك المناورة الممتعة عندما حضر علي متوكئاً على عصاه، ليسلم عليهن واحدة واحدة، مطرياً عطورهن، ومطمئناً على أحوالهن وأحوال أسرهن. كثيرات منهن كن قد تخلين عن الموسيقى بسبب ضغوطات زوج غيور، أو من حضرن إلى هنا دون علم آبائهن، أو من أقنعن أزواجهن هم أيضاً بأخذ دروس لدى المايسترو. في إيران الفقاعات تلك، حيث كل شيء يتم في الخفية، كان منزل علي جعفريان أكثر من ملجأ. كان ملاذاً من السلام، وجيباً من جيوب المقاومة يتحدَّى فيه التميّز، الدين والسلطة. ونسخة معاصرة لحدائق الشاعر حافظ.

فوجئت بأن بروفات علي قد قاومت ضغوطات أحمدي نجاد. إذ تم منذ عام 2005 إلغاء العديد من حفلاته، ودون سابق إنذار في كثير من الأحيان.

التفت علي إليَّ، بعدما أخذ نفساً عميقاً:

- «كم مرة فكرت فيها باعتزال عملي هذا». ثم تنهَّد.

في كل مرة، كانت طالباته يقنعنه بالعدول عن تلك الفكرة، مهددات بالغرق في الاكتئاب إذا ما تم حرمانهن من أيام الجمعة المنتظرة تلك. فرضخ أخيراً لمشيئتهن. في النهاية، كانت تلك هي الطريقة التي عمل بها منذ سنوات.

في غياب أي دعمٍ من الدولة، كان علي يقوم بتغطية كل النفقات من ماله الخاص، تصليح الآلات، وجبات الطالبات، والتنقُّلات وأجور المواصلات في العاصمة خلال العروض العامة أو الخاصة.

- «للقيام بهذه المهنة، على المرء أن يكون مجنوناً. أو عاشقاً!».

قال وهو يلوح في الهواء بيد حانية، ثم انفجر بالضحك.

سرعان ما ضاعت ضحكته في صخب الآلات الموسيقية. كانت الفتيات قد اتخذن أمكنتهن على المقاعد، يضبطن أوتار السيتار، ويعدلن من دوزان السنتور. أما الصف الأمامي فاحتلته مجموعة من الموهوبات في العزف على الدف اللواتي كن يرقّصن أصابعهن على جلد تلك الآلة الدائرية. وبمساعدة بوران زوجته، أخذ علي مكانه قبالة العازفات واقفاً خلف منصته، رأسه مرفوع وذقنه مصوبة باتجاه الصالة، أعلن بيديه عن بدء المقطوعة الأولى.

كانت البداية عزفاً لبعض نوتات البيانو، ثم تلتها عاصفة من الإيقاع ومن صوت درنا، مغنية السوبرانو المنفردة للأوركسترا.

يا ربيعي، يا بنيتي!

استيقظي!

- «إنها أغنية ممنوعة». تنهدّت بوران.

أطرقت برأسي ونظرت نحو الأسفل. كنت أريدها أن تقول المزيد.

- «كتبها فريدون مشيري، وغنتها مرزيه».

إن مجرد لفظ هذين الاسمين، كفيل بأن يودع علي جعفريان في السجن. فمشيري كان شاعر الحب. ومرزيه نجمة غناء إيرانية في المنفى، تحولت إلى النضال في صفوف المجاهدين بعد ثورة 1979. تابعت زوجة المايسترو قائلة:

- «لهذه الأغنية قصة، قصة "بهار" وتعني الربيع باللغة الفارسية. بهار كانت فتاة إيرانية شابة، ابنة الملحن فرهاد فخر الدين، توفيت في سن مبكرة إثر مرض عضال، ولمواساة والدها، قام مشيري بكتابة هذه الأغنية».

أتذكر أنني أغمضت عيني. وأصغيت بعناية، تاركة للكلمات أن تهدهدني.

يا زهرة قدري

يا برعماً لطيفاً

الربيع يأتي وتذهبين معه...

يا ربيعي، يا بنيتي!

استيقظي

تردد في تلك الأغنية التي أنشدت موت الربيع صدى الكآبة والأمل، يقال إن لأبيات حافظ مفعول تسكين المخاوف، وشفاء الجراح. أردت أن أرى، من قلب تلك المدينة، ومن مخبأ أوركسترا شيراز، بشائر نهضة جديدة.

لدى عودتي إلى بيروت، أصبح ديوان حافظ مرشدي المتنقل. رفيق حياة، وبديلاً مصغراً عن إيران لن يفارقني، لا هنا ولا في أي مكان آخر. كان هناك، موضوعاً بجانب سريري كانعكاس لذكراك، جاهزاً لتقديم بعض النصائح لتخطّي لحظات الحنين إلى الماضي. كانت قصائده تهدهدني، تماماً كما فعلت أغنية الربيع، كلازمة حلوة من الأمل تعيش في أفكاري. للإيرانيين ميل غريب للتسليم بمصائرهم، لاستشارة العرافين والأئمة والشعراء بغية إنارة دروبهم الضبابية. كنت قد استسلمت بدوري لسحر أنبياءِ شيراز، مما أثار حيرة بورزو الذي شعر بالقلق إزاء تفاؤلي. فبعد أن شاهدني أذوي قبل ست سنوات، نتيجة لمرض "الإيران"، رأى في تصرفاتي وصفة مبكرة لخيبة أمل جديدة. كان يظن أنني شديدة الحماس. أما أنا فكنت أتهمه بالعقلانية المفرطة.

جاءت لعبة الأقدار في صالحي. في البداية على الأقل. حدث ذلك في أحد صباحات أيار/ مايو من عام 2009، حيث أعربت وزارة الثقافة في رسالة إلكترونية خالية من التفسير عن استعدادها لمنحي بطاقة صحفية جديدة، بعد ثلاث سنوات على حادثة سائقي الحافلات، والسماح لي للعمل مرة أخرى في إيران. كانت تلك المعجزة المذهلة، مثالاً آخر على تناقضات السلطة في إيران، وتزامنت مرة أخرى مع اقتراب موعد الانتخابات الرئاسية. في موجة من الكرم، أصدر النظام أكثر من ستمئة تأشيرة دخول لصحافيين من الصحافة الدولية. بورزو أيضاً كان على قائمة المعتمدين الجديدة. حزمنا حقائبنا على عجلة من أمرنا منتشيين بتلك

الأخبار، وضربنا بعرض حائط النسيان كل متاعب الماضي. كنا كمن يعيش حلماً جميلاً. هذا البلد الذي نحبه ونخشاه، يدعونا اليوم إلى العودة.

في 29 من أيار/ مايو، هبطنا في طهران كما في أحلام اليقظة. عند الجمارك، تبددت وطأة القلق التقليدية بسرعة في جو من المزاج المتساهل. وبالرغم من أضواء النيون البيضاء، بدا المطار أقل تقشفاً من المعتاد. عند استلام الأمتعة، قال لنا بعض الركّاب إنهم قاموا بالرحلة فقط من أجل الإدلاء بأصواتهم. وخلف زجاج صالة الواصلين كانت حشود من أقاربهم في انتظارهم بأيادٍ ملأى بالزهور. في خارج، تسربلت العاصمة من جديد بالملصقات. ولكنها في تلك المرة، لم تكن لأزلام النظام كما جرت العادة. إنما للخصوم الثلاثة لأحمدي نجاد، المرشح لولاية رئاسية جديدة. على الأرصفة، أضاءت مصابيح الشوارع ابتساماتهم. كانت هناك أشرطة حمراء تزين الأشجار، وسجاد مفروش عند كل تقاطع.

في الطريق أفضى لنا سائق سيارة الأجرة بارتياحه لمجرد فكرة أن الرئيس الذي يريد الحرب بأي ثمن قد يخسر السلطة، فبسببه، أصبح الغربيون يعتبروننا عصبة من المتزمتين. وكائناً من كان خلفه، فسيكون أفضل حالاً.

موجة غريبة كانت تلك التي اجتاحت طهران. تشويق وترقب، كأجواء العيد. وخلال أيام، اتخذت الموجة اللون الأخضر. رمز الإسلام والسلام. وعمت كل شيء: فكانت الأشرطة خضراء، البلوزات خضراء، والأوشحة خضراء، حتى طلاء الأظافر أخضر.

في الأصل، كان الأخضر لون مير حسين موسوي. المنافس الأبرز للرئيس المنتهية ولايته، كان من نصيبه عندما سحبه في قرعة المرشحين. وكان الأحمر من نصيب أحمدي نجاد، والأبيض لمهدي كروبي، رئيس

البرلمان السابق، والأزرق لون محسن رضائي، القائد السابق للحرس الثوري. هل كان الأخضر، إشارة أخرى لما بدا وكأنه ربيع إيراني جديد؟

في الثالث من حزيران/ يونيو، حدث ما يشبه معجزة ثانية. كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف وكنا قد شغلنا التلفاز للتو.

احتل أحمدي نجاد نصف الشاشة، ومير حسين موسوي النصف الآخر. كانت تلك أول مناظرة من سلسلة مناظرات متلفزة لم نرَ لها مثيلاً منذ ثلاثين عاماً.

بغية خلق مظهر من مظاهر الديمقراطية، أرخى المرشد الأعلى قبضته عن وسائل الإعلام. فاجأني موسوي بافتقاره للكاريزما، بتردُّده وظهره المحني. لم نكن نعلم عنه الكثير سوى أنه كان رئيساً للوزراء في الثمانينيات، ويرتدي طقماً داكناً وشعراً أشيب.

بعد مشوار طال عشرين عاماً من السنوات العجاف، حل بديلاً مرتجلاً لخاتمي بعد أن تردد في دخول الانتخابات. رئيس الفقراء، يبدو موسوي ضائعاً إلى حد ما إزاء عدوانية أحمدي نجاد. حيث سخّر الأخير سمعته كاستفزازي واستغلها فرصة للتلويح أمام الكاميرات بوثيقة غير مقروءة مدعياً أنها البرهان على أن زوجة خصمه قد غشت للوصول الى الجامعة. وعلى إثرها تغير موسوي وقفز عن كرسيه والغضب يفور من عينيه. وبحركة واحدة، أجاب: أنت تقود البلاد نحو الديكتاتورية!

ثم، وفي زخم جريء غير متوقع، كال له التهم يمنة ويسرة بالمغامرة بمصير البلاد وعدم الاستقرار والتطرف والخرافات.

في نهاية المواجهة، ذهبنا نستطلع الأجواء حول جادة ولي عصر، بالقرب من استوديوهات التلفزيون الوطني حيث تم تصوير النقاش على الهواء مباشرة. كانت الشوارع مزدحمة بمجموعات من الشباب الذين

حملوا رايات خضراء وأخذوا يهتفون لأملهم بالحرية. وكنوع من تحدي الرقابة، كانت هناك امرأة تهتف: حكومة البطاطا، لا أريدها!

كانت تلك طريقتها في شجب التوزيع المجاني للبطاطا من قبل أنصار أحمدي نجاد.

تجمع الناس حول المرأة الإيرانية الجريئة وأخذ الحشد المتعاظم يكرر هتافها كجوقة. فجأة، انسابت على الرصيف أربع سنوات من الغضب المكبوت وكرر المحتشدون في انسجام تام: موسوي! موسوي!

في تلك الليلة، ولد بطل جديد.

بينما كنت أكتب تقريري، عند عودتي إلى المنزل اتصلت بي ماماني من باريس. كانت راغبة في معرفة المزيد عن الحملة. شعرت من خلال صوتها بأسفها لأنها لم تكن في طهران. إلا أن آراءها السياسية لم تتغير. هذه ليست انتخابات، إنها اصطفاء.

جاء صوتها محتجاً على الطرف الآخر من الخط. قالت إن الانتخابات تشوبها عيوب مسبقاً. وأن المرشحين، كائناً من كانوا، تم اصطفاؤهم من قبل مجلس صيانة الدستور قبل أن يوافق عليهم المرشد الأعلى، وليس هناك من سبب مقنع للتحمس لتلك البدعة. كنت أحفظ حججها عن ظهر قلب.

يوما بعد يوم، أخذت الموجة بالتعاظم. وعند حلول الليل، كانت الشوارع تغرق بفرح الهتافات والشعارات والزغاريد. إلى اليوم الذي وصلت فيه هذه الموجة إلى أسفل نافذتنا، نزلت إلى الشارع تدفعني أصوات الهرج والمرج، كانت جادة باسدران عند تقاطع شارعنا تغص بالمحتشدين، كملهى ليلي في الهواء الطلق، كانوا يهتفون: باي-باي أحمدي! باي-باي أحمدي!

في صخب المحتشدين، كانوا يرفعون أذرعهم إلى السماء ويفرقعون بأصابعهم، نظرت إلى لافتة فوق رؤوسهم كتب عليها: سوف أبنيك يا بلادي. عبارة مستوحاة من قصيدة للشاعرة الكبيرة سيمين بهبهاني. عندما التفت، التقت نظراتي بنظرات شخص مألوف بطريقة خاصة. كانت فاطمة الباسيج! هناك، في وسط الحشد الصاخب، بوشاح أزرق كلون الليل يتماشى مع معطف يلف وسطه حزام جريء وتزين عروته دبوس يحمل علم إيران وصورة لموسوي.

«خوش آمديد! أهلاً وسهلا بك!». هتفت وهي تأخذني بين ذراعيها معانقة. لم أكن قد رأيتها منذ عام 2007. وفي الواقع، لم تكن رؤيتها هناك أمراً مفاجئاً بعد كل التحولات التي حدثت لها على مر السنين. سألتها عن محمود، فهزَّت كتفيها بأسى، ثم أشارت بذقنها إلى الرصيف المقابل، هناك رأيت زوجها في الجانب الآخر من الشارع، واقفاً في الصف الأول من حشد كثيف كحشدنا، الفرق هو أن اللافتات كانت تحمل صورة الوجه الملتحي لأحمدي نجاد. وأن الفتيات يرتدين حجاباً أكثر تقشُّفاً. كان محمود الباسيج يرتدي سترة غير رسمية أسوة بمعبوده.

تشيز! تشيز! تشيز! هتف بصوت واحد مع الجماهير في تهكم على هتافات خصومهم الخافتة.

في كلا الجانبين، كانت الهتافات دليلاً على الانقسام، انقسام بلد ممزق بين الانطواء الوطني والرغبة في الانفتاح. وجهان متقابلان لعملة واحدة، كفتان متساويتان في ميزان. قبل بضعة أيام من الانتخابات، انقسمت إيران إلى نصفين، كحال الزوجين الباسيج، وكانت على موعد مع جولة ثانية بين الخصمين الرئيسين. ثم المفاجأة غير المتوقعة: جميع الإيرانيين، أولئك المصابون بخيبة الأمل، الكتلة الصامتة المخذولة من الإصلاحات والغائبة عن صناديق الاقتراع منذ عام 2005، نبذوا إغراء

الاستسلام لمقاطعة الانتخابات، وبدأوا يرفعون صوتهم مرة أخرى: بين السيئ والأسوأ، من الأفضل أن نختار السيئ. هكذا كان شعارهم الجديد. كان بينهم العديد من النساء والشباب الذين تحدوهم رغبة مشتركة في استعادة زمام التحكم بمصيرهم. خرجوا كل يوم أكثر عدداً في المسيرات التي تجوب الشوارع، محولين إياها من سلسلة بشرية إلى حفل موسيقي لأنصار موسوي. خرجوا مذهولين من شجاعتهم، الأطفال على الأكتاف والابتسامات على اتساع الوجوه. يخترعون الهتافات كما لو كانوا ينظمون لحناً.

كثيراً ما كانت شعاراتهم تتحول إلى نكات. تقول إحداها: لم يفرق أحمدي شعره؟ لكي يفصل ذكور القمل عن الإناث. بعد أربع سنوات من الضغط، غدت الأماكن العامة ساحة مفتوحة لاحتمالات لا نهاية لها.

في يوم نهاية الحملة الانتخابية رسمياً، في 10 حزيران/ يونيو، التقيت بصديقتي الصحافية سپيده بشكل مختصر بين مقابلتين، كانت دائمة التنقل بين اجتماع سياسي ومسيرة في الشارع منذ بداية الحملة. سمح لها هذا المناخ الجديد من الانفراج بكتابة تقارير صحفية جديدة دون الحاجة إلى الرقابة الذاتية. كانت مبتهجة: «لقد فزنا سلفاً. هذا أفضل يوم في حياتي!». في رنين ضحكاتها، عثرت على الفور على الحماس نفسه الذي كان لها في أواخر التسعينيات، والعطش للحياة الذي فوجئت به منذ لقائنا الأول. ثم توقفت ونظرت إلى ساعتها. «لا بد لي من الانسحاب، لقد تأخر الوقت لكتابة مقالي لهذا اليوم. موعدنا يوم النصر! سوف أحضر الحلويات!». قالت وهي تقبّلني موعدة. كنت مفتونة بطاقتها الفياضة التي تتناقض مع كآبة السنوات الأربعة الماضية. كان ربيعاً لا مثيل له، فصل يعبق بالازدهار. بدأت أؤمن بإمكانية ذلك كالإيرانيين تماماً. بعد كل هذا، قد تكون لموسوي كل الحظوظ للفوز بالجولة الأولى. غير أن الكاميرات

أخذت تتزايد بين الحشود لتصوير المتظاهرين، ويزداد وجود الملتحين الذين يخترقون جموع المحتشدين. حتى أنه وفي الصباح، تجرأ أحد مسؤولي الحرس الثوري على تشبيه حملة موسوي بثورة مخملية. ولكن أحداً لم يتنبه، فالفرح قد بدد الخوف.

في 12 حزيران/ يونيو، يوم الانتخابات، اجتاح الحماس نفسه صناديق الاقتراع. في عدة مناسبات، مددت السلطات افتتاح المراكز الانتخابية. وعند انتهاء التصويت، في الساعة العاشرة مساءً، بيَّنت الاستطلاعات أن نسبة المشاركة بلغت 85%. بدا وكأن هناك إيران جديدة تولد من جديد. عدت إلى شقتي في شارع الباسدران تغمرني عدوى النشوة. كانت سيارة الأجرة تمضي بمحاذاة ناطحات السحاب والنوافذ مشرعة للريح. تجاوزتنا سيارة تطلق عرساً من الزمامير، نظرت باتجاهها فرأيت امرأة شابة وقد أخرجت جذعها من شباك النافذة الخلفي وجلست عليه ملوحة بدلال بوشاح أخضر في الليل. فتراقصت تحت النجوم أمواج شعرها البني، حرة، خفيفة وغير مكترثة، في مشهد أخير لمدينة منتشية بالأمل. آخر رؤيا ليلية على ناصية اللامعقول ظلت مطبوعة في ذاكرتي.

- «إنه انقلاب!».

على الطرف الآخر من الخط، أجهشت سپيده بالبكاء، كانت الساعة نحو العاشرة والنصف من مساء 12 حزيران/ يونيو. ثم أضافت وكلماتها تمتزج بعبراتها:

- «تعرض المقر الرئيس لموسوي لهجوم. كان الباسيج هناك منذ بضع دقائق، وقد حطموا أجهزة الكومبيوتر ومزقوا الملصقات على الجدران، تم اعتقال بعض المسؤولين هناك من قبل الشرطة ولا نعلم إلى أين اقتادوهم».

ضاع صوتها في صمت ثقيل. حاولت أن أعاود الاتصال بها دون نتيجة. رن الهاتف ولا مجيب.

وبعد بضع دقائق، رن الهاتف. أجبت بسرعة. على الخط كان أحد ممثلي موسوي الذي كان على وشك أن يعقد بعد عدة دقائق مؤتمراً صحافياً تم تنظيمه على عجل، وناشدنا للوصول إلى هناك بأقصى سرعة. تابعت اتصالاتي في الطريق إلى هناك، أكد لي أصدقاء مقربون مخاوف سپيده: في عددها الصادر صباح اليوم التالي، عنونت صحيفة كيهان المحافظة التي كانت قد طبعت أعدادها عشية اليوم السابق، انتصار أحمدي نجاد.

- «لقد فزت في الانتخابات. هنالك تزوير!». نادى موسوي من منبره المرتجل.

عندما وصلنا كانت كلمته قد ابتدأت للتو. في مكتبه الصغير في قلب

طهران، اكتظ حشد من الصحافيين من جميع أنحاء العالم حول المرشح الإصلاحي. أكد مستشاروه مدعومين بنتائج الاستطلاعات حتمية فوزه. كما صبت أصوات الشباب والنساء الذين صوتوا بكثافة في صالحه. بعينيه الغائرتين ووجهه الشاحب أضاف موسوي أنه لم يخسر، وأنه سيقاتل حتى النهاية. ثم توارى خلف باب صغير. في الخارج ساد صمت ثقيل سحق المدينة. واستطعت في طريق العودة التحدث إلى سپيده التي أجابت أخيراً:

- «هذه المرة، هاجم الباسيج مبنى "قلم سبز"، صحيفة موسوي! أخشى أن يكون الأسوأ قد حصل».

بهذه الكلمات، فهمت أن أمراً رهيبا كان يحدث. على الرغم من أننا لم نكن قادرين بعد على قياس حجمه.

في صباح اليوم التالي، كانت موجة الصدمة قد اجتاحت طهران.

على الراديو، أذيع خبر إعادة انتخاب أحمدي نجاد وانتصاره على التوالي، في الوقت التي سرت فيه الشائعات أن موسوي وغيره من المرشحين المعتدلين، قد جرى وضعهم تحت الإقامة الجبرية. في الشارع، تحولت سيارات الأجرة المشتركة إلى أمكنة للتنفيس عن الغضب. أشرنا أنا وبورزو لواحد منها بالوقوف. وحالما أغلقنا الباب، شغلت مسجلي. كان الركاب غاضبون وأرادوا جميعهم أن يتكلموا. بدأ أحدهم الكلام غاضباً، مؤكداً حصول اعتداء على مركز آخر من مراز الخملة الانتخابية، وقال آخر إنه قد سمع عن اعتقال نشطاء وأكد أنه قد رأى بأم عينه كيف تعرض أفراد من الحملة الإصلاحية للقمع في العديد من مراكز الاقتراع. وشكا آخر من عدم إمكانية إرسال الرسائل النصية التي حجبت خدمتها تماماً في كل البلاد. علاوة على هذا التضليل الجماعي، فكيف إذاً يدعون إلى انتخابات شفافة، في الوقت الذي تهبط فيه نتائجها علينا مباشرة عند

إغلاق صناديق الاقتراع؟ ثم قال السائق المحتقن غضباً: «حتى أنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء فرز الأصوات!».

«هنالك تزوير. أقسم أن هنالك تزوير! اكتبي عن ذلك في صحفكم! فصحفنا غدت مهددة بالانقراض»، أضاف أحد الركاب، وكان يرتدي قميص تي شيرت أخضر فوق جينز أزرق طرز عليه باللون نفسه حرف ميم كإشارة إلى الحرف الأول من اسم موسوي. كان غاضباً. وقال إن خامنئي وراء عملية الاحتيال لأن هوس الناس بموسوي قد طغى عليه، فالمرشد العام يعتقد بأن انتصار البطل الجديد سيهدد النظام، لذا قام بعرقلة العملية الانتخابية. هكذا، دون تفاوض.

رن هاتفي. كان هناك مؤتمر صحفي على وشك الانعقاد، وهذه المرة في مقر صحيفة "الطليعه" اليومية.

طلبت من السائق أن يوصلنا إلى أقرب نقطة. وعند وصولنا كانت الشرطة قد طوقت المكان. فقمنا أنا وبورزو وبعض الزملاء بالتمركز في أحد مقاهي شارع ولي عصر. على الرصيف، أخذ شاب يوزع بعض المنشورات خلسة، خط عليها بأحرف سوداء: موعدنا في ساحة (ونک) للتنديد بالانقلاب.

ولأننا لم نكن بعيدين عن نقطة التجمع، هُرعنا إلى هناك.

أين صوتي؟ بقبضة مرفوعة إلى السماء، مزقت امرأة شابة الصمت بصوتها المكسور. حلت كلماتها عقدة شفاه من بدأوا بالتوافد.

"أين صوتي؟ أخذ الحشد يردد كجوقة.

الموت للديكتاتور!، الموت للانقلاب!"هتف متظاهرون آخرون. عدة مئات كانوا قد احتشدوا في "ونک". سرب من الساخطين آخذ في الازدياد على مد النظر. رجال في ثياب العمل الزرقاء، وطلاب، وكهول

ينتعلون الشباشب. ثم فجأة، سُمع هدير معدني، كصليل السلاسل وهي تحتك بحجارة الطريق. رفعت رأسي فرأيت الباسيج يمتطون دراجاتهم الهوندا ويلاحقون المحتجين. صاح أحدهم: «تفرقوا! بسرعة!».

ركضنا مع الحشود في حركة عشوائية مرتجلة، تتعرج بين السيارات، يتبعنا هدير الدراجات النارية. على امتداد شارع ولي عصر، أسدلت المتاجر مصاريعها الحديدية بوتيرة سباقنا المحموم نفسها، لم أدر بأي أعجوبة وصلنا إلى مكتبة أغلق صاحبها الباب وراءنا وأطفأ الأنوار. لم أكن أميز في العتمة سوى ظلال لبعض الناجين المحاصرين كالسردين بين الكتب. فجأة انفجرت امرأة بجانبي بالبكاء. كانت ترتدي برقعاً طويلاً وأسود كالكدمة التي تحيط بعينها اليمنى التي كانت قد تلقت عليها ضربة بالهراوات. كانت تنتحب قائلة إن النظام قد خانها. لقد ناصرتُ الثورة. وآمنت بالخميني. وقدمت شهداء لهذا البلد: زوجي، أخي... والآن يشكرونني بهذه الطريقة! بمهاجمتي والاعتداء عليَّ لأنني دافعت عن حقي في التصويت! إن هذا النظام آخذ في التهام أبنائه. لقد أصبحت الثقة مفقودة. سحبت منديلاً من جيبي وناولتها إياه. في مواجهة يأسها، كانت تلك هي اللفتة الوحيدة التي استطعت القيام بها.

في الليل، اتصلت بسپيده. كنت أعرف جيداً اندفاعها. أردت فقط أن أتأكد من أنها بخير. كان هاتفها مطفأً، ولا حتى طنين. ومحمود، وفاطمة؟ أين هما مما يحدث؟ هل يشعران أيضاً أنهما ضحايا خيانة، على غرار تلك المؤيدة السابقة للنظام التي كانت تندب خيبتها من نظام ساندته كل حياتها؟ أم أنهما كانا من بين تلك الميليشيات المسعورة التي تقبض على المتظاهرين تعسفياً؟

طلبت أرقامهما واحداً بعد الآخر. لم يجيبا.

في تلك الليلة، أجبرت نوبة من الأرق طهران على البقاء مستيقظة. في

كل أرجاء المدينة كانت هناك معاقل احتجاجات. خرجنا، بورزو وأنا، إلى الشارع. لساعات سرنا مجتازين شوارع غاضبة، وسحباً من الغاز المسيل للدموع تحيط بها حاويات القمامة المشتعلة. على أحد الجسور، اشتبك المتظاهرون والباسيج بالحجارة، في ما يشبه حرب عصابات مدنية حقيقية لم يسبق لها مثيل في إيران. وعلاوة على ذلك، أخذت عربات الشرطة بنقل المتظاهرين المصابين إلى جهة مجهولة. في محيط ساحة محسني، كانت شرطة مكافحة الشغب تقوم بجولات، وبدت أشكالهم كما لو أنهم خارجون من فيلم "الشرطي الآلي". قمنا بتفاديهم عبر سلوك الأزقة الموازية. وعند أحد المنعطفات كان الخطر يتربص بنا. ظهرت زمرة من عشرين دراجاً من الباسيج عند مفترق الطريق. سحبني بورزو من كمي في الوقت المناسب للاختباء في أحد المداخل. في الظلام، سمعت صفير سلاسلهم المعدنية وهي تضرب الهواء كأسود خرجت لتوها من القفص، قبل أن تسعى خلف المتظاهرين. بأنفاس تتقطع، مشينا حتى شارع الأردن. خلف المقود، تظاهر مئات السائقين معبرين عن احتجاجهم بإطلاق الزمامير. عندما عاد الباسيج للظهور على دراجاتهم، قفزنا إلى أول سيارة أجرة صادفناها للهرب من ضرباتهم. سارت السيارة شمالاً، عند المرور بجانب بناء الحجر، مقر المخابرات الشهير، اعتراني الخوف. هل كان السيد فنجر واقفاً قبالة نافذته يسخر من الربيع الذي تم إجهاضه؟

ثم على مسافة أمتار قليلة، حدث أمر لا يمكن نسيانه أبداً. سقط متظاهر فاقداً الوعي تحت سيل من الضربات كالها له عشرة من رجال الباسيج تكالبوا على الرجل المسكين. ثم فجأة وكأنما من العدم، هرعت متظاهرة بحجابها الأسود قبالة نافذة سيارتنا، لم تكن تطلب المساعدة، ألقت فقط بحقيبتها على المقعد راجية منا أن نهتم بها، ثم غادرت متوجهة نحو مجموعة من الباسيج قبل أن تنهار بدورها تحت ضرباتهم. وفي غمار

الفوضى، انطلقت سيارة الأجرة من جديد، دون أن نتمكن من فعل أي شيء لإنقاذها. عند عودتنا إلى المنزل، لم يجد النوم طريقه إلينا. لكثرة دوراننا حول الحقيبة، انتهى بنا الأمر إلى فتحها والاطلاع على محتوياتها. عهدت إلينا الشابة المجهولة، دون علمنا، بحياتها كلها: هاتفها المحمول والمحفظة ومفاتيح شقتها وبطاقة هويتها. جاء في بطاقة مجلدة أنها مهندسة معمارية، أين هي الآن يا ترى، لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير في الأسوأ. فكرت في أنها ذهبت إلى غير رجعة. فكرت في والديها اللذين ينهشهما القلق. فتحت دفتر عناوينها بحثاً عن رقم أتصل به. أردت أن أوصل لهم ما تبقى من ابنتهم. كان دفتر العناوين فارغاً. ونحو الساعة الرابعة، غلبني النعاس، فأرخيت رأسي على الصفحات الفارغة. أيقظني بعدها لحن غير متوقع بين المنبه ورنة المحمول، فتحت عيني.

كان الوقت وقد تجاوز الظهيرة من يوم 14 حزيران/ يونيو، رن هاتف المجهولة دون انقطاع. أجبت الاتصال:

- «سلام، أنا انوشاه».

انوشاه! قفز قلبي عندما سمعت الاسم المدون على بطاقة الهوية.

* «سلام!». أجبتها باندفاع، كما لو عثرت على صديقة قديمة.

- «لديك... لديك حقيبتي؟».

* «نعم بالتأكيد!». أجبتها مباشرة بإعطائها عنواننا.

بعد بضع ساعات رن جرس الإنترفون، ففتحت. على السلم، رأيت امرأة شابة تعرج كلما ارتقت درجة، وعيناها متغضنتان من الألم، أخذتها من ذراعها وأغلقت خلفنا باب الشقة.

- «انظري ماذا فعلوا بي!». قالت شاكية. ثم رفعت معطفها وأنزلت بنطالها كاشفة عن ساقين غطتهما الكدمات.

- «لم أكن أتظاهر حتى، لقد هُرعت فقط لمساعدة أخي الذي قبض عليه الباسيج في تلك اللحظة. عندما رأيته ينهار، تدخلت لإنقاذه، فانهال عليَّ الباسيج بالضرب، ثم قاموا بوضعنا نحن الاثنين في شاحنة، واحتجازنا طوال الليل قبل الإفراج عنا». كشف وجهها الشفيف عن نقص عميق في النوم. كنت لا أزال أجهل سبب وثوقها بنا لدرجة أن تعهد لنا بحقيبتها.

- «أوه، إنها غريزة البقاء على قيد الحياة!». أجابت. «أردت في حال حصول مكروه لي، أن يعرف الناس على الأقل كيف وأين اختفيت. علاوة على أنني أؤمن بشعبنا. إيران بلد الناس الطيبة. لقد فاز النظام عن طريق التلاعب بالانتخابات، ولكن نصره الوحيد يكمن في جعلنا أقرب إلى بعضنا البعض، واعتباراً من اليوم، سأنزل كل يوم للتظاهر تضامناً مع شعبنا».

* «هل صوّتِّ؟».

- «لا. لم أؤمن يوماً بهذا النظام، وبما أنني على يقين من استحالة تغييره، انتهيت إلى التعايش معه».

* «لمَ النزول الى الشارع إذاً؟».

- «ما حصل اليوم كان أمراً مختلفاً: لقد تم خداع الإيرانيين بمظاهر الديمقراطية. فذهبوا للإدلاء بأصواتهم في صناديق الاقتراع. والآن يريدون معاقبتهم على التصويت. إنه أمر غير مقبول! إن كنت أتظاهر، فمن أجل أن تحترم خيارات شعبنا. أما بالنسبة إلى أحمدي نجاد، بيدق خامنئي! فقد سمعتِ في خطابه اليوم كيف تجرأ على نعت خصومه بالقمامة. إنه لأمر معيب حقاً! لم نعد نريد غطرسته، فهي توقظ أكثر الأحقاد سباتاً».

شاهدتها تتحدث وهي تلوّح بيديها، وتفلت ابتسامة من آلامها خلسة.

انوشاه كانت واحدة من بطلات الظل اللواتي ينزعن إلى تحدِّي المعاناة والخطر. هل كن محقات بما يعتقدنه عن النظام؟

- «لقد فُتح صندوق باندورا»، قالت انوشاه، «ولن يعود المارد إلى المصباح بسهولة».

في اليوم التالي، حدث ما لا يمكن تصوُّره أمام ناظري.

كانت إحدى تلك اللحظات السحرية حيث كنت لتجد مكانك هناك أيُّها الجدُّ المحبُّ للحياة، الشاعر الملهم وعاشق الديمقراطية. في 15 حزيران/ يونيو، الموافق لـ 25 من خرداد في التقويم الإيراني. ما زال هذا التاريخ مؤطَّراً في مفكرتي بحبر لا يُمحى. وفي أسفل الصفحة، كتبت لك كلمة صغيرة، أخبرتك فيها عن إحساسي بالعثور على كل أفكارك مجتمعة في مظاهرة واحدة، أجمل وأخطر مظاهرة شهدتها في أي وقت مضى.

في صباح ذلك اليوم، ألغى البطل موسوي تجمُّعاً للغضب خوفاً من وقوع حمام دم. لكن أجرأ المتظاهرين كانوا قد رتَّبوا موعداً في ساحة انقلاب عند أواخر فترة العصر. نزلنا بوررزو وأنا إلى وسط المدينة بعد أن خبَّأنا جيِّداً بطاقاتنا الصحافية في جيبنا. كانت شرطة مكافحة الشغب على علم بأمر المظاهرة. شكَّل الطلَّاب مجموعات متنقِّلة انتشرت حول جامعة طهران، وجوههم المتجمِّدة تشي بعدم اليقين مما سيأتي.

تحرَّكوا ببطء، بمحاذاة باعة الكتب، وهم يتبادلون بعض الكلمات العابرة، كانت بينهم فتيات، العديد من الفتيات، بأوشحة زرقاء وحمراء وخضراء أيضاً. نظرت إلى أسفل، كانوا جميعاً يرتدون أحذية رياضية. أولئك الفتيات، كن على استعداد إذاً للتظاهر، وللركض إذا لزم الأمر. تبعنا خطواتهم على امتداد شارع انقلاب، ونحن نتقدم نحو المجهول، نحو ساحة آزادي. رافق صمت عنيد خطواتنا. وعند مفترق الطرق، انضم

حشد إلى الحركة، وبتقدمها عبر التقاطعات والمباني والشوارع ازداد عدد المتظاهرين. رأيت جدات ملتفات بالحجاب من الرأس إلى أخمص القدمين، وعمّالاً بثياب العمل الزرقاء، ومحاربين قدامى من المصابين في الحرب على كراسيهم المتحركة، والأطفال على أكتاف الآباء. شاهدت كيف كانت عيونهم تتجه نحو السماء وأفواههم مستعدة لترديد أول هتاف. وفي أقل من ساعة، اتحدت تلك المجموعات لتشكّل سلسلة بشرية واحدة. بجوارنا كان هناك رجلان عجوزان أخذا يهتفان: «أعيدوا إلينا أصواتنا!». وقد أمسكا بأيدي بعضهما البعض. قال أحدهما أنه لم يغادر منزله منذ عام. وأضاف:

«منذ سنوات وأنا أحلم بهذا اليوم! كنت أغمض عيني وأبكي أحياناً وأنا أتخيَّل هذه اللحظة، وها هي الآن تتجلى أمام ناظري. الآن لو مت، فسأموت بسلام». كان يرتجف، متفاجئاً بما فعل. استمعت إليه كما لو كانت كلماتك. ثم قالت لي امرأة إنها جاءت مباشرة من شهريار، على مسافة ساعة من طهران. لقد استأجرت مع جاراتها حافلة صغيرة كي تأتي وتتظاهر، ولم يكن زوجها على علم بالأمر. «يسقط الديكتاتور!». هتفت.

«مهلاً أيها الرياضي النووي، اذهب إلى السرير إن كنت متعباً!». أردفت جارتها.

كانت الشعارات مقفاة باللغة الفارسية، حتى عندما يتظاهرون، يبدو أن للإيرانيين دائماً القدرة على التعبير بالشعر.

صعدنا بورزو وأنا إلى جسر، أخذت الموجة البشرية تمتد على اتساع البصر: في منتصف الشارع وعلى والأرصفة المزدحمة، وفوق مظلات محطّات الحافلات، كان هناك مئات الآلاف من الإيرانيين يتظاهرون. همس أحدهم خلفنا بأنهم مليون متظاهر، أو ربما مليونان.

من الشرفات، صفَّق الفضوليون لغياب الشرطة التي تبخرت بعد أن روَّعها حجم الحشد. لم يكن هناك سوى عدد قليل من الطائرات المروحية التي حلقت من وقت إلى آخر فوق أسطح المباني. علمنا في وقت لاحق أن موسوي غامر بظهور علني مقتضب قبل أن يختفي مرة أخرى. فكَّرت مجدَّداً في أحداث عام 1999 في جادة انقلاب. بعد عشر سنوات، تحول نداء الطلاب المخنوق إلى صرخة وطنية من الغضب تتجاوز الأجيال. إيران كلها كانت للمرة الأولى في الشارع، كمحيط جامح.

عند اقتراب المظاهرة من مبنى يخضع لحراسة الباسيج، تتباطأ الحركة. ويتطوع بعض الشباب من الجموع لتشكيل صفوف لحماية المظاهرة. هتفت امرأة بملء حنجرتها: «لا تخافوا، لا تخافوا. نحن جميعاً معاًا!». وكرَّر الحشد اللازمة وراءها كجوقة. وهناك، سقط كل ما تبقى من خوف وحزن تحت خطوات المتظاهرين. نبضَ الشارع، ولوَّحت الشمس الوجوه.

كان ضوء دافئ ويبعث على الطمأنينة. تركت نفسي كأعمى يسترشد بصوت وقع الخطى على أحجار الطريق. كنت قد أضعت بورزو في الحشد، وأصبحت وحدي في وسط كل هؤلاء الغرباء. ولكن، خلافاً لما حدث في عام 1999، فهمت كل الشعارات، كل كلمة، وكل التفاتة. لأول مرة، فهمت إيران في مجملها. كان عليَّ أن أنتظر كل تلك السنوات لاكتشاف أسرارها. أمام ناظري، ومن خلال هذا الحشد المتمرد، تبدى أمامي بلد بأكمله. شعب فخور، عاشق للديمقراطية، اكتشف وجوده، ونهض متَّحداً. كهول، متزمتون، برجوازيون، ملتحون محبطون، عاطلون عن العمل. قد يضيق الخناق ربما، أو ينهمر الرصاص، ولكنني كنت أعتقد أن هذا السيل النابض بالحياة لم ولن يمكن إيقافه بعد اليوم.

في تلك اللحظة، يا باباي الحبيب، تمزق شيء في داخلي. لقد هجرني

القلق، شعرت أنني حلقة صغيرة في تلك السلسلة المتمردة. وجدت في معركتهم شيئاً شبيهاً بقناعاتك. وبقناعاتي أنا أيضاً. سرنا. سرت معهم، نحو المجهول الذي لم نعد نخشاه، في جادة انقلاب التي كنت فيها شاهدة على حمرة الورود، ثم حمرة الدماء، لم يكن هناك من شيء سوى الحاضر، المحتوم، وقوة الرغبة في إحقاق العدالة التي كانت تكبر لحظة بلحظة. الأفق كان غير محدود. بدت تلك المسيرة، على الرغم من بطء حركتها، وكأنها سباق محموم، ورقصة جميلة، قلقة، خائفة وسعيدة. كانت تلهمني وتملؤني. وكان الناس يتزايدون من حولي كأرض بكر تمتد بلا حدود. وفي خضم كل هؤلاء المجهولين، نسيت اسمي، مهنتي، ومن أين أتيت. وكأنما حياتي قد ذابت في حيواتهم.

كنت إيرانية. كنا جميعاً إيرانيين.

عند عودتنا إلى المنزل ذاك المساء، كانت ذكراك تتسلَّق ذاكرتي. عند بداية شارعنا، وهو عادة ما يكون هادئاً، انهمرت علينا جوقة من التكبيرات وكأنها من السماء، لم يكن مصدرها مسجد الحي. كانت نداءات لينة، متموِّجة، تنزلق على طول الجدران، وتداعب أوراق الأشجار وتتناغم مع خرير الخوب. ارتقيت درجات المبنى سريعاً حتى السطح، إلى حيث تختفي الصحون الممنوعة. أصبحت الأنشودة أعلى وأقرب وأكثف: «الله أكبر... الموت للديكتاتور!».

ترددت الأصوات من سطح إلى آخر، في تزامن موسيقي. أخذت أجيل النظر على الأسطح الأخرى. تعرفت من خلال شقوق ستار الليل الأسود على كل الوجوه التي كنت أصادفها طوال سنوات، دون أن أعرف أصحابها: جيراننا المتزمتون الذين يقطنون بجوارنا ويثيرون انزعاجنا بأناشيدهم إحياءً لذكرى عاشوراء. البرجوازيون متبلِّدو الإحساس، هواة جمع السيارات. السيدة العجوز في أول الشارع التي لم تكن تبرح منزلها.

الله أكبر... الموت للديكتاتور! دائماً ما كان هؤلاء الناس يتجاهلون بعضهم البعض، وربما يكره بعضهم الآخر. ولكن مما لا شك فيه أنه لم يسبق لهم أن تحدَّثوا إلى بعضهم بعضاً قط. وهنا هتفوا فجأة "الله أكبر" بصوت واحد. من بيت إلى آخر، ومن سطح إلى آخر، أخذوا كجوقة يردِّدون هذا التكبير المحمل بصدى غريب لذكرى ثورة عام 1979.

فكرت مرة أخرى في تلك الحقبة. في ثورة جيلك. في ذلك الوقت عند ساعة الغسق، رددت طهران الهتاف نفسه على أمل الإطاحة بالشاه.

استطاع المتظاهرون آنذاك، بقوة التظاهر والمقاومة، إسقاط الملك. فهل ينجحون هذه المرة؟ هل سيُسمع صوت الإيرانيين؟ وهل ستهزم هذه الصحوة الوطنية المذهلة أحمدي نجاد على الأقل إن لم نقل المرشد الأعلى؟ في عام 1979، تبلورت المشاعر حول رجل واحد كان الخميني، وإيديولوجيا واحدة كانت الإسلام. وهو أحد الأسباب التي من أجلها بقيت يا باباي خارج اللعبة، غير راغب في بيع روحك باسم أي عقيدة. أما اليوم، فكانت ثورة مختلفة. لم يكن للحركة من زعيم أو دافع آخر سوى احترام خيار الشعب. كانت تلك نقطة ضعفها. وفي الوقت نفسه قوتها أيضاً. كنت أتساءل ما هو الدور الذي كنت لتلعبه، إن انضممت إلى كل هؤلاء العصاة الذين يكبِّرون من أسطح منازلهم في هتاف للمقاومة تجرد من سياقه الديني.

اعترتني رغبة في الاتصال بماماني. كان لدي فضول لأن أستمع إليها. من شقتها في باريس كانت تتأسف لأنها لم تكن في طهران، فهي، كعادتها عندما كانت في إيران، كانت تمضي أيامها متنقلة بين القنوات الفضائية المختلفة التي ثبتتها في منزلها. خلال حديثنا كانت هي من قالت لي إن مظاهرة جادة انقلاب تحولت إلى العنف بعد أن وصلت إلى ساحة آزادي

في نهاية اليوم ساحة في نهاية اليوم، وإن العديد من المتظاهرين قُتلوا برصاص الباسيج.

- «كيف ذلك؟ ألم تعلمي؟ أنت هي الصحافية!».

في طهران، أثّر حجب الرسائل النصية والتشويش على BBC وصوت أمريكا في التزوُّد بالمعلومات. أما بالنسبة إلى الرقابة على شبكة الإنترنت، فقد جعلت مهمتنا أكثر صعوبة من ذي قبل. وفي ما خلا الأفلام الوثائقية عن الحياة البرية ومقاطع الفيديو التي تمجِّد شهداء الحرب الإيرانية العراقية، لم يكن التلفزيون يعرض شيئاً يُذكر.

- «آه، هل سمعت آخر الأخبار؟ يقال إن بعض الدبلوماسيين الإيرانيين في الخارج بدأوا بتقديم استقالاتهم». قالت ماماني بنبرة المنتصرة.

على الهاتف، كان صوتها يبدو أكثر شباباً. قالت لي إنها سمعت عن هذه السلسلة الجديدة من الانشقاقات في مظاهرة اليوم التي جرت أمام سفارة الجمهورية الإسلامية في جادة إيينا في الدائرة السادسة عشرة في باريس. اعتقدت أنني لم أسمع جيداً. فطلبت إليها أن تكرر ما قالت.

* «هل يعني أنك ذهبت إلى المظاهرة؟». سألتها.

- «بالتأكيد!». أجابت، كما لو كانت المسألة تحصيل حاصل.

يا لها من مفاجأة! لقد انضمت ماماني إلى جموع المحتجين. كانت انوشاه على حق: هي يقظة شعب بأكمله، بما في ذلك زوجتك التي تحترف الغضب وتحولت لاحقاً إلى جان دارك إيران. فكرت في كلامها قبل النوم، لو كنتَ لا تزال في عالمنا، فكيف كنت لتستقبل تحوَّلها؟ سمحت لنفسي بأن أحلم أن شغفها كان ليغويك، وكنت لتغرم بها ربما، هذه المرة للأبد.

في اليوم التالي التقيت أخيراً مجدداً بسارة التي علَّمتني الفارسية. لطالما أجلنا لقاءنا منذ عودتي إلى طهران بسبب الأحداث التي لم تتوقَّف عن مباغتتنا. كانت سارة مشغولة أكثر من المعتاد، فقد كانت تتظاهر في النهار وتجري في الليل تحرِّياتها حول أصدقائها المختفين، فتطرق أبواب ذويهم وتجول على المستشفيات وتزور المشارح وتحوم حول السجون.

- «هاكِ، خذي هذا». قالت وهي تُخرج من كيسها قناعاً طبياً.

كان القناع ترس المتظاهرين الجديد، درعاً متواضعاً يحميهم من رشقات الغاز المسيل للدموع. كانت سارة في طريقها إلى لقائي قد أنفقت وقتاً ثميناً لكي تعرج على صيدلية حيِّها قبل نفاد مخزون الأقنعة، فقد حطَّمت مبيعاتها في طهران أرقاماً قياسية. أرادت سارة أن تقنعني أنا أيضاً بارتداء واحدٍ منها.

* «هل يمكنك أن تتخيلينني أرتدي هذا الشيء؟». أجبتُها.

في الواقع أتى عرضها في اللحظة المناسبة، ففي صباح ذلك اليوم بالذات أُلغيَت كل التصاريح الممنوحة للصحافة. زار رجال المخابرات عدة صحافيين في غرفهم في الفنادق التي ينزلون فيها بينما رُوفق آخرون إلى المطار. وفي وزارة الإرشاد أُعطيَت تعليمات بعدم الاقتراب من المظاهرات من الآن فصاعداً.

في هذا الظرف كنت في حاجة إلى وسيلة تسمح لي بالاستمرار في تحرير تقاريري دون أن يراني أحد. أمام المرآة ثبَّتُّ المربع القماشي على

فمي، وكما هي العادة غلَّفت شعري بمنديل أسود. وبارتدائي نظاراتي الشمسية أصبح من المستحيل التعرف إليَّ.

- «ممتاز!». قالت سارة فخورةً بما فعلت وهي تدعوني لمرافقتها إلى تجمُّع اليوم.

هذه المرة ستبقى المفكرة وآلة التصوير في البيت من قبيل الحذر. ثم إن سارة قد أكدت لي أن هاتفي المحمول سيكفي وزيادة، فاتبعتُ نصيحتها. التفتُّ إليها قبل أن نخرج. ففيما عدا وشاحينا، كنا نرتدي الثياب نفسها كتوأمين.

انطلق موكب المتظاهرين من ساحة "ونك" نحو الساعة الخامسة بعد الظهر. وكانت سارة قد حصلت على تفاصيل مسير الموكب وكتبتها بقلم تخطيط أخضر على ورقة نقدية. عند استحالة استخدام الرسائل النصية كانت العملة الورقية الوسيلة الجديدة لإيصال الرسائل، فتنقلب النقود أحياناً منشوراتٍ ضد النظام أو قصائد تتغنى بالحرية عند ازدياد الإلهام. لدى وصولي، وجدت مزيج الأمس نفسه من التخوُّف والشجاعة، والشعارات الجريئة نفسها. وعلى لافتة رفعت فوق رؤوس الحشد استشهد أحدهم بقول المهاتما غاندي: أولاً يتجاهلونكم ثم يسخرون منكم ثم يحاربونكم وفي النهاية تنتصرون. وعلى مسافة منها حمل متظاهر آخر صورة آية الله منتظري. في اليوم السابق كان حكيم قُم العجوز قد خرج عن تحفُّظه داعياً إلى ثلاثة أيام من الحداد الوطني لذكرى قتلى جادة انقلاب. غصتُ وسارة في الموجة. مشينا جنباً إلى جنب، شريكتين في غاية واحدة. رافق هدوء مهيب خطانا. كان الحشد كثيفاً والوجوه متنبِّهة. فكَّرت في هذا المشهد الاستثنائي الذي لم أكن قادرة على تصويره، وفي تلك العيون التي تتأجج التي لطالما رغبتُ في تخليدها. رأيت سارة حينذاك وهي ترفع يداً في الهواء موجِّهة عدسة هاتفها المحمول نحو الحشد. تبعتها يد ثانية ثم

ثالثة ثم رابعة ثم عشرات أخرى. كانت تلك أيدي المحتجين. كانوا وهُم مزوَّدون بآلات تصوير بسيطة وعدسات هواتفهم المحمولة يصورٌون كلٌّ بمفرده مسيرة التاريخ، هذا التاريخ الذي لم يعد من حقنا نحن المراسلين المحترفين أن نوثّقه. كانوا مواطنين صحافيين حقيقيين، صانعين لتاريخهم وشهوداً عليه في آن معاً. بدون عِلمنا، وبفعل الأحداث، حصلت نقلة مدهشة. فسارة أصبحت مصوِّرة تلقائياً وأنا متظاهرة عرضياً.

في الأيام التي تلت المظاهرة تجدَّد ذلك الطقس البسيط وامتدت إلى الأرياف الوادعة. وفي نهاية كل مسيرة كان يتم تناقل الإعلان عن مسيرة الغد شفاهاً، وأحياناً على قصاصات بسيطة من الورق المقوى يتم تبادلها في المظاهرات بين عربتي مترو. لقد كانت تلك مرحلة من التلاحم والتضافر، توثقت خلالها عرى صداقات جديدة، وأخذ زملاء عملٍ لم يتبادلوا الكلام قط يكتشفون بعضهم البعض. وبمجرّد أن يعلم متظاهر أن هناك صحافياً في الحشد كان يحتضنه ويقدم له عصير الفاكهة. لكن عصبية النظام كانت تدفعنا كل يوم إلى مضاعفة حذرنا. كنا نخرج منفصلَين، أنا وبورزو، لتضليل المخابرات. في الحشد كان اسمه الحركي بِهروز، وأنا كنت إلاهِه حاملةً بذلك لأول مرة اسمي الثاني، اسمي الإيراني.

لقد اتخذت حياتنا اليومية شيئاً فشيئاً شكل مسرحية كنا فيها محكومين بالتخفي كي نستطيع إيصال الرسالة، وأيضاً كي نستطيع البقاء على قيد الحياة. كانت مرحلة من الأمل والتوجس. بقينا دون أخبارٍ عن معظم أصدقائنا، ويقال إن سجن إيفين كان طافحاً بالسجناء. لم نكن في حياتنا قط أقرب من القضبان منّا في تلك الفترة. ما زلت حتى الآن أجهل ما الذي دفعنا كي ننزل إلى الشارع على الرغم من كل شيء. هل هو التفاني في مهنتنا؟ أم حبُّنا للبلاد؟ أم إدمان المجازفة؟ أم فورة الأدرينالين؟ أم تلك الأسباب مجتمعة معاً؟

حزم المرشد الأعلى أمره أخيراً في 19 حزيران/ يونيو، فبعد أسبوع من الصمت أعلن آية الله خامنئي اصطفافه إلى جانب أحمدي نجاد على الرغم من المطالب بإجراء انتخابات جديدة ومن آلاف العصاة في الشوارع. واكتفى بخطبةٍ وحيدة ألقاها خلال صلاة الجمعة قال فيها بأسلوبه إن الحفلة قد انتهت، وإن التجمعات يجب أن تتوقَّف وإلّا قُمعت بقسوة. كان خطابه توقيعاً على بياض للباسداران ولميليشياتهم الباسيج ضد كل من يعارض الانتخاب المتعسِّر لربيبه السياسي.

ومنذ اليوم التالي تغيَّر وجه طهران وأصبحت كسجن كبير بلا قضبان. انتشرت الشرطة وقوات حفظ النظام في كل شبر منها. لكن المعارضين أصرُّوا على موقفهم، فظهرت هنا وهناك بعض التجمُّعات المرتجلة في تحدٍّ لطلقات الغاز المسيل للدموع. كانت نظرات المتظاهرين الجريحة تحمل من السخط الكثير. مشيت لساعتين في الشوارع المذعورة حتى بلغتُ جادة كركَار التي انتشرت على طولها الإطارات المحترقة. لم تعد الهتافات تستهدف أحمدي نجاد فقط بل تعدَّتْه إلى المرشد الأعلى. وانقلبت آمال حل سلمي للأزمة بين ليلة وضحاها إلى صرخات حانقة ضد الجمهورية الإسلامية. في وسط الجادة صبّ متظاهر جام حقده على الأرض بالطبشور الأبيض كاتباً الموت لخامنئي بالخط الفارسي. ومن قلب الحشد الذي أتى ليثني على هذا العمل الفني التخريبي صرخ رجل: «أحمدي نجاد يرتكب جرائم والمرشد يدعمه». ثم رمى حجارة باتجاه قوات مكافحة الشغب. خنق هدير الدراجات النارية صرخة الرجل وانقض الباسيج بالهراوات على الجَمع. وقع الرجل على ظهره وقد تدمَّى وجهه. تحطَّمت موجة المظاهرة وتهشَّمت على الحجارة التي ترصف الشوارع الفرعية. كنت من بين جمع من المتظاهرين وانتهى بنا الأمر عند باب بناء موصد انهار تحت ركلاتنا.

اندفعنا داخل بيت الدرج وصعدنا إلى الطابق الأول حيث قدمت لنا عجوز بالبرقع أكواب عصير برتقال على صحفة من البلاستيك، ووزعت أخرى مناديل ورقية على المتظاهرين المصابين بخدوش. كان ذلك من تلك المشاهد الفائقة للخيال التي تشي بمدى التعاضد الذي ظهر على كل أصعدة المجتمع. صعدنا قُدماً حتى السطح فوجدناه مزدحماً كأي ملجأ متاح بين اشتباكين في الشارع، ثم تسلَّل إليه من خلال الشِّباك المعدنية غاز مسيل للدموع أحرق أعيننا.

- «لم أعد أرى، لم أعد أرى!». أنّت امرأة، وعندها أزَّت أول رصاصة. صمت ثقيل خنق دموعها فوراً. تجمَّدت مجموعتنا الصغيرة. كانت هذه المرة الأولى التي أسمع فيها في إيران إطلاق نار بهذا القُرب، رصاصة حقيقية دون شك. ارتجفت وأنا أفكر في المجهول الذي أصابته في وسط الشارع. ثم تتابعت الرشقات وكانت أبعد، تلاها صخب مبهَم تصاعَد من الشارع يختلط فيه صليل السلاسل بالصراخ والبكاء. ألقيت نظرة عبر الشِّباك فرأيت في الأسفل آخر المحتجِّين ينفضُّون في اندفاع مذعور.

«إنهم يقتلوننا! إنهم يقتلوننا!». صرخ أحدهم. وبعيداً لم يتراءَ من رجال الباسيج سوى ظلال صغيرة سوداء. تتبَّعنا مسارهم من مكاننا على السطح حتى اختفوا في منعطف حارةٍ ما. وهمس أحدنا أن علينا الانتظار على السطح قليلاً قبل الخروج، من قبيل الحذر، فبقينا هناك مقيَّدين إلى خوفنا تُغلق علينا فكرة جنائزية واحدة: بفرق دقائق فقط كانت تلك الرصاصة لتقتل أحدنا. لم يعد أحد في طهران في منأى عن رعد العنف الذي انهال على المدينة.

مضت نصف ساعة قبل أن نميِّز متنفسين الصعداء صخب زمامير العربات المعتاد. عادت الحياة إلى الشارع تدريجياً حتى بدت عادية بشكل مقلق وكأن شيئاً لم يحصل هنا. صادفنا في الشارع امرأة يشي

وجهها بالذعر، أكَّدت لنا أن فتاة شابة سقطت هنا ضحية لرصاصة قنَّاص. الرصاصة التي كنا قد سمعناها. وعلى طول كركار تبعت سيراً على الأقدام متسكِّعين آخرين ضلُّوا طريقهم. كانت الأرصفة حزينة وصارمة، وانتشرت القمامة بشكل محزن. تحت شجرة شبه متفحِّمة انتثرت أوراق متفرقة على الأرض بقعاً خضراء مقتولة مصطفَّة كجثث على الأسفلت المخدوش. عندما وصلت إلى البيت وجدتُ بورزو عاكفاً على كومبيوتره ورأسه متكئ على يديه.

- «هل رأيتِ ما حصل؟». قال وهو يحدِّق في شاشته.

سحبتُ كرسياً لأجلس بجانبه. كان قد تمكَّن من تصفح الإنترنت، ومع أن الاتصال به كان رديئاً لكنه كان أفضل في الليل. بفضل سحر الخوادم البديلة التي كانت تتحايل على الرقابة، استطاع بورزو الدخول حتى إلى فيسبوك وتويتر. غزَت صورة امرأة شابة شاشة جهازه. أشار إليَّ أن افتح صفحة مختلفة فظهرت المرأة من جديد ووجهها الجامد محاطاً بمنديل أسود.

- «هاكِ انظري هنا أيضاً». أضاف بورزو. فتحتُ موقعاً آخر فرأيتها من جديد. كانت صورة المرأة المجهولة في كل مكان على شبكات التواصل الاجتماعي. انتهى بي الأمر بالنقر على رابط فيديو مرافق للصورة فظهرَت لي من جديد تلك الفتاة ذات الوجه الملائكي، على الأرض هذه المرة، وعيناها مفتوحتان على اتساعهما تنظران إلى السماء. كان الدم يسيل من فمها ويغمر خديها. حدَّقتُ عن قرب. كانت متمدِّدة على الأرض تنازع الموت أمام عدسة هاوٍ للتصوير، أحد أولئك المواطنين الصحافيين الذي صوَّر موتها ثم نشره على الإنترنت. تحت المقطع كُتب أن اسمها ندى، وأنها نزلت تتظاهر برفقة مدرِّس البيانو، وأنها قُتلت في العصر برصاصة في صدرها في جوار جادة كركار. هي إذاً من أصابته تلك الرصاصة المميتة.

هي التي تهاوت على بعد أمتار من مخبئنا. هي الضحية البريئة لرصاصة عنصر باسيج! كآلاف الإيرانيات، تجاهلت ندى تحذيرات والدتها ونزلت إلى الشارع لتطالب بحقِّها في التصويت. انضمَّت إلى الحشد مع مدرِّس الموسيقى الذي ظهر في المقطع وهو يرجوها البقاء على قيد الحياة، دون جدوى.

صُدمت. لم تكن ندى أيقونة الشجاعة تلك التي أصبحت عليها بفعل الأقدار لكثرة ما جابت صورتها العالم. ولم تكن ناشطة ولا مقاتلة. كانت ندى فتاة عادية، بطلةً كاللواتي يصادفهن المرء كل يوم، متظاهرة بسيطة لا أكثر. كانت، كسارة وسپيده وأنوشاه، شابة إيرانية حلمَت بمستقبل زاهر.

لم يتجاوز سنها 26 سنة.

رن الهاتف في الصباح. سمعتُ صوت فاطمة من الطرف الآخر.

- «هل أزعجتُك؟». همسَت.

جمدتُ. بعد عدة محاولات فاشلة كنت قد تخلَّيت عن محاولة الاتصال بها. كنت قد استنتجت أنها عادت إلى الحظيرة عقب خطاب خامنئي.

- «مسكينة ندى...». أضافَت فاطمة.

شرحت هاتان الكلمتان كل شيء. كانتا كافيتين للإفصاح عمَّا في نفسها. لقد اختارت فاطمة طرفها إذاً ورفضت العنف والقمع الدموي. لقد هزَّ كيانها موت شابة على الهواء مباشرة، وكان له وقعه على فاطمة كما فعل بنا، وربما أكثر.

* «لنتقابل، ما رأيك؟». عرضتُ عليها.

رغبت بصبر نافد في أن أتحدَّث إليها وجهاً لوجه. كان من الضروري أن تفسِّر لي. أردتُ أن تفصح لي عمَّا يدور في خلد رجال الباسيج. لمَ

تلك الوحشية؟ لمَ تلك الفوضى؟ لمَ كل أولئك القتلى دون جدوى؟ قبل ذلك بأيام انتشر خبر مقتل شباب آخرين على يد الباسيج في مهجع طلبة أميرأباد. حدث ذلك في حملة كما في عام 1999، لكن الفارق هذه المرة هو انتشار الفيديو فوراً على الإنترنت. فوسائل الإعلام الحديثة لم تعد تسمح بالتعتيم على أي شيء.

- «من الأفضل حالياً تجنُّب لقائنا... آسفة». أجابت فاطمة.

شعرت أنها مستاءة. كان هناك تردُّدٌ في صوتها. قالت لي إنها لا تخرج من بيتها إلا فيما ندر، وإنها نُصحت بعدم الخروج. عاد إلى ذهني أبوها، أحد رؤساء باسيج الضواحي، فلا بد أنه وراء تلك التحذيرات. لم ألحّ، فاتصالها بي أساساً كان مجازفة كبيرة.

اطمأننت عن صحتها حسب تقاليد التعارف أي قواعد التهذيب الإيرانية.

- «ممم... أمضي أيامي أمام تلفازي مفضلةً القنوات الفضائية عندما لا تتعرض للتشويش، ذلك أن التلفزيون الإيراني عبثي حقاً».

ميَّزتُ بوضوح جرأتها وطريقتها في الإيماء لي أنها ليس مغفّلة وأنها لم تقع ضحية للدعاية التي كان النظام يروِّج لها كل يوم.

منذ الصباح وحتى المساء، يظهر الحرس الثوري مراراً على التلفزيون ليؤكد أنه كشف مؤامرة حاكها أعداء إيران أو ثورة مخملية نسَّقتها الولايات المتحدة وإسرائيل. ولدعم مزاعمه بالقرائن كانت صور الجريمة تتكرَّر على الشاشات الصغيرة طوال النهار: أجهزة اتصال عن طريق الأقمار الصناعية وسلاح أبيض وما صودر في بيوت المتظاهرين من كمبيوترات محمولة. بعد بضعة أيام لربما يقال إن ندى سقطت برصاص "قاتل مأجور متعاقد مع مراسل BBC".

* «ومحمود؟». سألت.

كان ذلك السؤال يؤرقني حتى لو كنت متخوفة من أني أعرف جوابه سلفاً.

- «محمود؟»، رددت صدى سؤالي. «إنه مشغول كثيراً ولا أراه في هذه الفترة إلا لماماً».

تلا ذلك صمت طويل فظننت أنها تتردد في الحديث بالتفصيل على الهاتف، لكنها أضافت:

- «أظن أنه لم يعد يرغب فيَّ، لقد صرفتُ النظر عن الإنجاب».

جلست وأذني ملصقة بالسماعة. كانت طهران تتفتت بينما تفتح فاطمة، الباسيج التائبة، قلبها المتصدِّع وتبوح بأسرارها الحميمة.

هل كانت تحاول أن تحول أنظاري أم كانت هذه طريقتها في الجهر بيأسها؟ أجبت:

* «أتعنين أنك تفكرين في الطلاق؟».

- «لا أعرف، إنه في الوقت نفسه رجل طيب، فهو لا يضربني، وفي الأوقات العادية يعطيني حريتي. يمكنني حتى أن أتنزَّه مع صديقاتي، المشكلة الوحيدة هي أنه تزوج الباسيج قبل زواجه بي. لنقُل إنه يخونني مع الباسيج!».

شعرت أن التشوش قد بلغ بها أن تحطم الحاجز المتعارف عليه بين العام والخاص.

* «هل تقصدين أن محموداً قد اتبع أوامر المرشد؟». أضفت ملمحةً إلى خطبته يوم الجمعة.

أجابتني فاطمة بما كنت أخشاه:

- «منذ بضعة أيام عاد إلى البيت متأخِّراً جداً. وكان قميصه مدمًّى».

كنت أعرف أصلاً أكثر من المسموح به. فاطمة ومحمود كانا يشكّلان سوية تلك الإيران التي تتمزّق من الداخل. لم يعد ذلك صراع "إسلام ضد إسلام" وإنما "إيران ضد إيران"، أو بالأحرى عمامات ضد الباسداران، فعلى طرف تقف أغلبية سلمية تطمح إلى الانفتاح على العالم ويدعمها رجال دين بارزون، وعلى طرف آخر تقف أقلية عدوانية معبأة ضد الغرب وتُفضِّل العزلة والعنف باسم إيديولوجيا بائدة. فأي من الجماعتين سيربح الصراع في النهاية؟ كنت أتوق إلى الحديث مباشرة مع محمود. هل تحوَّل المحارب الطموح للقتال فيه إلى قاتل؟ عندما أنهيت المكالمة اتصلت برقمه مرات عدة فلم أقع إلا على رنين دونما جواب.

في المساء وبينما كنت أكتب مقالي عن ندى، اتصل بي.

- «ما الأخبار؟». سألني بنبرته الخالية من المشاعر التي لطالما اعتدتها منه. ميزتُ خلفه صخب الشارع الذي لا ينقطع. كان محمود خارج بيته في تلك الساعة المتأخرة.

* «يجب أن أطرح عليك سؤالاً». قلت له بصراحة.

- «نعم، كلي آذان صاغية». أجاب متفاجئاً.

* «لم تكن قاسياً للغاية مع المتظاهرين، أليس كذلك؟».

ضحك هازئاً. لا بد أنه خمَّن أني تحدثت مع فاطمة.

- «طبعاً لا، لا تهتمي! أكتفي بنقل الجرحى إلى المستشفى، ويلطخ ذلك قميصي أحياناً».

بقيت معقودة اللسان. لم يبق لديَّ ما أضيفه. كنت مقتنعة أنه يكذب عليَّ، لكن ربما كان ذلك يُهيَّأ لي. لم أعرف إن كان عليَّ أن أكرهه أو أن ألومه أو أن أعبِّر له عن شكوكي. هل من المعقول أن نتابع محادثتنا؟

كان هو من استأنف الكلام:

- «لا تهتمي! لن تدوم الفوضى. سترين أنه بعد بضعة أيام سيعود كل شيء إلى طبيعته».

ومع هذه الكلمات أغلق السماعة.

كان صباح 22 حزيران/ يونيو تاريخاً لا يُنسى. في غرفة المعيشة، كان التلفزيون الإيراني يبثُّ الأخبار. وأنا أستمع إليها بنصف أذن وقد أنهكتني ليال طويلة من الأرق. يرافق صوت المذيع وجبة إفطاري كلازمة صدئة. عندما سمعت كلمة صحفية، لم أتفاعل على الفور. كان الصوت منخفضاً. ثم تكررت الكلمة لعدة مرات بشكل غير اعتيادي. رفعت رأسي. فرأيت صورتي وقد احتلت نصف الشاشة.

قفزت من مقعدي. وكاد فنجان الشاي أن ينقلب. أمسكت بجهاز التحكم عن بعد كي أرفع الصوت فأستطيع الاستماع إلى التعليق المرافق للصورة. إلا أن المذيع كان يتحدَّث بسرعة كبيرة. صور أخرى عرضت بالسرعة نفسها، لم أتعرف على الوجوه إنما التقطت فقط بعض الشذرات من كلمات كـمؤامرة غربية، تلاعب وسائل الإعلام الأجنبية، عملاء الموساد والشيطان الأكبر. كانت كافية لفهم أن الخطر يقترب.

ناديت بورزو الذي كان يستحم، عندما دخل غرفة المعيشة بأقدامه المبتلة، كانت الأخبار قد انتهت. لم أكن في حاجة إلى الكثير من الشرح. فقد رأى في نظراتي المحبطة أن هناك ما يدعو للقلق.

في اليوم السابق، اعتقل مازيار بهاري، مراسل مجلة نيوزويك في إيران من منزله. وهو إيراني-كندي.

فبالإضافة إليه كنا بضعة صحافيين مزدوجي الجنسية، من بين آخر ممثِّلي وسائل الإعلام الغربية على الأراضي الإيرانية. حيث انتهت في

الأيام الماضية جميع التأشيرات الصحافية، وتم طرد آخر المبعوثين الخاصين. شاهدناهم يرحلون، واحداً تلو الآخر، في الوقت الذي اخترنا فيه البقاء، فهل أزفت ساعتنا؟ كان يحق لنا رسمياً تمديد إقامتنا. وجوازاتنا كانت إيرانية، مما جنَّبنا مساوئ التأشيرة ذات المدة المحدودة. ولكنه عرَّضنا أيضاً لمخاطر الاعتقال.

أصبحنا دون علمنا رهائن لنظام يتقهقر. شعرت بالخوف وأنا أفكر مرة أخرى فيما قاله محمود. ربما كان الأمر كذلك، العودة إلى النظام الذي كان يتحدث عنه.

في اليوم التالي، جاء صديق موثوق لرؤيتنا. كان مذعوراً. قام بوضع آخر عدد من صحيفة كيهان، صوت النظام، على الطاولة بيده التي ترتجف. وعلى عجل، قلَّب صفحاتها مشيراً بإصبعه إلى الصفحة التي أراد أن يرينا إياها.

- «هاكم، اقرأوا هذا».

كان مقالاً صغيراً. واحداً من تلك المقتطفات التي نادراً ما تحظى بالاهتمام. بعض الكلمات المكتوبة من اليسار إلى اليمين، مختصرة بفظاظة. يقول النص: "وسائل الإعلام الغربية تدفع المراسلين ذوي الجنسية المزدوجة للتجسس وجمع المعلومات بطريقة غير قانونية". لا حاجة إلى بذل جهد في القراءة ما بين السطور، فالرسالة كانت واضحة.

- «أشم رائحة لا تعجبني». قال بوررزو.

توجَّه الصديق نحونا، وكانت نظرته جدية.

- «بدلاً من قبول مطالب الشعب، يفضِّل قادتنا تصوُّر مسرحية كبيرة عنوانها الثورة المخملية بتحريض من الغرب. نصيحتي لكما: اذهبا وامضيا قبل أن يسندوا إليكما دور البطولة».

ثم قال لنا بانزعاج إن لديه أسباباً أخرى للقلق من أجلنا.

* «ما هي؟». سألت.

- «تلقَّيت اتصالاً من عنصر مخابرات تعرفونه».

السيد فنجر! رئيس المحققين المسؤول عني. كنت قد نسيته تقريباً. بمرور السنوات، تمكنت تقريباً من طرده من ذاكرتي. إن ظهوره ثانية لا يبشِّر بما هو جيِّد.

* «يريد أن يرانا؟». قاطعته، وأنا أفكر في الاستدعاء.

- «لا، الأمر أسوأ».

تعلقت عيوننا بشفتيه. تابع قائلاً: «قال لي أن أحذركم. وأن أقول لكم إن الأمر خرج من يده هو وأتباعه. وإن جهات أخرى أكثر أذى هي من استلمت زمام القضية. ولا مجال مع هؤلاء للمزاح. إن قبضوا عليكم فلا أحد يمكنه أن يخلصكم من قبضتهم».

عندها أدركنا أن الحرس الثوري هم من يقودون البلاد. كان نداء السيد فنجر إنذاراً أخيراً قبل السجن. كان لا بد لنا من أن نغادر فوراً وألا نساوم على بضعة أيام أخرى، لقد بقينا أساساً لفترة طويلة جداً.

خلال ساعات، نظَّمنا رحيلنا. سيكون جماعياً بالانضمام إلى آخر الصحافيين المتبقين من مزدوجي الجنسية. تشاورنا عن طريق سكايب، وبدت لنا الطريقة الأكثر أمناً، بالإجماع، أن نحجز على الرحلة الليلية نفسها إلى دبي، والتي تقلع في الصباح الباكر. وبعد أن حزمنا أمتعتنا التي لم نكن قد فككناها أصلاً، جلسنا، بورزو وأنا للمرة الأخيرة إلى طاولة الصالة والقلق ينهشنا. قمنا بكتابة رسالة طويلة إلى أقاربنا. كانت وثيقة ننفي فيها التهم التي قد نواجهها والاعترافات القسرية التي قد تُنتزع منا في حال تعرُّضنا للاعتقال. وكنا نأمل بواسطتها أن ندافع عن أنفسنا.

في وقت متأخر من بعد الظهر، ذهبت إلى سارة لأودِّعها.

كنت أريد أن أقبِّلها قبل مغادرتي لأتمنى لها كل الشجاعة التي لم تعد لديَّ. ضممتها بقوة إلى أن شعرت بعظامها تحت قميصها.

* «لقد ازددت نحولاً». قلت لها.

- «هل سمعت آخر نكتة؟ ابتدع الإيرانيون آخر صيحة في عالم الحمية: التظاهر لإنقاص الوزن. وعلاوة على ذلك، فهي لا تكلِّف شيئاً!».

أذهلتني فكاهتها، كانت درعاً ضد الاستبداد. وقبل مغادرتي، دست سارة ورقة في جيبي. «قصيدتي الأخيرة»، همست لي.

قلت لنفسي إنه سيكون لدي كل الوقت لقراءتها. سواء على متن الطائرة أو في السجن.

وصلت سپيده في تلك الأثناء. كانت لاهثة. فقد أمضت يومها في مطاردة الأخبار السيئة التي تساقطت عليها كسواطير. فقد وُضع قادة المعارضة رهن الإقامة الجبرية، ومستشاروهم وراء القضبان. وزملاؤها الصحافيون في طريقهم إلى الحدود التركية. كانت أيضاً على علم بأنهم يسعون وراءها. لذا كانت تبيت كل ليلة في مكان مختلف لتجنب الاعتقال.

- «ارحلي، ارحلي قبل فوات الأوان». قالت لي بإصرار.

* «وأنت؟». سألتها بصوت مرتجف. كان قلبي يجيش بالعواطف.

- «لا تقلقي، مررت بما هو أصعب!». ضحكت سپيده وهي تحرك كتفها الذي أصدر صوتاً، فهو لم يتعاف بعد منذ أول شجار لها مع الباسيج في التسعينيات.

تجمَّدت في مكاني، لم أستطع أن أضحك ولا حتى أن أبكي. قلت لها:

* «ولكنهم اليوم قد أصبحوا أكثر عنفاً».

- «أريد منك فقط وعداً»، أضافت، «ألا تنسونا!».

فأخذتها بين ذراعي. كان رأسها إزاء كتفي ووجهها مدفون في شعري. شعرت بدموعها تخضِّب قميصي.

- «إنه التعب. إنه التعب». تمتمت قائلة.

في تلك اللحظة كنت أجهل أنها ستُعتقل بعد أيام من مغادرتنا.

عندما وصلت سيارة الأجرة، في قلب الليل، كانت كرة من القلق تنعقد في حلقي. وتجلى أمامي ما لم أستطع تصوره:

كان رحيلنا نهائياً. فلم تكن سنواتي الماضية سوى تراكم لرحيل متعثر تلو الآخر. هذه المرة، بعد لعبة الاستغماء تلك التي لا نهاية لها مع إيران، بعثرت للأبد قطع أحجية ذكرياتي التي كنت قد لملمتها. عند إغلاق بوابة المبنى، ألقيت نظرة أخيرة على منزل العائلة الذي كنت آخر قاطنيه. من سيروي النباتات في الحديقة؟ من سيطعم الأسماك الذهبية في الحوض؟ هل ستسنح لي الفرصة لأن أرى طهران مرة أخرى؟

جلس بورزو بجانب السائق. وجلست أنا في القسم الخلفي من السيارة. في الخارج، كان لطهران لون الحزن. كانت ترتدي خمار الحداد. ألصقت جبهتي إلى الزجاج وأنا ألتقط بعيني صوراً لتلك المدينة التي تعلمت أن أحبها وها هي تهرب مني مجدداً. كانت الشوارع مهجورة، ومصابيح الشوارع باهتة. تباطأ السائق عند مروره أمام حاجز طيار للباسيج. في الظلام، قبل دخول الطريق السريع المؤدي إلى المطار، انسللنا بحذر بين القمامة المشتعلة والسيارات المحترقة. آخر لقطات من مدينة في نزاعها الأخير. اجتاحتني قشعريرة وأنا أفكر في أنه قريباً، قد لا يعود هناك شهود يروون ما حدث. كنت أرتجف تحت وشاحي. كان كل ما في ثائراً على المنعطف الذي اتخذه التاريخ الإيراني، تاريخي.

تتحرك سيارة الأجرة على طول خطوط رمادية. أنا خائفة. أعرف

طريق المطار عن ظهر قلب لكثرة ما سلكته. ولكنني أعرف أيضاً أن الأشخاص الذين يسببون الازعاج، يختفون هنا. ملتصقة بالنافذة، راقبت تلك الخطوط الرمادية وهي تعذب مقدمة وشاحي. يبدو الوقت طويلاً عندما لا يعود في استطاعتنا السيطرة على انفعالاتنا.

بعد نصف ساعة أو ربما أقل بقليل، اجتاح ضوء مبهر سيارة الأجرة. لقد وصلنا. كانت قاعة المغادرة الزجاجية العملاقة تعج بالركاب، والعربات تنوء بالأمتعة وعلب الحلوى والكراكيب من جميع الأصناف. انسللنا بين الحشد بصمت، وبحثنا عن ساعة الإقلاع في جدول الرحلات على اللائحة المضيئة، ثم مررنا على التفتيش الذاتي. عند مكتب الجوازات شعرنا بقليل من الارتياح لمرأى مجموعة صغيرة من أصدقائنا المراسلين. كخراف القطيع وقفنا في الصف جميعنا سوياً، تابعت بآذان متيقظة ما تبثه مكبرات الصوت مترقبة في كل لحظة وصول رجل ملتح باحثاً عني.

حاولت أن أتخيل ما قد يحدث بعدها: هل سيصحبني إلى غرفة صغيرة لاستجوابي؟ أم سيأخذني مباشرة إلى سجن إيفين؟ على الرغم من أنني لم أرتكب أي جريمة. ولا توجد مذكرة اعتقال ضدي. أوراقي كانت نظامية. لكنني أعرف أن في تلك اللحظة بالذات، يمكن لأي شيء أن يحدث.

عبرنا في النهاية دون عوائق، واحداً تلو الآخر. ما عدا الأخير بيننا، من خلف الزجاج، رأينا ضابط أمن يشير إليه أن يتبعه إلى أن تواريا في غرفة صغيرة. لم نجرؤ حتى على الهمس. بعد خمس دقائق، عاد إلينا الصديق، كان إنذاراً خاطئاً. دخلنا تباعاً إلى قاعة الانتظار. كان الجو حاراً وثقيلاً بشكل رهيب تحت أضواء النيون. وقلبي يخفق في صدري.

مزيج من القلق والتعب. لم يبق إلا بضع دقائق فقط. من وراء مكتبها، تنبّه المضيفة ذات الحجاب الكحلي المسافرين أن يستعدوا لركوب الطائرة، وعندما فتحت الأبواب اندفعنا إلى الطيارة كالهاربين.

عند الاقلاع، انزلق وشاحي على كتفيّ.

لم أعد أتذكر ذلك الاحساس الحلو لفروة الرأس عندما تتنفَّس من جديد. إحساس الحرية المستعادة. ملتُ على النافذة. يضيء الضريح الضخم للإمام الخميني الليل كأن شيئاً لم يكن، تتلألأ مآذنه كلاقطات تتجه نحو السماء، قبل أن يضيع بين السحب. لا شك في أن الإمام الكلي القدرة يضحك في قبره من محنتنا.

غرقت مقعدي، ووضعت وسادة تحت رقبتي.

فتشت في جيبي وأخرجت قصيدة سارة التي أعطتني إياها قبل مغادرتي وقمت بقراءتها:

في المسيل للدموع ما هو جيد
كرصاصة انطلاق السباق
تعدو
تحرقك عيناك
في المرة الأولى تخاف
- كالهراوة، كالكبل الرباعي -
في المرات القادمة تتعلم إخراج
سيجارتك
تدخن
يصرخ الجيران من النافذة: "إنهم قادمون!"
تتابع العدْوَ
كم هو حسن أن تعدو
عبر أشجار الدلب في جادة ولي عصر.
- لا أثر للدوريات الملتزمة جادة الصواب -

انطلاقاً من مكتبات جادة انقلاب

- ما أكثر الكتب المحظورة التي نبشناها هناك! -

نعدو

ليتكم فقط تستطيعون العدو معنا

أيها الأصدقاء المنفيون

إخوتنا الكبار يا من ضحيتم بحياتكم

من أجل مجرد منشور

أو على الجبهة

أو خلف جدران سجن إيفين

أبعدوكم عنا

نعدو

نشتاق إليكم

انتقلت الشعلة الآن إلى يد أخرى

فليحيَ هذا السباق

نعدو

وعيوننا مغرورقة بالدموع

نحو الحرية

انقبض قلبي. في عام 1997، وصلت إلى إيران مع قصيدة. وبعد اثني عشر عاماً، رافقت رحلتي قصيدة مرة أخرى. قصيدة تتغنى بعشق الحياة. بأمل بلد يرفض الظلمة. يراعة صغيرة في الليل البهيم.

حاشية، باريس في 2 أيلول/ سبتمبر 2014

مقبرة مونبارناس تعجُّ بتغريد العصافير.

منذ موتك لأربع عشرة سنة خلت يا باباي، هذه هي المرة الأولى التي أتأمل فيها وحيدة على قبرك.

تصوَّر أن كتابة هذه الرسالة لك والمجيء لوضعها على هذا الرخام البارد الذي يحمي آخر أسرارك قد اقتضيا كل تلك المدة وكل تلك الكيلومترات والبعد الضروري عن بلدك المستعاد.

أجلس القرفصاء واضعة يدي على شاهدة قبرك. كانت في ذاكرتي أكثر نعومة مما هي الآن. تآكلت بفعل مطر السنوات. أسرح نظري فيها فألمح شمس نهاية الصيف تداعب لوحة صغيرة من فسيفساء أصفهان، بقعة دقيقة من الألوان في وسط مربع جنائزي. ترك أحدهم زهوراً على قاعدة الشاهدة. أهو زميل سابق من اليونسكو؟ أم إحدى عشيقاتك في الماضي؟ هاك لغز آخر من ألغازك التي ستبقى أبداً مدفونة.

أغلق عيني فيبرز من فوضى الذكريات وجهك وابتسامتك للمطلق. يتقاطع وجهك مع أوجه أخرى لموتى ظلوا أحياء إلى الأبد في ذاكرتي: أردشير البهلوان صاحب القلب الحر الذي انتحر، وندى الصبية ذات الأحلام الكسيرة، وكذلك كل الآخرين الذين طمحوا إلى الديمقراطية ورحلوا باكراً في موجة قمع مظاهرات 2009. كم عدد الذين دفعوا حياتهم ثمناً لأحلام الحرية؟ كم عدد الذين حُرموا من جنازة وحتى أحياناً من

الدفن لأن السلطة عدَّتْهم في موتهم خطيرين كما في حياتهم؟ كل هذا الظلم كان ليغضبك بقدر ما يغضبني.

أفكر مجدداً في مغادرتي إيران على عجل بعد رحلة طويلة كنت أنت مُطلقها. في 25 حزيران/ يونيو أغلقت مكرَهة باب بلاد محكوم عليها بالنسيان. إن التخوف على كل تلك الذكريات من أن تتلف هو ما دفعني إلى الإمساك بقلمي لأهديك هذه الحكاية.

أذكر أني عندما كنت صغيرة كنت أخاطبك في رسائلي من باريس بينما ينهشني خوفُ أن تختفي من ذاكرتي، أنت الذي كنت تسكن إيران النائية تلك. كنت أجمع آنذاك كل ما كنت أقع عليه من قصص وحكايات وتفاصيل، حتى الهامشي منها، ثم أبوح بها للورق كي تبقى حاضرة. كنت مقتنعة أني بهذه الطريقة سأنجح في إبقائك حياً. وبعد ذلك بسنين بينما كنتُ في طهران أُدفع إلى المغادرة كان الهاجس نفسه يتملَّكني: أن أكتب حتى لا أنسى.

لكن عدوى الرقابة التي مست أصدقائي طالتني. قبل اعتقال سپيده في آخر آب/ أغسطس 2009 بأيام كتبَت في مدونتها: قلمي طوطمي. وعندما كانت معزولة في زنزانتها في سجن إيفين حُرمت من استقبال الزوّار ومن النور الطبيعي ومن الورق وحتى من القلم. ثم عند إطلاق سراحها بعد أربعة أشهر قصت عليَّ كابوسها بوساطة صديقة مشتركة: تحطمت استغاثاتها على البوابة الحديدية، الاستجوابات لمدد طويلة، عيناها المعصوبتان وهي واقفة مقابل جدار، يدا سجانها المتحرشتان. ثم أتت الوقاحة العُظمى على لسان القاضي يوم النطق بالحكم: «لا تضيعي وقتك بالكتابة. لقد أخذت تشيخين والأجدر بك التفكير في الإنجاب. عِديني أن تجعلي ذلك أولويتك!».

سارة أيضاً دخلت طي النسيان، القصيدة التي أعطتني إياها لم تُنشر أبداً بالفارسية، اكتفت وزارة الثقافة ولجنة الرقابة بجعلها تنام كجثة في قعر أدراجهما. أخبرتني بذلك في إحدى أمسيات عام 2010 في إحدى محادثاتنا عبر السكايب، آخر نافذة لها على العالم الخارجي. أعادت طلاء جدران شقتها الصغيرة التي تلوذ بها في طهران باللون الفستقي. وفي ليالي أرقها، كانت ترتجل رباعيات تخطها بحبر أخضر على البلاط الأبيض للحمام، كلمات متمردة وزائلة تتلاشى على الفور تحت رذاذ الدُّش.

بعد بضعة أشهر، التزم حتى أشد المتظاهرين جرأة الصمت في النهاية تحت وطأة قمع دون رحمة، ترافقه المحاكمات الجماعية والإكراه على الإدلاء باعترافات على شاشات التلفاز. وانتهت حتى الباحثة الفرنسية كلوتيلد ريس، في قفص الاتهام بعد أن ألقي القبض عليه في المطار بعد بضعة أيام على رحيلنا، وأصبحت بذلك الرهينة التي كان يمكن أن أكونها.

وأنت، كيف كانت لتكون ردة فعلك على تلك الإجراءات القمعية؟ هل كنت لتجد في ديوان حافظ السكينة التي تنشدها؟

أما عني، فتابعت الترحال. مع بداية الربيع العربي، مضيت نحو ثورات أخرى أتحرى التقارير: تونسية ومصرية وليبية وسورية... انتابني الخوف من إعادة فتح الحقيبة الإيرانية ومواجهة الذكرى السوداء للأصدقاء المختفين. كتبت عن شهداء آخرين كان موتهم ربما أكثر عنفاً. في الواقع، أنساني تراكم الأكفان المعنى الحقيقي للحياة.

كان الوقت قد حان للتوقف في منتصف هذا السباق المحموم. في مطلع صيف 2011، حططتُ رحالي كمراسلة صحفية في شقتنا اللبنانية. وأخذت إجازة حقيقية في بلاد الأرز، للمرة الأولى منذ بدء مسيرتي

المهنية، بعيداً عن ضجيج الأخبار وأجهزة الكومبيوتر. لأجد أنني أصبحت حاملاً بعد شهر، كانت تلك أجمل هدية.

لو كنت لا تزال بيننا، لوقعت على الفور أسيراً لحب سامرّا. ولدت في بيروت في آذار/ مارس 2012، بذراعين مفتوحين على العالم، كإعلان عن قدوم فصل الربيع. ويعني اسمها بالعربية الفصحى "سرُّ من رأى". في إشارة إلى تلك المدينة القديمة في بلاد ما بين النهرين حيث قضينا بعض الوقت أنا وبورزو خلال إقامتنا في العراق. هكذا هي الحياة، محملة بالرموز، علمتني أن أقدرها من خلال قصيدة أهديتني إياها قبل أن تلفظ أنفاسك الأخيرة.

في نيسان/ أبريل، بعد شهر من ولادة سامرّا، انتقلنا إلى القاهرة، حيث نقيم الآن[1]. بعد بضعة أيام بدأت أخيراً بفتح صندوق الذكريات، مستفيدة من قيلولات ابنتي للتنقيب في ذاكرتي وملء أولى السطور الرمادية من الصفحة الفارغة. دُهشت وأنا أرى الكلمات تنساب بسهولة.

لم يكن تخطي الحواجز ممكناً كما هو الآن. منحتني سامرّا القوة للكتابة. كما لو أنه كان على انتظار ولادة هذا الكائن الصغير لأتجرأ على وضع هذا المولود من الورق.

أما البقية، فكانت خارجة عن المألوف وكانت لتسرك كثيراً، في ربيع عام 2014، أخذنا ذلك الحلم الذي تخلينا عن تحقيقه إلى طهران في عطلة قصيرة للاحتفال بعيد النوروز، رأس السنة الفارسية الجديدة. تغيرت العديد من الأمور منذ رحيلنا. في حزيران/ يونيو 2013، بعد أربع سنوات من الكآبة، فاز حسن روحاني في الانتخابات الرئاسية. في إيران المفاجآت

---

(1) تقيم الكاتبة حالياً في استانبول وتغطي أحداث الشرق الأوسط وتركيا والشمال السوري ككبيرة مراسلي صحيفة لوفيغارو في الشرق الأوسط. (المترجمة).

تلك، أخذ رجل الدين المعتدل هذا يدعو إلى الانفتاح والحوار. وكأنما أجبر سقوط الطغاة في المنطقة وتعزيز العقوبات الدولية المفروضة على البلاد، المرشد الأعلى على الموافقة على التغييرات.

منذ عمر السنتين، كانت سامرا تعجب بكل شيء.

الأسماك الذهبية والرمان المجفف، والأغصان المشتعلة التي يقفز الناس فوقها درءاً لشر العين. كانت الشوارع مزدهرة، تغص بالحاجي فيروز، وهم شعراء جوالون يعتمرون قبعة حمراء ويصبغون وجوههم بالأسود ويغنون لتجدد الخليقة عند شبابيك السيارات المفتوحة. كم هي مؤثرة رؤية العاصمة من خلال عيني طفل! ولقاء سارة مجدداً ووعدها بنشر قصائدها. ومعانقة سپيده التي استعادت تصريح عملها وكيلوغراماتها المفقودة في السجن. حتى جدران المدينة كانت تغني سراً للربيع المستعاد. إنه ربيع الحرية، أنت معنا يا ندى، هكذا تقول كتابة على الجدران.

كانت هذه الرحلة أيضاً فرصة لرؤية فاطمة التي ضربت لنا موعداً عائلياً في حدائق القصر السابق للشاه، في تلال نياوران. رأيتها ممسكة بيد طفلة، ماسه ابنتها البالغة أربع سنوات، ومحمود معهما. وكحال اللاعبين السياسيين في هذا البلد، تصالح الزوجان الباسيج، على الأقل في المظهر.

وعلى الفور رأيت في ماسه الحماس نفسه الذي لأمها. لم تكن تلك الفتاة تهاب شيئاً، تسلقت تماثيل الأسود التي يمنع الاقتراب منها، وانخرطت في لعبة كرة القدم بين مراهقين. كانت سامرا التي تصغرها بعامين، تنظر إليها بإعجاب عفوي. هل ستصبح ابنتانا صديقتين يوماً ما؟ هل سيكون لديهما الفضول للخوض في تاريخ عائلتيهما كما فعلت بإظهار تاريخك على سطح ذاكرتي؟ عند كل زيارة إلى باريس تكون ماماني، إضافة إلى جدتي الفرنسية، من أوائل من يزوروننا. أحب الاستماع إلى سامرا

وهي تجيبها بالفارسية عندما تهدهدها بأغنيات إيرانية. معاً، تلهوان بقطف زهور الياسمين التي أنبتتها ماماني على شرفتها حنيناً لذكرى طهران.

يقتلعني صدى قرع جرس من أفكاري، أفتح جفنيّ، الساعة الآن أصبحت السادسة إلا ربعاً مساءً، بقيت 15 دقيقة على إغلاق المقبرة. أستجمع أفكاري وأنا جالسة عند شاهدة قبرك أنظر إلى الصيف وهو ينقضي. أخذت الأشجار المحيطة بالتحول إلى اللون الذهبي، ومالت الشمس راسمة في السماء مسحة وردية وفي إثرها اتخذت سحابة شكل موجة تداعب بعض الذكريات الأخيرة:

علي جعفريان قائد أوركسترا شيراز الرائع، توفي فجأة بسبب قصور في القلب. كما غادرنا سريعاً موسى بابا، تاجر التحف اليهودي ذو الغالونات السحرية. أما علي منتظري، فحتى في وفاته في أواخر كانون الأول/ ديسمبر من عام 2009، كاد أن يقوّض السلطة. ففي جنازة آية الله المستنير هذا، لم تشهد قُم من قبل هذا العدد من الناس يغمرون شوارعها. وهي إشارة إلى ثورة صامتة لم تقل بعد كلمتها الأخيرة.

من حين إلى آخر، يظهر بعد المعارف مجدداً بفضل سحر الفيس بوك. كالملا ذو السترة الجلدية، المنفي إلى أوروبا، حيث يعمل حالياً من أجل السلام بين الأديان. ونيلوفر عرابة الشبيبة التي التقيت بها منذ بضع سنوات في شرفة مقهى باريسي، حيث قالت لي كلمات لن أتمكن من نسيانها: «إيران ككأس مكسور، إن ألصقنا شظاياه فإنه سيتماسك مؤقتاً، ولكن يمكنه أن يتصدع في أي لحظة».

لم يعد السيد فنجر للظهور ثانية. وهذا أفضل. أما عن كمبيوتري المحمول الذي سُرق في باريس، فلم أسمع أي شيء عنه، باستثناء بريد وردني من الشرطة القضائية، ذات صباح، يقولون فيه إنهم قد أغلقوا ملف القضية.

دق الجرس بصوت أعلى هذه المرة. من بعيد، يومئ إليَّ حارس مقبرة مونبارناس بأنه ينتظرني لإغلاق البوابة، إنها السادسة مساءً. في المرة القادمة، سأبكِّر في الحضور وسأصطحب معي سامرّا. سنقرأ معاً أشعار حافظ وسأحدثها عمَّن كشف لي جانباً غير مرئي مني.

دلفين مينوي

صحافية فرنسية من أصول إيرانية، مواليد العام 1974. عملت مراسلة لعدد من الصحف الفرنسية في إيران لعشر سنوات 1997-2007.

حازت على جائزة ألبرت لوندر للصحافة في العام 2006 مع صحيفة الليفغارو عن سلسلة من المقالات التي كتبتها عن إيران والعراق، وهي أعلى جائزة صحافية في فرنسا.

صدر لها كتاب «أنا نجود ابنة العاشرة ومطلقة» بالتعاون مع نجود علي، والذي يروي قصة نجود الحقيقية عن زواج القاصرات في اليمن.

ريتا باريش

من مواليد مدينة دمشق عام 1981، درست الترجمة بين عامي 2002 و2006 بجانب تخصصها في الآثار ومن ثم في المصارف والتمويل حيث حازت فيها على درجة الماجستير من جامعة بوردو، لتعمل في الحقل المالي والمصرفي، وكانت تحضّر لنيل شهادة الماجستير في الترجمة (فرنسي - عربي) من جامعة ليون.

اهتمت مبكراً بآداب اللغة الفرنسية وعلوم اللغة واللسانيات إضافة الى إجادتها للإسبانية والإنجليزية والألمانية، وهي مقيمة حالياً في فرانكفورت حيث تعمل كمترجمة مستقلة منذ مطلع عام 2014.

رأيت جدات ملتفات بالحجاب من الرأس إلى أخمص القدمين، وعمّالاً بثياب العمل الزرقاء، ومحاربين قدامى من المصابين في الحرب على كراسيهم المتحركة، والأطفال على أكتاف الآباء. شاهدت كيف كانت عيونهم تتجه نحو السماء وأفواههم مستعدة لترديد أول هتاف. وفي أقل من ساعة، اتحدت تلك المجموعات لتشكّل سلسلة بشرية واحدة. بجوارنا كان هناك رجلان عجوزان أخذا يهتفان: " أعيدوا إلينا أصواتنا!". وقد أمسكا بأيدي بعضهما البعض. قال أحدهما أنه لم يغادر منزله منذ عام وأضاف :

"منذ سنوات وأنا أحلم بهذا اليوم! كنت أغمض عيني وأبكي أحياناً وأنا أتخيَّل هذه اللحظة، وها هي الآن تتجلى أمام ناظري. الآن لو مت، فسأموت بسلام ."

من الكتاب

****

منذ الثورة التي أطاحت بالشاه في العام 1979، تعيش إيران حالة من الغليان الدائم والتقلُّبات الاجتماعية والسياسية الكبيرة. من هناك تكتبُ دلفين مينوي، الصحافية الفرنسية من أصول إيرانية والحائزة على جائزة ألبرت لوندر للصحافة، تجربتها في الحياة في إيران لمدة عشر سنوات، ومن ضمنها إحدى أكثر الفترات غموضاً في تاريخ إيران؛ الحركة الخضراء .

الناشر





